حالة أهل الحقيقة مع الله

لجامعه القاضي الشيخ الصالح الفقيه الجليل
أبي شجاع ابن منيع الشافعي الواسطي
عن ناثر دُرَرِه وناظم غُرَرِه سيدنا
ومولانا وسندنا القطب الغوث
الأعظم السيد أحمد الرفاعي
رضي الله عنه

حققه وعلق عليه

عبد الغني نكه مي

دار الكتاب النفيس

حالة أهل الحقيقة

مع الله

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ

دار الكتاب النفيس للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ص.ب: ١٤/٥٤٨٢ حلب ص.ب ١٦٧٤

حالة أهل الحقيقة

مع الله

لجامعه القاضي الشيخ الصالح الفقيه الجليل
أبي شجاع ابن منعم الشافعي الواسطي
عن ناثر درره وناظم غرره سيدنا
ومولانا وسندنا القطب الغوث
الأعظم السيد أحمد الرفاعي
رضي الله عنه

حققه وعلق عليه

عبد الغني نكه مي

دار الكتاب النفيس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المحَقق

● أحمد الله تعالى ؛

وأصلّي وأسلّم على سيدنا ومولانا محمد، الذي أنقذنا الله به من الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، إلى نور الحق، وعين اليقين، وصراط الله المستقيم؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، الذين نهجوا سبيله، واتبعوا شريعته، بصدق الهمّة، وشجاعة العزيمة؛

فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل الفردوس الأعلى مأواهم، وحشرنا معهم، إنه أكرم مأمول، وخير مسئول.

● وبعد؛ إن من فضل الله عليّ، أن وفقني لخدمة هذا الكتاب الجليل: «حالة أهل الحقيقة مع الله» لسيدي العارف بالله تعالى: «أحمد الرفاعي» رضي الله عنه، فقد استعنت بالله تعالى على تحقيقه ونشره بين الناس، بمظهر يليق بمكانة الكتاب، وبمؤلفه رضي الله عنه.

● عملي في الكتاب: قابلت هذه الطبعة على ثلاث نسخ

مطبوعة، كانت الأولى: في مصر سنة: [١٣١٥] هـ. والثانية: في حلب سنة: [١٣٧٨] هـ. والثالثة: في حلب ـ أيضاً ـ سنة [١٣٨٢] هـ .

والطبعتان الحلبيتان كانتا بإشراف أستاذنا العلاَّمة المرحوم ، الشيخ : « محمد نجيب خياطة » رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

وبما أن الكتاب يفتقر إلى عناوين فرعية، لتسهل مطالعته، فقد وضعت له عناوين، وقيدتها بحاصرين معقوفين هكذا: [ ] ، وذلك للتمييز بين كلام المؤلف، وكلام المحقق؛ وخرَّجت أحاديث الكتاب، وقابلتها على الأصول، فإن كان الحديث في الصحاح، وفيه بعض الاختلاف في اللفظ، أثبته كما هو في كتب الحديث الشريف، واعتبرت هذا الاختلاف من خطأ النساخ، وأما الحديث الذي لم أعثر على مخرِّج له، فقد أغفلت التعليق عليه، وتركته لأهل علوم الحديث، السادة العلماء؛

أما العوامُّ، فعلى الغالب لا يبحثون عن تخريج الأحاديث، رغبة في الاختصار.

وترجمت بعض الأعلام، الواردة أسماؤهم، ليُعرف صاحب الحكمة أو النصيحة ، وقد أغفلت أكثر تراجم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لمعرفة الناس بهم .

● وبما أن الكتاب مفقود، والرغبة في ثواب نشر العلم موجودة، اعتمدت على الله تعالى، في إخراجه، ونشره بين المسلمين ، لعلهم يقتبسون من أنوار وعلوم مؤلفه ـ رحمه الله

تعالى ـ ما ينفعهم يوم حشرهم ونشرهم.

وإن مدار هذا الكتاب : على القرآن العظيم ، والسُّنَّة النبوية المطهرة، وأقوال سلفنا الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين.

● وأنا لست من المحققين، غير أن قلة الرجال، تركت مجالاً لهذا العبد الضعيف، أن يتجرأ على عمل لا يستطيعه إلاّ أهله، فإني استميح أهله عذراً، وأرجو ممن رأى خللاً أو زللاً، أن ينبهني إليه على عنوان الناشر، وله من الله الأجر، ومني الشكر.

● وأسأل الله تعالى من فضله: أن يجعل الإخلاص رائدنا، في أقوالنا، وأفعالنا، وسلوكنا؛ وأن يجعل أعمالنا خيراً من أقوالنا، وأن يذلِّل لنا الصعاب، في دنيانا وآخرتنا، وأن يجمع شملنا على طاعته وما يُرضيه عنّا، وأن يحسن ختامنا، وأن يحشرنا مع حبيبنا وقرة أعيننا، سيدنا «**محمد رسول الله**» صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. . آمين.

وهذا وقت الشروع، في تقديم نبذة عن إمامنا السيد: «أحمد الرفاعي» رضي الله عنه فأقول:

ترجَمَة المؤلف

(رضي الله عنه)

● **نسبه لأبيه:** هو السيد الجليل، القطب الوارث المحمدي: أحمد بن علي بن يحيىٰ بن ثابت، بن علي الحازم، بن أحمد بن علي بن الحسن ـ الملقب: برفاعة الهاشمي المكي ـ، ابن المهدي بن محمد، بن الحسن بن الحسين، بن أحمد بن موسى الثاني، ابن إبراهيم المرتضىٰ، ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام زين العابدين عليّ، ابن الإمام الحسين ـ الشهيد بكربلاء ـ ابن سيدنا عليّ رضي الله عنه وعنهم وعنًا أجمعين.

● **نسبه لأمه:**

هو السيد أحمد الرفاعي، ابن السيدة فاطمة النجارية، بنت الشيخ أبي سعيد يحيى النجاري الأنصاري، ابن الشيخ موسى أبي سعيد، ابن الشيخ كامل، ابن الشيخ يحيى الكبير، ابن الإمام الصوفي الشهير: محمد بن أبي بكر الواسطي، ابن موسى، بن محمد، بن منصور، بن خالد، بن زيد، بن مَتِّ وهو أيوب، بن

خالد: أبي أيوب، ابن زيد الأنصاري، النجاري، الصحابي الجليل، رضي الله عنه.

● **وأم أمه**: السيدة رابعة، بنت السيد عبد الله الطاهر، ابن السيد أبي علي سالم النقيب، ابن السيد أبي الفتح محمد ابن أمير الحاج، ابن الأمير السيد محمد الأشتر، ابن السيد عبيد الله الأعرج، ابن السيد الحسين الأصغر، ابن الإمام زين العابدين عليّ، ابن الإمام الحسين رضي الله عنه، سبط رسول الله ﷺ.

● **مولده**:

ولد رضي الله عنه في: «قرية حسن» بالبطائح(١)، في شهر رجب الفرد، سنة [٥١٢] من هجرة المصطفى ﷺ.

● **نشأته**:

درس القرآن العظيم، ولما بلغ من العمر سبع سنين، توفي والده ببغداد، فكفله خاله الباز الأشهب: الشيخ منصور البطائحي الأنصاري الحسيني رضي الله عنه، ونقَلَه ووالدتَه وإخوتَه، إلى بلدة نهر دقلى ـ من أعمال واسط بالعراق ـ ثم نقله إلى واسط، وأدخله على الإمام العلامة، المقري الحجة الشيخ: علي أبي الفضل الواسطي ـ قَدَّس الله سرَّه ـ فتولى أمر تربيته وتعليمه وتأديبه، فبرع في العلوم النقلية والعقلية، واشتهر وأحرز قصب السبق على

---

(١) قرية حسن: هي قرية من أعمال واسط ـ بلد في العراق ـ محاذية لـ: «أم عبيدة». والبطائح: قرى مجتمعة حول الماء.

أقرانه، ولا زال يعظم أمره، وينمو علمه، حتى تفرد في زمانه، ورجع إليه أشياخه، وقد أفاض الله عليه، من العلوم والآداب: الشيء الكثير، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[(١)].

● علمه ووعظه:

كان رضي الله عنه: يسكت حتى يقال: إنه لا يتكلم، فإذا تكلَّم بلَّ بعذوبة كلامه الغليل، وداوى العليل، ترك نفسه، وتواضع للناس من غير حاجة إلى مالهم أو جاههم؛ وكظم غيظه من غير ضجر، وكان ليِّن العريكة، هيِّن المؤونة، سهل الخُلُق، كريم النفس، حسن المعاشرة، بسَّاماً من غير ضحك، اجتمعت فيه مكارم الأخلاق؛

● وكان رضي الله عنه: فقيهاً، عالماً، مقرئاً مجوِّداً، محدِّثاً، مفسراً؛ وله إجازات وروايات عاليات، يعلِّمُ الناسَ سنن المصطفى ﷺ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛

● وكان يقول: تجارة العارف: الدلالة على الله، وسَوْق القلب إلى الله.

وكان إذا قال قولاً، أتبعه بصحة العلم، وصدق القول، ولم يخالف قوله فعلَه قط.

● وفاته:

توفي رضي الله عنه، وقت الظهيرة، في اليوم الثاني عشر من

---

(١) الحديد: ٢١، والجمعة: ٤.

جمادى الأولى، سنة: [٥٧٨] هجرية، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً، ودفن في «أمِّ عَبيدة» في قبته المباركة المشهورة، فكانت مدة حياته: [٦٦] سنة، رضي الله عنه، وعن أسلافه الطاهرين، وفروعه الطيبين، وعنّا وعن جميع المسلمين. وإن أردت ـ أخي الكريم ـ التوسع في موضوع الأولياء وكراماتهم، فاقرأ فصل: «أولياء الله تعالى» في كتابي: «حدائق المتقين» ترَ فيه الأدلة القاطعة، بوجوب الإيمان بكرامات الأولياء، رضي الله عنهم وأرضاهم.

حلب ـ جامع العثمانية

في اليوم الأول، من شهر محرم الحرام،

سنة: [١٤٠٨] هـ.

المفتقر إلى عفو ربه تعالى

عبد الغني نكه مي

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة راوي الكتاب]:

قال الشيخ الإمام، السيد محيي الدين أحمد الأخضر، ابن السيد سلمان، ابن السيد أحمد، ابن السيد سليمان - نزيل الرحبة - ابن السيد إبراهيم، ابن السيد أبي المعالي عبد المنعم، ابن السيد أبي العباس أحمد البطايحي - نزيل الهمامية، بواسط - الرفاعي الحسيني، رضي الله عنه، وعن أسلافه الطاهرين أجمعين:

[تاريخ محاضرات الكتاب]:

أُلقي برواق أم عَبيدة، عام «تسعة وأربعين وخمسمائة» للقوم: كتاب «**حالة أهل الحقيقة مع الله**» أعني: الكتاب الجليل، والسِّفْر[1] العديم المثيل، الذي انتظم من أربعين مجلساً - كل يوم

---

(١) السِّفْرُ: الكتاب.

خميس مجلس ـ أولها: أول خميس من شهر رجب من ذلك العام؛ وقد صدر من لسان قطب الأقطاب المتمكنين، سلطان الأولياء والعارفين، محيي الحق والشريعة والدين، المشرَّف جهاراً، بتقبيل يد جده، سيد المرسلين ـ ﷺ ـ مصباح المعرفة المنير، مولانا وشيخنا، ومرشدنا إلى الله تعالى «أحمد الرفاعي» الحسيني الحسني، الأنصاري الكبير، رضي الله عنه، وعنَّا به، ونفعنا والمسلمين بعلومه.

فهو روح من روح القدس، وحال من حال حضرة الأُنس، يدل على الطريق، ويأخذ للتمسك بالعهد الوثيق، ويلزم بالاستقامة، ويفرغ في القلب التزام منهج أهل السلامة.

[إجازات القراءة]:

وإني قد قرأته في أربعين مجلساً، بعد الإجازة به على سيدي ومولاي، القطب الفرد الأوحد، شمس الدين: أحمد المستعجل ابن الرفاعي، رضي الله عنه، في رواق «أم عَبيدة» وهو قال: قرأته في أربعين مجلساً، بعد الإجازة به على جدي لأمي، السيد القطب العارف بالله تعالى، نجم الدين أحمد ابن الرفاعي رضي الله عنه، وهو قال: قرأته في أربعين مجلساً بعد الإجازة به على أخي وسيدي ومولاي، القطب الأعظم، أبي إسحٰق السيد إبراهيم الأعزب رضي الله عنه، وهو قال: سمعته في أربعين مجلساً من لسان جدي القطب الغوث الأكبر، سلطان الأولياء

والعارفين، سيدنا السيد أحمد الرفاعي، رضي الله عنه، ونفعنا بعلومه؛ وقد استجزته به فأجاز.

وسمعته أيضاً من جامعه الشيخ العارف بالله الفقيه، أبي شجاع بن منجح الشافعي رضي الله عنه. انتهى.

وقد أجازني بقراءته الشيخ الفقيه، عفيف الدين أبو طالب المقري الصوفي، وهو قال: أجازني بقراءته الشيخ العارف العالم، الشريف شرف الدين، أبو طالب ابن عبد السميع العباسي الهاشمي، وهو قال: قد أجازني بقراءته القاضي الشيخ الصالح، الفقيه الجليل جامعه، أبو شجاع ابن منجح الشافعي الواسطي، وهو قال: قد أجاز بقراءته بعد جَمْعِهِ، كما تلقيناه في جمٍّ غفير من ناثر درره الشريفة، وناظم أساليبه المنيفة، سيدنا ومولانا وسندنا القطب الغوث الأعظم، حجة الله على أوليائه العارفين، السيد أحمد محيي الدين الكبير، الرفاعي الحسيني رضي الله عنه، ونفعنا به.

ولنا من طريق الشيخ عفيف الدين: الإذن بقراءة كتاب: «البرهان المؤيد» الذي جمعه من كلام سيدنا السيد أحمد الرفاعي، رضي الله عنه، الشريف العلامة شرف الدين بن عبد السميع العباسي رحمه الله، عن الشريف شرف الدين، عن صاحبه الإمام الرفاعي رضي الله عنه.

ولنا من هذا الطريق: الإذن بقراءة: «الحِكَمِ الأحمدية»

بسندنا عن الشيخ عفيف الدين، عن الشيخ شرف الدين، عن أبيه الشريف عبد السميع الهاشمي الواسطي، عن ناسج برودها، وناظم عقودها، سيدنا الإمام السنيد أحمد الرفاعي، رضي الله عنه، وعنهم أجمعين.

وهذا نص ما تلقيناه عن مشايخنا، رحمهم الله من كتاب: «حالة أهل الحقيقة مع الله»:

بسم الله الرحمن الرحيم

[نسب الإمام الرفاعي]:

قال شيخنا وسيدنا شيخ الطوائف، أبو العلمين، وارث رسول الثقلين، القطب الغوث، الجامع الحجة، العارف القدوة، إمام الأولياء، السيد أحمد محيي الدين، أبو العباس الكبير، الرفاعي الحسيني، ابن السيد أبي الحسن علي، ابن السيد يحيىٰ، ابن السيد الثابت، ابن السيد علي الحازم أبو الفوارس، ابن السيد أحمد، ابن السيد علي، ابن السيد الحسن ـ الملقب: برفاعة الهاشمي المكي ـ ابن السيد المهدي، ابن السيد أبي القاسم محمد، ابن السيد الحسن، ابن السيد الحسين، ابن السيد أحمد، ابن السيد موسى الثاني، ابن السيد إبراهيم المرتضى، ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام زين العابدين علي، ابن زبدة السادة الأئمة، وعمدة قادة الأُمَّة، الذي امتُحن بأنواع البلاء، أمير المؤمنين أبي عبد الله، الإمام الحسين ـ الشهيد بكربلاء ـ ابن إمام أئمة الأولياء، وقائد أزِمَّةِ الأصفياء، ذي السوابق الكبرى، والمفاخر والمناقب

الوفرى، باب مدينة العلوم والحِكَم، السيد الذي كل مقام له ممنوح، المشبَّه بكبار الأنبياء: كآدم، وإبراهيم، ونوح؛ الذي قدره كاسمه حسن، وعلى أمير المؤمنين أبي الحسن علي، رضوان الله عليه، وعليهم أجمعين.

* * *

مقـــدّمة المؤلف

(رحمه الله تعالى)

● الحمد لله حمداً نصل به إلى كشف الحجاب، ونُعَدُّ به من الأحباب،

ونشهد أنْ لا إله إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له،

ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وصفيه، وخيرته من خلقه، بعثه الله بالنور الساطع، والبين اللامع، والسيف القاطع[١]، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وأوضح السُّنَّة، وأسس الشريعة، ونصح الأمَّة، وعَبَدَ اللَّهَ حتى أتاه اليقين[٢]،

---

(١) أي: حماية لدينه من أن يؤذى أهله، لا أن السيف للإكراه على الدخول في دين الإسلام قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. من تحقيق النسخة القديمة.

(٢) أي: الموت، امتثالاً لأمره تعالى حيث قال له: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحِجْر: ٩٩]. ولقد قام صلوات الله وسلامه عليه الليل حتى تورَّمت قدماه، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ! فَقِيلَ لَهُ: قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً». اللهم وفقنا لطاعتك، وألهمنا شكرك، وزدنا من فضلك!

فصلوات الله عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذه جمل نذكر فيها: «حالة أهل الحقيقة مع الله» ـ ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ـ وذلك لترتاضَ النفوس، ولتتروح القلوب، بنسبة ما ألفت إليه؛ وإلاَّ فمنبعنا وقتي، وثريدنا طري، من مائدة النبيِّ، بالتنزل الإلٓهي، ما فيه قديد!

* * *

الحديث الأول

[طعم الإيمان]:

● حدثنا الشيخ الإمام المقري القاضي الثقة، علي أبو الفضل الواسطي - بمدرسته في واسط - قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن علي بن المهذب، قال: أنبأنا أبو بكر أحمد بن جعفر القطيعي، قال: أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد بن الليث بن سعد، عن ابن الهادي، عن محمد بن إبراهيم بن الحرث، عن عامر بن سعد، عن العباس بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نبياً»(١) .

---

(١) رواه الإمام أحمد - بسند صحيح - بهذا اللفظ؛ ورواه مسلم، والترمذي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً». جامع الأصول: (١/ ٢٣٢).

وهذا الذوق المنبعث عن هذا الرضا، هو: المعرفة بالله تعالى، والمعرفة نور أسكنه الله تعالى قلبَ من أحبه من عباده، ولا شيء أجل وأعظم من ذلك النور، وحقيقة المعرفة حياة القلب بالمحيي: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(١) وقال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾(٢) وقال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(٣). وقال سبحانه: ﴿إسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٤).

فمَنْ ماتَتْ نفسُه، بعُدتْ عنه دنياه؛ ومن مات قلبُه بَعُدَ عنه مولاه.

وسُئل ابن السماك: متى يعرف العبد أنه على حقيقة المعرفة؟

قال: إذا شاهد الحقَّ بعين اعتباره،فانياً عن كل من سواه،

وقيل: المعرفة فِقدْانُ رؤية ما سواه، بحيث يصير ما دون الله تعالى عنده أصغر من خردلة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾(٥).

من نظر إلى الله تعالى، لم ينظر لا إلى الدنيا، ولا إلى

---

(١) الأنعام: ١٢٢.
(٢) يٰس: ٧٠.
(٣) النحل: ٩٧.
(٤) الأنفال: ٢٤.
(٥) الأنعام: ٩١.

العُقبى(١)، وشمسُ قلب العارف أضوأ من شمس النهار، وأبهج منها في مطلع الأنوار.

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أَحَبَّكَ لَيْلاً فَاسْتَنَارَتْ فَمَا لَدَيْهَا غُرُوبُ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ لَيْلاً وَشُمُوسُ ٱلْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

قال ذو النون رحمه الله تعالى(٢): اطِّلاعُ الحق سبحانه على الأسرار بمواصلة المدد، كاطِّلاع الشمس على الأرض بإشراق الأنوار، فعليكم بتصفية القلوب، فإنها مواضع نظره، ومواطن سره، فإنَّ مَنْ عرف الله، لا يختار غيره حبيباً سواه.

[نور الهداية]:

وفي الخبر: «إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَة، فَأَلْقَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»(٣). وهو نور يخرج من سرادق المِنَّة، فيقع في

(١) لأن من كان الله غايته، لم يلتفت إلى الدنيا، لأنها دار فناء؛ ولم ينظر إلى الجنة ونعيمها، لعلمه اليقيني بأن أفضل نعيم لأهل الجنة هو: النظر إلى وجه الله الكريم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. لذلك لم يلتفتوا إلى شيء سوى الله جل جلاله.

(٢) هو: ثوبان بن إبراهيم الإخميميّ المصريّ، أبو الفيض، أحد الزهاد المشهورين، ولد في مصر، نوبيّ الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر، توفي بالجيزة سنة: [٢٤٥] هجرية، رحمه الله تعالى.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصححه أيضاً ابن حبان، عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ.

القلب، فيستنير به الفؤاد، ويبلغ شعاعه إلى حجب الجبروت، ولا يحجبه عن الحق الجبروت، ولا الملكوت، فيصير العبد في جميع أفعاله وأقواله، وحركاته وإرادته، في حياته ومماته، صائراً إلى النور، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

إنْ كُنْتَ لَسْتَ مَعِي فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِي
قَلْبِي يَرَاكَ وَإِنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِي

[كيف تكون المعرفة؟] :

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى[2]: المعرفة قرب القلب إلى القريب، ومراقبة الروح للحبيب، والانفراد عن الكل بالملك المجيب.

وقال ذو النون: هي تخلية السر عن كل إرادة، وترك ما عليه العادة، وسكون القلب إلى الله بلا علاقة.

وقال بعضهم: هيئتها جنون، وصورتها جهل، ومعناها حيرة.

فإن العارف يشغله علم الله تعالى عن جميع الأسباب، فإذا نظر إليه الخلق استجهلوه، ويكون أبداً في ميدان العظمة، وَلِهاً[3]

---

(١) النور: ٣٥.

(٢) هو: يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا: واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. ولد في الرَّي، وأقام ببلخ، وتوفي سنة: [٢٥٨] هجرية في نيسابور. رحمه الله تعالى.

(٣) الوَلَهُ: ذهاب العقل والتحيُّر من شدة الوَجْد.

بين الخلق، فإذا رأوه استجنُّوه، ويكون بكليته فانياً بحب جلال عظمته تعالى، مشغولاً عن من سواه، فإذا أبصروه استدهشوه!

ولا يقدر أحد يخبر عن المعرفة بالله تعالى، فإنها منه بدَتْ، وإليه تعود، فالعارف فَانٍ تحت اطِّلاع الحق تعالى، باقٍ على بساط الحق بلا نَفْسٍ ولا سبب، فهو مَيِّتٌ حيٌّ، وحي ميت، ومحجوبٌ مكشوفٌ، ومكشوف محجوب. تراه وَالِهاً على باب أمره، هائماً في ميدان بِرِّه، متدللاً تحت جميل ستره، فانياً تحت سلطان حكمه، باقياً على بساط لطفه؛

العارفون صارت أنفسهم فانية، تحت بقائه وسلطانه عن كل حول وقوة، تراهم باقين بحوله وقوته، متلاشين عن كونهم وأسبابهم تحت جلال ألوهيته، ملوكاً به دون مملكته، فقرهم به، وغناهم به، وعزُّهم به، وذُلُّهم به(١).

[إلهي! عرفتُك]:

يروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود! اعرفني واعرف نفسك.

فتفكر داود فقال: إلهي! عرفتك: بالفردانية، والقدرة، والبقاء؛ وعرفت نفسي: بالعجز والفناء.

---

(١) أي: مفتقرون إليه وحده في كل شيء، اغنياء أعزّاء به وحده عن كل شيء، يستمدون عزهم منه تعالى، أذلاّء أمام هيبته وجلاله وسلطانه وعظمته.

فقال: الآن عرفتني.

وروي في الخبر: لو عرفتم الله تعالى حق معرفته لَعُلِّمْتُمْ العلم الذي ليس بعده جهل، ولزالت الجبال بدعائكم.

مع أنه لا ينتهي أحد ولا يبلغ منتهى معرفته، إن الله تعالى أعظم من أن ينتهي أحد إلى منتهى معرفته.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه الرضوان والسلام(١): لا يعرف الله حق معرفته من التفت منه إلى غيره، المعرفة هي: طيران القلب في سرادق الأُنس والألفة، جَوْلاً في حجب الجلال والقدرة.

وهذه حالة من صُمَّتْ أذناه عن البطالات، وعميتْ عيناه عن النظر إلى الشهوات، وخرس لسانه عن التكلم بالتُّرَّهات.

وقيل لأبي يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ: ترى الخلق؟ قال: به أراهم.

وسُئل محمد بن واسع رحمه الله تعالى(٢): هل عرفت ربك؟

---

(١) هو: السيد جعفر بن محمد الباقر، بن علي زين العابدين، ابن الحسين بن عليّ، الهاشمي، القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق ـ رضي الله عنهم ـ ولد في المدينة المنورة عام: [٨٠] للهجرة؛ وكان من أجلاَّء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم، أخذ عنه جماعة، منهم: الإمامان الجليلان: أبو حنيفة ومالك، رضي الله عنهما. ولُقِّبَ بالصادق، لأنه لم يُعرف عنه الكذب قطّ. توفي في المدينة المنورة سنة: [١٤٨] هجرية، رضي الله عنه ورحمه.

(٢) هو: محمد بن واسع، بن جابر الأزدي، أبو بكر: فقيه ورع، من الزهاد. من أهل البصرة. عرض عليه قضاؤها فأبى؛ وهو من ثقات أهل الحديث، توفي سنة: [١٢٣] هجرية، رحمه الله تعالى.

فسكتَ ساعة ثم قال: من عرف الله تعالى قَلَّ كلامه، ودام تحيُّره، فني عن صور الأعمال، وتحيَّر مع الاتصال، متقرباً في جميع الأحوال، منقطعاً عن الحال إلى وليِّ الحال، فإن الأمور بحقائقها، لا بالحس وصورها(١).

[صور الأعمال]:

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى: ليس على تحقيقٍ بالمعرفة، من رضِيَ بالحال دون وليِّ الحال، فإنَّ من عرف الله كَلَّ لسانُه، ودهش عقله، العارفُ: إن تكلم بحاله هلك، وإن سكت احترق!

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: المعرفة على وجهين: معرفة الإيقان، ومعرفة الإيمان؛

فمعرفة الإيمان: شهادة اللسان بتوحيد الملك الديان، والإقرار بصدق ما في القرآن،

وأما معرفة الإيقان: فهي دوام مشاهدة الفرد الديَّان بالجنَان.

وقال بعضهم: هي على ضربين:

---

(١) الفناء عن صورة الأعمال في الأعمال، هو خُلُق كريم، من أخلاق مريدي الآخرة، فعلى كل من فعل طاعة أن يضعها في كيس الودائع عند من لا تضيع عنده وديعة ـ سبحانه وتعالى ـ وأن يتناساها، حتى لا تُحدِّثُه نفسه بأنه من أهل الطاعات والحسنات؛

وأما إذا فعل معصية! فعليه أن يضعها نُصْبَ عينيه، ليراها دائماً فيتذكر التوبة منها.

فالإنسان الموفَّق ينقطع عن حاله إلى وليِّ الحال ـ جلَّ وعلا ـ لأنه هو الذي يُحوِّل الحولَ والأحوال؛

نسأله تعالى أن يُحوِّل عنَّا النِّقَم، وأن يزيدنا من النعم، إنه مولانا،نعم المولى ونعم النصير.

الأول: هو أن يعرف أن النعمة من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[١]، فيقوم بشكره، فيستزيد به النعمة من الله، بدليل قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢].

والثاني: رؤية المُنْعِم من غير أن يلتفت إلى النعمة، فيزيد شوقه إلى المُنْعِم، ويقوم بحق معرفته ومحبته، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾[٣] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[٤].

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى[٥]: هي على ثلاثة أوجه:

أولها: معرفة التوحيد، وهي لعامة المؤمنين؛

والثاني: معرفة الحجة والبيان، وهي للعلماء، والبلغاء، والحكماء؛

والثالث: معرفة صفات الفردانية، وهي لأهل ولاية الله تعالى وأصفيائه، الذين أظهر الله لهم ما لم يُظهر لمن دونهم، وأعطاهم من الكرامات ما لم يجز أن يوصف ذلك بين يدي من لا يكون أهلاً له؛

---

(١) النحل: ٥٣.

(٢) إبراهيم: ٧.

(٣) الأنفال: ٦٤

(٤) التوبة: ١٢٩

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

خصهم الله من بين الخلائق، واصطفاهم لنفسه، واختارهم له، فحياتهم رحمة، ومماتهم غبطة، طوبى لهم.

وقال غيره: هي على وجهين:
معرفة التوحيد؛ وهو إثبات وحدانية الواحد القهار؛
ومعرفة المزيد،وهي التي لا سبيل لأحد إليها.

[التوحيد والتجريد]:

أقول: هي كشجرة لها ثلاثة أغصان؛ توحيد، وتجريد، وتفريد؛

فالتوحيد: بمعنى الإقرار؛
والتجريد: بمعنى الإخلاص؛
والتفريد: بمعنى الانقطاع إليه بالكلية في كل حال؛

وأول مدارج المعرفة: التوحيد، وهو قطع الأنداد؛ والتجريد: وهو قطع الأسباب؛ والتفريد: وهو بمعنى الاتصال بلا سير، ولا عين، ولا دون؛

ولها خمسة طرائق:
أولها: الخشية في السر والعلانية،
والثانية: الانقياد له في العبودية؛
والثالثة: الانقطاع إليه بالكلية؛
والرابعة: الإخلاص له بالقول، والفعل، والنية؛
والخامسة: المراقبة في كل خطرة ولحظة.

[رجل مجنون!]:

وحكي عن عبد الباري رحمه الله تعالى قال: خرجت مع أخي ذي النون ـ رحمه الله تعالى ـ[١]، فإذا نحن بصبيان يرمون واحداً بالحجارة! فقال لهم أخي: ما تريدون منه؟

قالوا: هذا رجل مجنون! ومع ذلك يزعم أنه يرى الله تعالى!

قال: فدنونا منه؛ فإذا هو شاب وسيم؛ ظهر عليه سيما العارفين؛ فسلمنا عليه، وقلنا: إنهم يزعمون أنك تدَّعي رؤية الله تعالى! فقال: إليك عني يا بطال! لو فقدتُه أقل من طرفة عين لمت من ساعتي؛ وأنشأ يقول:

طَلَبُ الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ رِضَاهُ ... وَمُنَىٰ الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ لِقَاهُ
أبـداً يُـلاحِـظُهُ بِعَيْنَيْ قَلْبِـهِ ... وَالْقَلْبُ يَـعْـرِفُ رَبَّـهُ وَيَـرَاهُ
يَرْضَىٰ الْحَبِيبُ مِنَ الْحَبِيبِ بِقُرْبِهِ ... دُونَ الْعِبَـادِ فَمَا يُـرِيـدُ سِـوَاهُ

فقلت له: أمجنون أنت؟ فقال: أما عند أهل الأرض فنعم؛ وأما عند أهل السماء فلا.

قلت: فكيف حالك مع المولى؟ فقال: منذ عرفته ما جفوته.

فقلت: منذ كم عرفته؟ قال: منذ جعل اسمي في المجانين!

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

الحديث الثاني

[عاقل... وعاجز!]:

أخبرنا شيخنا الشيخ الإمام المقري القاضي، أبو الفضل علي الواسطي، ـ بمدرسته بواسط ـ قال: أنبأنا الشريف النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزبيبي ـ قراءة عليه، ونحن نسمع ـ قال: أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد، قال: أنبأنا أبو علي الحسين بن صفوان، قال: أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا؛ قال: أنبأنا الهيثم بن خارجة، قال: أنبأنا ثقبة بن الوليد، عن أبي بكر ابن أبي مريم، قال: حدثني حمزة بن جندب، عن أبي يعلى شدّاد بن أوس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْد ٱلمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهُ وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللَّهِ»(١).

فالعمل بسرٍّ هذا الحديث، هو المعرفة؛ نعم إن المعرفة من

---

(١) ولفظ الحديث كما في الجامع الصغير: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ ٱلمَوْتِ، وَٱلعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللَّهِ ٱلأَمَانِي». رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، ورمز السيوطي لصحته. (فيض القدير: ٥/٦٧).

العبد، والتعريف من الرب تعالى، وهي أشرف وأعظم الهدايا، التي يهديها إلى عباده، فإن الله تعالى إذا أراد أن يختار عبداً من عبيده، ويفضله على من سواه من خلقه، ويُطْلع في سره شمسَ المعرفة، ينظر إليه بعين الفضل والرحمة، ويفتح له أبواب الهداية، ثم يكرمه بالانتباه، ويوقظه من نومة الغافلين، وينعم ويمن عليه بشرح القلب، ويذهب عنه موت القلب بالفهم(١) ويذهب عنه الوهم، ويكرمه بالحياء، والخوف، واليقين، ويذهب عنه الشك، وجراءة الأمن(٢)؛

فإذا اجتمعتْ في العبد هذه الخصال: أشرق فؤاده بنور، فيرى ما دون حجب الجبروت، وتشتاق إليه الجِنان، ويخمد منه لهبات النيران، ولو أن المعرفة نقشت على شيء، ما نظر إليها أحد

---

(١) أي: يفهم أن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ومتى فهم هذا ذهب عنه الوهم، وهو ترك العمل الصالح، والإصرار على المعصية، اعتماداً على أن الله غفور رحيم، عفو كريم،

قال الحسن: «إن قوماً ألهتهم الأماني، حتى خرجوا من الدنيا ومالهم حسنة! يقول أحدهم: إني أحسن الظنَّ بربي!، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل»:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]. (انتهى من تحقيق النسخة القديمة).

(٢) أكثر الناس في زماننا هذا، يتجاوزون الحدود الشرعية، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً، ويعتقدون أن الله مسامحهم! ولم يتنبهوا لقوله سبحانه في الحديث القدسي، الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه جلَّ وعلا أنه قال:

«وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ فِي الْآخِرَةِ». رواه ابن حبان في صحيحه.

إلاَّ مات من حسنها وجمالها! لكل أحد رأس مال، وهي رأس مال المؤمن.

وقال رجل لذي النون رحمه الله تعالى[١]: إني لأُحِبُّك، فقال: إن كنتَ عرفت الله فحسبك الله، وإن لم تعرفه فاطلب من يعرفه، حتى يدلك عليه.

[شجرة في بستان مَلِك]:

وعندي أن المعرفة كشجرة يغرسها مَلِكٌ في بستانه، ثمينة جواهرها، مثمرة أغصانها، حلوة ثمارها، طريفة أوراقها، رفيعة فروعها، نقية أرضها، عذب ماؤها، طيب ريحها، صاحبها مشفق عليها لعزتها، مسرور بحُسن زهرتها، يدفع عنها الآفات، ويمنع عنها البليات؛

وكذلك شجرة المعرفة، التي يغرسها الله تعالى في بستان قلب عبده المؤمن، فإنه يتعهدها بكرمه، ويرسل إليها كل ساعة سحائب المِنَّة من خزائن الرحمة، فيمطر عليها قطرات الكرامة، برعد القدرة، وبرق المشيئة، ليطهرها من غبار رؤية العبودية، ثم يرسل عليها نسيم لطائف الرأفة، من حجب العناية، ليتم لها شرف الولاية، بالصيانة والوقاية؛

فالعارف أبداً يطوف بسره تحت ظلالها، ويشم من رياحينها،

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

ويقطع منها بمنجل الأدب، ما فسد من ثمارها وحل فيها من الخبث والآفة؛

فإذا طال مقام سر العارف تحتها، ودام جولانه حولها، هاج أن يتلذذ بثمارها، فيمد إليها يد الصفاء، ويجتني ثمارها بأنامل الحرمة، ثم يأكلها بفم الاشتياق، حتى تغلبه نار الاستغراق، فيضرب يد الانبساط إلى بحر الوداد، ويشرب منه شربة يسكر بها عن كل ما سوى الحق، سكرة لا يفيق منها إلا عند المعاينة، ثم يطير بجناح الهمة، إلى ما لا تدركه أوهام الخلائق.

[الطعام الطيب]:

وقيل للواسطي رحمه الله تعالى: أي الطعام أشهى؟ قال: لقمة من ذكر الله تعالى، تُرفع بيد اليقين، من مائدة الخلد، عند حسن الظن بالله تعالى.

قال النساج رحمه الله تعالى: يخرج أكثر أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا طيباتها المقصودة؛ قيل: وما هي؟

قال: سرور المعرفة، وحلاوة المِنَّة، ولذائذ القربة، وأنس المحبة.

وقال محمد بن واسع رحمه الله تعالى(١): حقٌّ لمن أعزه الله بمعرفته، أن لا يذل نفسه لغيره، وحق لمن والاه الله بولايته، أن

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٦].

يقوم بحقه، وحق لمن أكرمه الله بصحبته، أن لا يميل إلى غيره، ولا يعمل بهوى نفسه.

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى[1]: إن في الليل شراباً لقلوب العارفين، تطير به قلوبهم حباً لله وشوقاً إليه، إلا أن الناظرين إليه لا إلى غيره، ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة.

[أنواع التحيُّر!]:

أقول: وهذا الشراب هو التحيُّر، وهو على ضربين: تحير وحشة، وتحير دهشة؛ فتحير الوحشة للمطرودين، وتحير الدهشة للعارفين المشتاقين. يا دليل المتحيرين! زدني تحيراً.

(١) هو: طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، زاهد مشهور، ولد في بسطام ـ بلدة بين خراسان والعراق ـ سنة: [١٨٨] هـ وتوفي فيها عام: [٢٦١] هجرية، رحمه الله تعالى.

الحديث الثالث

[التقوى في القلب]:

أخبرنا العبد الصالح الثقة، الشيخ أبو محمد أحمد بن عبد الله، بن الحسين، بن أحمد، بن جعفر الآمدي الواسطي، قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد، بن علي ابن كاتب الوقف بواسط، قال: أنبأنا أبو الحسن محمد بن علي الرواسي، ـ إملاء بجامع واسط ـ قال: أنبأنا أبو القاسم عبيد الله بن تميم، قال: أنبأنا أحمد بن إبراهيم الإمام، قال: أنبأنا علي بن حرب، بن زيد، بن الحباب، قال: أنبأنا علي بن مسعدة الباهلي، قال: أنبأنا قتادة، أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ:

«الإِسْلَامُ عَلانِيَةٌ، والإيمَانُ في القَلْبِ، والتقْوى هَا هُنا»[1] ـ يقولها ثلاثاً ـ ويشير بيده إلى صدره ﷺ.

---

(١) قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١/٥٢): رواه أحمد، وأبو يعلى بتمامة، والبزار باختصار، ورجاله رجال الصحيح، ما خلا علي بن مسعدة، ورواه في «الجامع الصغير» مختصراً، أي: من غير: «التقوى ههنا». (من تحقيق النسخة القديمة).

والتقوى التي تقر في القلب، فَتُحْكِمُ فيه الإيمانَ، هي روح المعرفة[١].

[لكل شيء شيئُه]:

أي سادة! إن الله تعالى جعل لكلِّ شيء قدراً، ولكلِّ قدر حداً، ولكلِّ حدٍّ سبباً، ولكلِّ سبب أجلاً، ولكلِّ أجل كتاباً، ولكلِّ كتاب أمراً، ولكل أمر معنى، ولكلِّ معنىً صدقاً، ولكلِّ صدق حقّاً، ولكلِّ حقٍّ حقيقة، ولكلِّ حقيقة أهلاً، ولكلِّ أهل علامة؛

فبالعلامة يُعرف المُحِقُّ من المبطل، وكل قلب أقعده على بساط تحقيق المعرفة، وقع بسيماء المعرفة على وجهه، ويظهر أثرها في حركاته، وأفعاله، وأقواله، كما قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾[٢] وقال ﷺ: «من أسَرَّ سريرة ألبسه الله رداءها، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر».

[السعي في طاعة الله]:

وقيل ليحيى بن معاذ[٣] رحمه الله تعالى: ما بال العارفين أحسن وجوهاً، وأكثر هيبة من غيرهم؟

---

(١) وللتقوى فوائد عظيمة، فقد كُرِّر لفظها في «القرآن الكريم» وفي «السُّنة النبوية»، وفي أقوال «أئمتنا العظام» رضوان الله عليهم أجمعين؛ فإذا أردتَ التوسع فاقرأ فصل: «من أنوار التقوى» في كتابي: «حدائق المتقين». لعلَّ الله يجمعني وإياك في زمرة المتقين!

(٢) البقرة: ٢٧٣.

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

فقال: لأنهم خَلوْا بالله مستأنسين، وَقَرُبُوا إلى الله متوجهين، وفَزِعوا إليه متوالهين؛ فكساهم الله بنور معرفته؛ فيه ينطقون، وله يعملون، ومنه يطلبون، وإليه يرغبون، أولئك خواصُّ الله السابقون، سعيهم في طاعة الله من غير علاقة، وينصحون العامة من غير طمع، مشتاقون منيبون إلى الله تعالى، قلوبهم له وَجِلَة، نفوسهم وحشية، وقلوبهم عرشية، وعقولهم مغشية، وأرواحهم ياسينية، كلهم معصوم بقلبه عن فتنة الناس؛ وذِكْرُ الله يحميه من شر الوسواس، صدره مشروح، وجسمه مطروح، وقلبه مجروح، وباب الملكوت له مفتوح؛

قلبه مثل القنديل، وجوارحه خاضعة كالمنديل، لسانه مشغول بتلاوة القرآن(١)، ولونه مصفرٌ من خوف الهجران، ونفسه ذائبة في خدمة الرحمن، وقلبه زاهر بنور الإيمان، نفسه مشغولة بالطلب، وروحه مشغولة بقرب الربِّ، على لسانه وصف الربوبية، وعلى أركانه خدمة الديمومية، وعلى نفسه أثر العبودية، وفي قلبه هيبة الفردانية، وفي سره الطرب بالألوهية، وفي روحه شغف الوحدانية؛

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الربُّ تبارك وتعالى: «مَنْ شَغَلَهُ ٱلقُرْآنُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي ٱلسَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ ٱللَّهِ عَلَىٰ سَائِرِ ٱلكَلَامِ كَفَضْلِ ٱللَّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ» [رواه الترمذي]. وإذا أردتَ التوسع، فاقرأ فصل: «أدب القرآن الحكيم» من كتابي: «حدائق المتقين» ففيه من الآداب والأحكام ما يُفرح قلبك إن شاء الله تعالى.

[إرْمِ ذنوبك في بحر التوبة]:

أفواههم إليه ضاحكة، وأعينهم نحوه طامحة، وقلوبهم به متعلقة، وهمومهم إليه واصلة، وأسرارهم إليه ناظرة، رَمَوْا ذنوبهم في بحر التوبة، وطرحوا طاعاتهم في بحر المِنَّة، وضمائرهم في بحر العظمة، ومرادهم في بحر الصفوة، وهممهم في بحر المحبة؛

في ميدان خدمته يتقلبون، وتحت ظلال كرمه يتنفسون، وفي رياض رحمته يرتعون، ومن رياحين امتنانه يشمون.

ينظرون إلى الدنيا بعين الاعتبار(١)، وإلى الآخرة بعين الانتظار، وإلى أنفسهم بعين الاحتقار، وإلى طاعتهم بعين الاعتذار، لا الاستكثار، وإلى الغفران بعين الافتقار، وإلى المعرفة بعين الاستبشار، وإلى المعروف سبحانه بعين الافتخار، يرمون أنفسهم إلى البلوى، وأرواحهم إلى العقبى، وقلوبهم إلى النجوى، وأسرارهم إلى المولى؛

أنفسهم تاركة للدنيا، وأرواحهم للعقبى، وقلوبهم مستأنسة بالذكرى، وأسرارهم بحب المولى، قلوبهم معدن التعظيم والهيبة،

---

(١) المعلوم لدى الجميع ـ مؤمناً كان أو كافراً ـ بأن الدنيا لا تدوم لمخلوق، والكل يعتبرون بمن مضى من أسلافهم؛ أما المؤمن الموحِّد لحضرة رب العالمين، فترى اعتباره ـ بمن مضى ـ اعتباراً قلبياً، يتذكر كلما تفكر ،فيُحسِّن حاله، ويستعد لإجابة رسول ربه ـ الذي هو ملك الموت عليه السلام ـ وهؤلاء هم الذين ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

وفقنا الله جميعاً للتفكر والاعتبار، آناء الليل وأطراف النهار، إنه رحيم كريم غفّار.

وألسنتهم معادن الحمد والمدحة، وأرواحهم مواطن الشوق والمحبة، وأنفسهم مقهورة تحت سلطان العقل والفِطنة.

أكثر همتهم التفكير والعبرة، وأكثر كلامهم الثناء والمدحة، عملهم الطاعة والخدمة، ونظرهم إلى لطائف صنع ربِّ العزة؛

أحدهم تراه مصفراً من خوف فراقه، ذائب الأطراف من هيبة جلاله، طويل الانتظار شوقاً إلى لقائه، سلك طريق المصطفى، ورمى الدنيا خلف القفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، وقام على قدم صدق الوفا؛

[غربة غريب]:

حاله في الدنيا غريب، وقلبه في صدره غريب، وسره في نفسه غريب[1]، فلا يستريح من غم الغربة ووحشتها؛ ما لم يصل

---

(١) إن الغربة قائمة في كل زمان، وعلى جميع طبقات البشر، وغربة الناس ربما يشعر بها الآخرون، وربما لا يشعرون! والغريب في الغربة أنها تأت قاسية، لا يتحملها إلاّ الذي ألهمه الله الصبر على الشدائد؛ وهناك نوع من الغربة لا يشعر به أكثر الناس، ألا وهي غربة الإسلام، الذي يشكو غربته إلى الله سبحانه، والناس عنه غافلون!! والغريب في الناس أنهم إذا ما أصابهم كرب من الغربة، فزعوا وجندوا الطاقات البشرية والمادية، لتخفيف وطأة حمى الغربة، وإذا أصيب دين أحدهم لا يشعر ولا يرجع إلى الله تعالى!

وورد في السُّنَّة أحاديث عن الغربة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال:

«بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ». [رواه مسلم]. وأما معنى «طوبى»: فاختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ [الرعد: =

إلى الحبيب، فأمره عجيب، والمولى له طبيب؛ كلامه وجداني، وقلبه فرداني، وعقله رباني، وهَمُّهُ صمداني، وعيشه روحاني، وعمله نوراني، وحديثه سماوي؛

جعل الله قلبه موضع سره، وموطن نظره، وزيَّنه بحليِّ ربوبيته، وأدخله دار الإمارة من سلطانه، يدور بالفؤاد حول عزته، ويرتع في روضات قدسه، ويطير بجناح المعرفة في سرادقات غيبه، ويجول في ميادين قدرته، وحجب جبروته، لو رآه الجاهل بشأنه مات فزعاً بعد معرفته له من ساعته، علامته في الدنيا أن يكون البلاء عنده عسلاً، والأحزان رُطَباً، وفي الآخرة كل واحد يقول: نفسي، نفسي! وهو يقول: ربي، ربي، مرادي، مرادي.

[وللعارف علامات]:

العارف علامته أربعة: حبه الجليل، وتركه الكثير والقليل، واتباعه التنزيل، وخوفه من التحويل:

العابد ذو نصب(١)، والخائف ذو هرب، والمحب ذو شغب، والعارف ذو طرب.

= ٢٩]: فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن معناه: فرح وقرة عين. وقال عكرمة: نِعْمىٰ لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال قتادة: حُسْنَىٰ لهم.
وقيل: هي الجنة. وقيل: شجرة في الجنة. أُنظر شرح الإمام النووي على «صحيح مسلم»: في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً.

(١) أي: تعب.

الحديث الرابع

[الذين يتقلّبون!]:

أخبرنا شيخنا الولي التقي الثقة، المقري القاضي، أبو الفضل علي الواسطي القرشي بمدرسته في واسط، قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد، قال: أنبأنا علي أبو طاهر الحسن ابن الوزير أبي القاسم علي بن صدقة بن علي، قال: أنبأنا أبو المطهر سعد بن عبد الله الأصبهاني، قال: أنبأنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الحافظ، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن فارس، قال: أنبأنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، قال: أنبأنا أبو داود الحضري، قال: أنبأنا ابن الربيع، عن نعيم بن حنظلة، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ذُو الوَجْهَينِ في الدُّنيا، ذُو لِسَانَينِ في النَّار»(١).

---

(١) روى بنحوه: أبو داود، وابن حبان في صحيحه، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ». أُنظر: «الترغيب والترهيب»: (٣/ ٦٠٤).

ولهذا صرف العارفون وجوههم إلى الله تعالى، فلن ترى للعارف وجهتين أصلاً، ومن هذا السر أمروا بعدم الجمع بين أستاذين، وقالوا: إذا وُجد الأكمل الأفضلُ في طريق الله تعالى، الأصح اتباعاً لرسول الله ﷺ، فعلى المريد أن يتمسك به؛ بل على من كان يزعم المشيخة، أن يلتحق به هو وأولاده في الطريق؛

وهذا ضرب من أعظم أضراب المعرفة بالله.

[أصناف أهل المعرفة]:

أيْ سادة! اعلموا أن العارفين على أصناف مختلفة، ومناهج متفاوتة، ومراتب متلونة، وأنواع متفرقة، ومنازل متنوعة؛

فمنهم: من عرف الله بالقدرة، فخافَهُ؛
ومنهم: من عرفه بالفضل، فأحسن الظن به؛
ومنهم: من عرفه بالمراقبة، فاعتقد الصدق؛
ومنهم: من عرفه بالعظمة، فاعتقد الخشية؛
ومنهم: من عرفه بالكفاية، فاعتقد الافتقار إليه؛
ومنهم: من عرفه بالفردانية، واعتقد الصفوة؛

ومنهم: من عرفه به فاعتقد الوصلة، فوِجْدَان[1] الخوف، على قَدْرِ عرفان القدرة، وَوِجْدَان حسن الظن، على قَدْر عرفان الفضل؛ وَوِجْدَانُ الصدق، على قَدْر عرفان المراقبة، وَوجدان الخشية، على قَدْر عرفان العظمة، وَوِجدانُ الافتقار على قَدْرِ

---

(١) أي: إدراك.

عرفان الكفاية، وَوِجْدَان الصفوة، على قَدْر عرفان الفردانية، ووِجْدان الوصلة، على قَدْر عرفان الربّ تعالى؛

وكذلك أهل السموات في العبادة على مقامات، فمقام بعضهم: الحياء، والحرمة؛ ومقام بعضهم: القربة، والمؤانسة؛ ومقام بعضهم: رؤية المِنَّة، ومقام بعضهم: المراقبة؛ ومقام بعضهم: الهيبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[1].

فأهل المعرفة عامتهم يعرفونه على سبيل الخبر في التوحيد، عن الصادق الأمين، سيدنا وسيد العالمين محمد ﷺ، فصدَّقوه بقلوبهم، وعملوا بأبدانهم، إلَّا أنهم دنسوا أنفسهم بالذنوب والمعاصي: فعاشوا في الدنيا على الجهل والتقصير، فهم على خطر عظيم؛ إلا أن يرحمهم أرحم الراحمين.

[الذين أيقنوا بالتوحيد]:

وأناس فوقهم يعرفونه بالدلائل، وهم أهل النظر والعقل والفكر، أيقنوا بالتوحيد، من قِبَلِ الدلائل والآيات وآثار الربوبية، استدلوا بالشاهد على الغائب، واستيقنوا صحة الدلالة، فهم على طريق حسن، إلَّا أنهم عاشوا محجوبين عن الله تعالى برؤية دلائلهم.

وخواص أهل المعرفة من أولي اليقين، عرفوه به سبحانه،

---

(١) الصافات: ١٦٤.

فوقفوا متمكنين مع معرفتهم، لا تخطفهم الأدلة، ولا تصرفهم العلة، دليلهم رسول الله ﷺ، وإمامهم القرآن، ونورهم يسعى بين أيديهم.

[أمثلة من قصة يوسف]:

فمن عرفه تعالى بالخبر، كمثل إخوة يوسف، إذ عرفوا لونه، وغفلوا عنه حتى افتضحوا بين يديه، حيث ﴿قَالُوا: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[١].

ومن عرفه بالدلائل، كمثل يعقوب، إذ عرف أن يوسف يُعد في الأحياء، فازداد حزناً وبكاء، واحتمل ما احتمل من أنواع البلاء، حتى ابيضَّتْ عيناه من الحزن، علماً منه بحياته، وشوقاً إلى لقائه، حتى قال: اذهبوا فتحسسوا من يوسف، وقال: إني لأجد ريح يوسف، حتى قال من غفل عنه: ﴿تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ﴾[٢] وقالوا: ﴿تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾[٣].

ومثل من عرفه به، كبنيامين حين أخذه يوسف لنفسه، فقال: يا أخي أمشاهدتي تريد، أم الرجوع إلى أبيك؟ قال: بل مشاهدتك أريد، قال: فإن أردتني فاصبر على محنتي، قال: نعم، أحتمل لأجلك كل بلوى، أليس أني أبقى معك ولا أُفارقك؟ ثم أخرج

---

(١) يوسف: ٧٧

(٢) يوسف: ٥٩.

(٣) يوسف: ٨٥.

الصاع من وعائه، ونسبه إلى السرقة! حتى عابه أهل مصر على ذلك ولاموه، وشتمه إخوته، وهو في ذلك كله مسرور ضاحك في سره، ولم يَخَفْ من لومة اللائمين! فهذا مثل من عرفه من أهل اليقين.

[منازل الدنيا]:

وقال شيخ الطائفة الإمام الحسن البصري رضي الله عنه[1]: أهل المعرفة في الدنيا على ثلاثة منازل:

١ ـ رجل لقي العبادة فعانقها وخلط بها لحمه ودمه، وفزع إليها قلبُه، وعلم أن الله تعالى رازقه وكافيه، فوثق بوعده، فلم يشغل نفسه بشيء من أمور الدنيا، جعل السماء سقفه، والأرض بساطه، ولا يبالي على يُسْرٍ أصبح، أم على عُسْرٍ، أمسى يعبد الله تعالى حتى يأتيَه اليقين؛ فهذا الضرب في الدنيا أعز من الكِبْريت الأحمر؛

٢ ـ ورجل آخر لم يصبر كما صبر الأول، فطلب كِسرةً من حِلِّها، يقيم بها صلبه، وخِرقة يواري بها عورته، وبيتاً يسكنه، وزوجة

---

(١) هو: إمام التابعين الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء، الشجعان النُّسَّاك؛ ولد في المدينة المنورة سنة: [٢١] هجرية، وشبَّ في كنف الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية رضي الله عنه، وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم، وكان أبوه من أهل ميسان ـ مدينة في العراق، بين بغداد والبصرة ـ مولى لبعض الأنصار؛ توفي في البصرة سنة: [١١٠] هجرية، رحمه الله تعالى.

يستعف بها، وهو مع ذلك شديد الخوف، عظيم الرجاء، فهو على طريق حسن؛

٣ ـ وأما الثالث: فإنه لا يصدق الله بقوله! فيبني القصر المشيد، ويركب المركب الفَرِه[١]، ويستخدم الخدم؛ فليس له في الآخرة من خلاق! إلا أن يرحمه أرحم الراحمين.

[الزاهدون في الدنيا]:

رأيت في بعض الأخبار: أن عيسى بن مريم عليه السلام مرَّ بنفر من الناس، قد نَحِلَتْ أبدانُهم، وتغيَّرت ألوانهم، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الخوف من النار، فقال: حقٌّ على الله أن يُؤَمِّنَ الخائف؛

ثم بلغ إلى نفر آخر، فإذا أبدانهم أشد نحولاً، وألوانهم أشد تغيراً، فقال: ما الذي بلغ بكم؟ قالوا: الشوق إلى الجنان؛ فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون؛

ثم مرَّ حتى بلغ نفراً ثالثاً، فإذا أبدانهم أشد نحولاً، وألوانهم أشد تغيراً، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الحب لله والشوق إليه، فقال لهم عيسى عليه السلام: أنتم المقربون ـ ثلاث مرات ـ :

فأهل المعرفة ثلاثة أصناف: صنف يمشون على قدم الافتقار والاضطرار،

---

(١) الفارِهُ من الدوابِّ: الجيِّدُ السَّيْر.

وصنف يمشون على قدم الاعتبار والانكسار،
وصنف يمشون على قدم الافتخار والاستبشار،
قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١).

[مراتب المعرفة]:

● والناس في مشهد المعرفة على مرتبتين: إما في يقظة المعرفة، فهم في تربية الولاية، فينظرون الكرامة؛ وإما في نوم الفضلة، فهم في تربية العداوة، فهم ينظرون الإماتة، إلا أن يرحمهم أرحم الراحمين.

فسبحان من خَصَّ من عبيده من شاء وأعطاهم، ثم دعاهم إلى نفسه بفضله حيث قال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾(٢)، فأجابوه وأنابوا إليه، فهم على أصناف شتى:

فالتائبون، يمشون برجل الندامة على قدم الحياء،
والزاهدون، يمشون برجل التوكل على قَدَم الرضاء،
والخائفون، يمشون برجل الهيبة على قدم الوفاء،
والمحبون، يمشون برجل الشوق على قدم الصفاء،
والعارفون، يمشون برجل المشاهدة على قدم الفناء؛
فالمعرفة: طعام أطعمه الله من شاء من عباده، فمنهم من يذوقه ذوقاً،

---

(١) فاطر: ٣٢.
(٢) الزُمر: ٥٤.

ومنهم: من يأكل منه بلاغاً، ومنهم: من يأكل منه كفافاً، ومنهم: من يأكل منه شِبَعاً؛

[منازل المعرفة]:

● والناس في المعرفة على منازل: فمنهم من يكون منزله منها كشِعْب[١]، ومنهم من يكون كقريةٍ، ومنهم من يكون كمِصْر، ومنهم من يكون منزله منها كالدنيا والآخرة،

روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه مثقال حبة من خردل من الإحسان، وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام:

«... الإحْسَانُ أنْ تَعْبُدَ الله كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ»[٢].

وما ذلك إلا حقيقة المعرفة، فيقول لهم الرب تعالى: أنتم عبيدي حقاً، فقد طال شوقكم إليَّ، وشوقي إليكم، السلام عليكم عبيدي، فها أنا حبيبكم، فبعزتي ما خلقت الجنة إلا من أجلكم، فلكم اليوم ما شئتم.

---

(١) الشِّعْبُ: انفراج بين الجبلين.

(٢) هذا جزء من حديث جبريل عليه السلام، حينما نزل يسأل رسول الله ﷺ، عن الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ رواه مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[لِمَ تعبد الله؟]:

وحكي أن مالك بن دينار[١] وثابتاً البناني رحمهما الله، دخلا على رابعة البصرية[٢]، فقالت لمالك: أخبرني لِمَ تعبدُ ربك؟ قال: شوقاً إلى الجنان. فقالت لثابت: وأنت يا غلام؟ فقال: خوفاً من النيران.

فقالت: أنت يا مالك! مثل أجير السوء، لا يعمل إلا طمعاً!
وأنت يا ثابت! مثل عبد السوء، تعمل خوفاً من الضرب!
فقالا: وأنت يا رابعة! فقالت: حباً لله تعالى، وشوقاً إليه.

[يضحك بين يدي واعظ!]:

وحُكيَ أنَّ ذا النون المصري رضي الله عنه[٣]، كان يعظ الناس ذات يوم وهم يبكون، وفيهم شاب يضحك! فقال له: مَا لَكَ يا فتى؟ فقام يُنشد ويقول:

---

(١) هو: مالك بن دينار، أبو يحيى، ولد في البصرة، وهو من رواة الحديث الشريف، كان ورعاً يأكل من كسب يده، يكتب المصاحف بالأجرة، توفي في البصرة سنة: [١٣١]. رحمه الله تعالى.

(٢) هي: رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولدها ووفاتها في البصرة، كانت عابدة زاهدة، لم تتزوج مدة حياتها، توفيت في البصرة سنة: [١٣٥] وقيل: [١٨٠] هجرية رحمها الله تعالى. وأفضل من كتب عنها: الأستاذ «محمد عطية خميس» فكان معتدلاً ومنصفاً، راجع كتابه: «رابعة العدوية». ترى شيئاً من حياة هذه العابدة الزاهدة، رحمهاالله تعالى.

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة [٢٣].

كلُّهمْ يعبُدونَ من خَوْفِ نارٍ   وَيَروْنَ النَّجاةَ حظّاً جَزِيلا
أو بأنْ يسْكُنُوا الجِنانَ فيُضْحُوا   في رياضٍ عُيونُها سَلْسَبيلا
ليسَ في الخُلْدِ والجِنَانِ هَوائِي   أنا لاَ أبْتَغِي بِحِبِّي بَدِيلا

***

الحديث الخامس

[النصر الواجب]:

أخبرنا شيخنا الصالح الثقة العارف بالله، القاضي أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزاز، قال: أنبأنا أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن محمد البزاز، قال: أنبأنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله بن مُسْلم البصري، قال: أنبأنا أبو عبد الله الأنصاري، قال: حدثنا حميد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«أنْصُرْ أخَاكَ ظَالِماً كَانَ أوْ مَظْلُوماً، قَالَ: أنْصُرهُ مَظْلُوماً، فَكَيْفَ أنْصُرُهُ ظَالماً؟ قَالَ: تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُكَ إيَّاه»[1].

---

(١) روى بنحوه: البخاري والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنْصُرْ أخَاكَ ظَالِماً أوْ مَظْلُوماً. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أنْصُرُهُ إذَا كَانَ مَظْلُوماً، أفَرَأيْتَ إنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أنْصُرُهُ؟! قال: تَحْجُزُهُ ـ أوْ تَمْنَعُهُ ـ عَنِ الظُّلْمِ، فَإنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

أقول: هذا بشأن أخيك، فكيف بك بشأنك؟ أخيفوا نفوسكم وامنعوها وازجروها.

[أجنحة العارف بالله]:

أيْ سادة! للعارف أربع أجنحة: الخوف، والرجاء، والمحبة، والشوق؛

فلا هو بجناح الخوف يستريح من الهرب، ولا بجناح الرجاء يستريح من الطلب، ولا بجناح المحبة يستريح من الطرب، ولا بجناح الشوق يستريح من الشَّغْبِ[١]، واللَّهُ تعالى بَيَّنَ في كتابه نعتهم بقوله: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٣].

= وفي رواية: «. . قالوا: كَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِماً؟! قال: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ».
ليت قومي يعملون بهذا التوجيه النبوي الرشيد، فيمنع كل واحد منّا صاحبه عن الوقوع في الآثام والعقوق والمعاصي؛
ويمنع أولاده عن مصاحبة الفاسقين والمنحرفين، كي يشبُّوا على الخُلُق القويم، والاستقامة والحياء والفضيلة؛ فيكون مجتمعنا مجتمع طُهر وعفة، ونقاء وصفاء، مجتمع محبة وإخاء، لا تقاطع ولا تدابر، ولا ظلم ولا تحاسد؛ بل يحب كل واحد منّا لأخيه ما يحب لنفسه؛ عند ذلك تأتينا الرحمة من الله الرحمن الرحيم.

(١) الشَّغْبُ: تهييج الشر.
(٢) المائدة: ٨٣.
(٣) النور: ٣٧.

وذلك لأن عمل العارف خالص للمولى، وقوله مستأنس بالذكرى، ونفسه صابرة في البلوى، وسره دائم النجوى، وفكره بالأفق الأعلى، فمرة يتفكر في نعم ربه، ومرة يجول حول سرادقات قدسه؛

فحينئذ يصير حراً عبداً(١)، وعبداً حراً، وغنياً فقيراً، وفقيراً غنياً؛

هكذا يُعِدُّ ما أمكنه طرداً وعكساً من الألفاظ، مثل الموجود والمعروف، والعزيز والمسرور، والقريب والمحمود، والناطق والساكت، والمقبول والخائف، والشاهد والغائب، والباكي والضاحك؛

وذلك لأن ضَحِكه وسروره في حزنه، وحزنه في سروره، وعزه مختلط بِذُلِّهِ، وذُلُّهُ مختلط بعزه، وخوفه ممزوج برجائه، ورجاؤه ممزوج بخوفه، لا خوف يذهب برجائه، ولا رجاء يذهب بخوفه؛ وهوبنفسه يعيش مع الناس، وبقلبه مع الله تعالى(٢)، لا

---

(١) أي حُرّاً: من عبودية النفس والهوى، والجاه والمال، وغير ذلك مما يؤثِّر على صفاء الروح؛

عبداً: خالص العبودية لحضرة ربِّ العالمين، امتثالاً لأمره تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. اللهم اجعلنا من عبيدك المخلَصين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. آمين.

(٢) وهذه هي الأخلاق المحمدية، فإنه عليه الصلاة والسلام، كان لا ينسى الصحبة وأخوَّة الدين، غير أن قلبه متعلق بربه سبحانه، فقد روى البخاري، ومسلم، =

تغلب معاملةُ نفسه مع الناس، معاملةَ قلبه مع الله تعالى، عزيز ذليل، فقير غني، كما قال أبو يزيد رضي الله عنه[١] في مناجاته:
إلٰهي!

كُلَّما قُلْتُ قَدْ دَنَا حَلُّ قَيْدي   قَيَّدوني وَأَوْثَقُوا الْمِسْمارَا

وكان يسيل الدمع من عينيه عند هذه الكلمة؛

وليس كل من يُرىٰ عليه أثر الزهد فهو زاهد! وكذلك أثر الرغبة، والحماقة والجنون، والبطالة والغفلة.

[من لطائف القدرة]:

إن الله تعالى، كلما نظر إلى قلب عبد من عبيده، بالفضل والرحمة، كشف عنه حجاب الغفلة، وأظهر له لطائف القدرة، فعند ذلك لا بد له من إحدى ثلاث:

إما أن يصير حكيماً، يتصل به الخلق إلى الله؛ وإما أن يَكِلَّ لسانُه[٢]، فيصير مدهوشاً مبهوتاً؛ وإما أن يصير مستوراً في حجبه، محفوظاً في قبضته، حتى لا يراه غيره، لشدة غيرته عليه؛

= والترمذي، حديثاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خطب النبيُّ ﷺ وقال:

«. . . إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ».

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].
(٢) أي: يَضْعُفُ.

فسبحان من حجب أهل معرفته عن جميع خلقه، حجبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة، وعن أبناء الآخرة بأستار الدنيا، وذلك أن أهل المعرفة عرائس الله تعالى في أرضه، والله مَحْرَمهُم، لا مَحْرَمَ لهم غيره، فهم عند الله مخدورون(١).

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود! أوليائي في قباب لا يعرفهم إلا أوليائي، فطوبى لأوليائي، ثم طوبى لأحبائي.

يقال: لو بدت ذرة من نور النبي عليه الصلاة والسلام، لاحترق ما بين العرش إلى الثرى.

[أحوال العارف بالله]:

قيل لرابعة - رحمها الله تعالى(٢) -: ما كمال حال العارف؟ قالت: احتراقه بحبه لربه، وعلامته: أن يكون مستغنياً بالمعطي عن العطاء، وبالمكوِّن عن الكون، مستغرقاً في بحار سرور وجدانه، ساكناً بقلبه معه، مع ترك كل اختيار لنفسه، ولا يجزع عند الشدائد والبلوى لرؤيته، ويعلم أن الله تعالى أقرب إليه من كل شيء، وأرحم عليه من كل أحد، وأعز وأكبر من كل شيء، وأن لكل شيء خلفاً ما خلا الله تعالى:

---

(١) الخِدْرُ: السِّتر

(٢) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

لِكُــلِّ شَيْءٍ عَــدِمْتَــهُ خَلفٌ   وَمَـا لِفَقْـدِ الْحَبِيبِ مِنْ خَلَفِ

[التمييز النافع]:

وإنما يَعْرِفُ العارف، إذا ميَّزَ الخواطر النفسية من الخواطر الروحية، والإرادة الدنياوية من الأخروية، والهمم العلوية من السفلية، فمن رُزِقَ التوفيق على حفظ حدود صدق وفاء العبودية، والقيام بشروطها، ووجَدَ أن السبيل إلى طريق حفظ تحقيقها، ثم قام بذكره، وذكر ذكره، ثم شكره، وشكر شكره، فيصير مع النفس بلا نفس، ومع الروح بلا روح، ومع الخلق بلا خَلْق.

[ابْنا الخالة عليهما السلام] :

كما قال الإمام ابن عباس رضي الله عنهما[١]: بلغنا أن عيسى ويحيىٰ عليهما الصلاة والسلام، بينما كانا يسيران في بعض الطرق، فصدم يحيى امرأة، فقال له عيسى: يا ابن خالتي! لقد أصبت اليوم ذنباً عظيماً، قال وما هو؟ قال: امرأة صدمتها. قال يحيى: والله ما شعرت بها. فقال عيسى: سبحان الله، نفسك معي! فأين قلبك وروحك؟ فقال: عند الله، يا عيسى! لو سكن قلبي إلى جبريل، أو إلى أحد غير الله طرفة عين، لظننتُ أني ما عرفت الله حق معرفته.

---

(١) هو: الصحابي الجليل: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، القرشي الهاشمي، حبر الأُمّة، ولد بمكة سنة: [٣] قبل الهجرة، ونشأ في عصر النبوة، فلازَمَ رسول الله ﷺ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، كُفَّ بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها سنة: [٦٨] هجرية، رضي الله عنه وأرضاه.

[تفسير المعرفة]:

وقيل: المعرفة خمسة أحرف، فمن وجد في نفسه معناها فليعلم أنه من أهلها:

بالميم: مَلَكَ نفسه؛ وبالعين: عَبَدَ الله على صدق الوفاء؛ وبالرَّاء: رغب إلى الله بالكلية؛ وبالفاء: فوَّض أمره إلى الله؛ وبالهاء: هرب من كل ما دون الله إلى الله؛

فكل عارف يملك نفسه بقَدْر معرفته بكبريائه تعالى وعظمته، ويعبد ربَّه على قَدْرِ معرفته بربوبيته، ويرغب إليه على قَدْرِ معرفته بفضله وامتنانه، ويُفَوِّضُ أمره إليه على قَدْرِ معرفته بقدرته، ويهرب إليه على قدر معرفته بملكه وسلطانه، فهو عارف.

* * *

الحديث السادس

[كيف يُستجاب الدعاء؟]:

حدثنا الشريف: محمد بن عبد السميع العباسي الهاشمي الواسطي، قال: أخبرنا الحاجب أبو شجاع محمد بن الحسين، قال: أنبأنا النقيب أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي الزبيبي الهاشمي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الجبار السكري، قال: أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، قال: أنبأنا أبو بكر أحمد بن منصور الرمادي، قال: أنبأنا عبد الرزاق بن همام، قال: أنبأنا معمر عن الزهري عن رجل سماه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»**[1].

والعجلة هنا من غلبة الاشتغال بالقصد دون خالقه، وهذا من نقصان المعرفة، فإن العارف لا يشغله شيء عن ربه.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وسنذكر من أحوال العارفين أشياء بقصد التبرك بذكرهم، قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾[(٢)].

وفي الخبر:

«اذكروا الصالحين؛ عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»[(٣)].

فلولا ذلك لما كان ينبغي لنا أن نشتغل بذكر غير الله تعالى، ومع ذلك فإن الله تعالى معنا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ﴾[(٤)].

[سيَّار وطيار]:

حكي أن عبد الواحد بن زيد رحمه الله قال: قصدت بيت المقدس فأضللت طريقي، فإذا بامرأة أقبلت إلي؛ فقلت لها: يا غريبة! أنت ضالَّة[(٥)]؟

---

(١) مريم: ٤١.

(٢) يوسف عليه السلام: ٣.

(٣) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة»: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة. قال شيخنا: لا أستحضره مرفوعاً، وسبقه لذلك شيخه العراقي فقال في تخريج الإحياء: ليس له أصل في المرفوع، وإنما هو قول: سفيان بن عيينة. وكذا أورده ابن الجوزي في مقدمة «صفة الصفوة». قلت: ـ والكلام للحافظ السخاوي ـ وسأل أبو عمرو بن نجيد أبا جعفر بن حمدان ـ وهما صالحان ـ: بأي نية أكتب الحديث؟ ألستم تَرَوْن أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة؟ قال: نعم. قال: فرسول الله ﷺ رأس الصالحين. انتهى.

(٤) الحديد: ٤.

(٥) ضلَّ الرجُلُ المسجدَ والدارَ: إذا لم يعرف موضعهما.

قالت: كيف يكون غريباً من يعرفه؟ وكيف يكون ضالاً من يحبه؟

ثم قالت: خذ رأس عصاي، وتقدم بين يدي مشياً؛

فأخذت رأس عصاها ومشيت بين يديها، سبعة أقدام، أقل أو أكثر، فإذا أنا في مسجد بيت المقدس، فدلكتُ عيني، قلت: لعلَّ هذا غلط مني؛

فقالت: يا هذا! سيرك سير الزاهدين، وسيري سير العارفين؛ فالزاهدُ يسير، والعارف يطير، وأنّىٰ يلحق السيَّار الطيَّار؟ ثم غابت فلم أرها بعدها.

[تَرَكَ هواه]:

قال أبو عمران الواسطي رحمه الله: كنت راكباً البحر، إذ انكسرت السفينة، وبقيتُ أنا وامرأتي، فَوَلَدَتْ ولداً، فأرادت الماء، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا رجل جالس على الهواء، وفي يده رَكْوَةٌ من ياقوتة حمراء في سلسلة من ذهب، وقال: خذ! فسألته عن ذلك؟ فقال: تركتُ هوايَ، فأجلسني في الهواء.

[إذا أنقذ الله عبداً]:

وحكي أن عبد الواحد بن زيد رحمه الله تعالى قال: قلت لأبي عاصم الربعي: كيف صنعت حين طلبك الحجاج؟[1].

---

(١) هو: الحجَّاج بن يوسف بن الحكَم الثقفي، ولد سنة: [٤٠] للهجرة في الطائف بالحجاز، ونشأ فيها، وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع، نائب عبد الملك بن =

قال: كنت في بيتي، فوقفوا على الباب ليدخل عليَّ الرسول فصرت مدهوشاً(١)، فإذا بيد أخذت بيدي وجرتني قَدَماً أو أكثر، فنظرت فإذا أنا على جبل أبي قبيس.

[أطع اللَّهَ تُطع]:

وحكي أن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه(٢) قال: مررت

= مروان، فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلَّده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال: عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فقهره على مكة والحجاز، وقتل ابنَ الزبير وصلبه بمكة سنة ثلاث وسبعين، وفي هذه السنة هدم الحجاج الكعبة، وأعادها على ما هي عليه الآن، ودسَّ على الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من طعنه بحربة مسمومة، فمرض منها ومات! وفي سنة أربع وسبعين سار الحجَّاجُ إلى المدينة المنورة، وأخذ يتعنت على أهلها، ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله ﷺ، وختم في أعناقهم وأيديهم، يُذلُّهم بذلك! كأنس، وجابر بن عبد الله، وسهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهم.

ثم ولاه عبد الملك بن مروان: العراق، فحكمها عشرين سنة، وحطم أهلها وفعل ما فعل، وكان سفاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين، وقد قُتِلَ ظلماً من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى، فضلاً عن غيرهم! ومات بواسط ـ مدينة بين الكوفة والبصرة في العراق ـ: سنة: [٩٥] للهجرة ودفن فيها، وأُجريَ على قبره الماء فاندرس! فلا رحمه الله، ولا عفا عنه.

(١) أي متحيراً.

(٢) هو: إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي، البلخي، أبو إسحاق؛ زاهد مشهور، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه، ورحل إلى بغداد، وجال في العراق، والشام، والحجاز. وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش من العمل بالحصاد، وحفظ البساتين، والحمل، والطحن، ويجاهد مع المسلمين في قتال الروم.

وجاءه إلى المَصِّيصة ـ مدينة بين إنطاكية وبلاد الروم ـ عبدٌ لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم، ويخبره أن أباه قد مات في بلخ، وخلف له مالاً عظيماً؛ فأعتق العبد، ووهبه الدراهم، ولم يعبأ بمال أبيه! =

براع فقلت له: هل عندك شربة من الماء، أو من اللبن؟

قال: أيهما أحب إليك؟ قلت: الماء.

قال: فضرب بعصاه حجراً صلداً لا صدع فيه، فانبجس منه الماء، فشربت منه وهو أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وبقيت متعجباً!

فقال الراعي: لا تتعجب! فإن العبد إذا أطاع الله، أطاعه كلُّ شيء.

وكانت لرابعة البصرية سلة معلقة في بيتها، فكلما أرادت الطعام، ضربتْ بيدها إلى السلة، فوجدت فيها أي الطعام شاءت.

[كرامة لسيدنا سلمان]:

وقال شيخ الطائفة الحسن رضي الله عنه[1]: خرج سلمان الفارسي رضي الله عنه[2] من المدائن ومعه ضيف، فإذا بظباء تسير

= وكان ينطق بالعربية الفصحى لا يلحن. وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ، أوجز سفيان في كلامه مخافة أن يزل.

اختلف المؤرخون في مسكنه ومكان وفاته؛ فتوفي على الراجح سنة: [١٦١] للهجرة في سوفنن (حصن من بلاد الروم). رحمه الله تعالى.

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٤٦].

(٢) هو: الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه، وكان يسمي نفسه: سلمان الإسلام؛ أصله من مجوس أصبهان. عاش عمراً طويلاً، ورحل إلى الشام، والموصل، ونُصيبين، وعمورية، وقرأ كتب: الفرس، والروم، واليهود، وقصد بلاد العرب بحثاً عن نبي آخر الزَّمن ﷺ، فلقيه ركب من بني كلب، فصحبهم وأعطاهم أجراً ليحملوه إلى يثرب، فغدروا به وباعوه لرجل من يهود بني قريظة! فجاء به إلى المدينة، وعلم سلمان بهجرة الرسول ﷺ ووصوله إلى قباء، فقصد النبيَّ ﷺ بقباء، =

في الصحراء، وطيور تطير في الهواء، فقال سلمان: ليأتني ظبي وطير سمينان، فقد جاءني ضيف أحب إكرامه، فجاء كلاهما،

فقال الرجل: سبحان الذي سخر لك الطير في الهواء،

قال: أو تتعجب من هذا؟ هل رأيتَ عبداً أطاع الله، فعصاه الله؟!

[حطب يصبح ذهباً!]:

قال عبد الواحد بن زيد: بينما أنا وأيوب السختياني (١)

= وسمع كلامه، وقدَّم بين يديه تمراً وقال: هذا صدقة، فلم يأكل منه رسول الله ﷺ، وفي الزيارة الثانية، قدَّم تمراً وقال: هذا هدية، فأكل منه عليه الصلاة والسلام، ووزع الباقي على أصحابه،

وفي الزيارة الثالثة: أعلن إسلامه، بعد أن نظر إلى خاتم النُّبوة بين كتفيْ النبي ﷺ وهذه العلامات الثلاث، كان قد تعلمها من رهبان النصارى، الذين هم على دين سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام.

أعانه المسلمون ـ بالمال ـ على عتق نفسه من سيده اليهودي، وكان قوي الجسم، صحيح الرأي، وهو الذي أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق، في غزوة الأحزاب، وقد اختلف عليه المهاجرون والأنصار، كلاهما يقول: سلمان منا! فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ» [رواه الطبراني والحاكم عن عمرو بن عوف رضي الله عنه].

وجعل أميراً على المدائن، فأقام فيها إلى أن توفي سنة: [٣٦] للهجرة.

وكان إذا خرج عطاؤه تصدَّق به، وكان ينسج الخُوُص ـ ورق النخل ـ ويأكل خبز الشعير من كسب يده، رضي الله تعالى عنه.

(١) هو: الإمام التابعي الجليل: أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني، البصري، أبو بكر، سيد فقهاء عصره، وكان من النساك الزهاد، ومن حفاظ الحديث، وكان ثبتاً ثقة، روي عنه نحو [٨٠٠] حديث، كانت ولادته سنة: [٦٦] للهجرة، وتوفي سنة: [١٣١] هجرية، رحمه الله تعالى.

ـ رحمهما الله تعالى ـ نسير في طريق الشام ، فإذا نحن بأسود أقبل إلينا، يحمل كارة حطب، فقلت: يا أسود! من ربُّك؟

قال: ألمثلي تقول هذا؟! فرفع رأسه إلى السماء، وقال: إلٓهي! حوِّلْ هذا الحطب ذهباً، فإذا هو ذهب! ثم قال: أرأيتم هذا؟ قلنا: نعم، قال: اللهم رُدَّه حطباً، فصار كما كان أولاً، ثم قال: سلوا، فإن العارفين لا تفنى عجائبهم؛

فقال أيوب: بقيت خجلاً من العبد، واستحييت منه حياء ما استحييت مثله قبل ذلك من أحد قط، ثم قلت: أمعك شيء من الطعام؟

قال: فأشار، فإذا بين أيدينا جام فيه عسل، أشد بياضاً من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك، قال: كلوا، فوالله الذي لا إلٓه إلا هو، ليس هذا من بطن النحل؛ فأكلنا فما رأينا شيئاً أحلى منه، فتعجبنا!

فقال: ليس بعارف من تعجب من الآيات، ومن تعجب فهو بعيد من الله، ومن عَبَدَهُ على رؤية الآيات فهو جاهل بالله.
رحم الله ذلك الأسود، ما أعرَفه بالله؟!

[صحراء من فضة!]:

وقد كنت حاجًّاً وأردت التلبية، فأخذت منديلاً لي فغسلته، وقطعته نصفين، ثم اتَّزرت بنصف، وارتديت بنصف آخر لحاجة، فإذا بهاتف يهتف:

أنظر ما بين يديك! فنظرت فإذا البادية فضة كلها، فغمضتُ عينيَّ ومضيت، وقلت: اللهم إني أعوذ بك من كل إرادة سواك.

وحكي أن رجلاً من العارفين فرغ من أعمال الحج وأركانه، ثم أخذ يحرم مرة أخرى، وقال: لبيك اللهم لبيك، فقيل له: يا هذا! إن وقت الحج والتلبية قد مضى، فقال: قد أحرمت من الوطن إلى زيارة البيت: والآن أحرمت من البيت إلى صاحب البيت، فقيل: هنيئاً لمن أحرم عن غيره.

[اشتغلْ بما يعنيك]:

وحكي أن هرم بن حيان رحمه الله[١]، قال: كنت أسير على شاطىء الدجلة، فإذا أنا برجل أقبل إليَّ وعليه سيما العارفين، فسلمت عليه، فقلت له: كيف حالك وشأنك؟ فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾[٢] يا هرم بن حيان! اشتغل بما يعنيك، فقلت: رحمك الله! من أين عرفتَ اسمي واسم أبي؟ وما رأيتك قبل اليوم!

فقال: أما عرفت أن العارفين يتعارف بعضهم بعضاً بنور المعرفة.

قال: فتعجبت من حسن فصاحته، وتحيرت من هيبته.

---

(١) هو: هرم بن حَيَّان العبدي الأزدي، من بني عبد القيس: قائد فاتح، من كبار النُّسَّاك، من التابعين. ولِّي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ بأرض فارس، وتوفي سنة: [٢٠] للهجرة، وقيل: بعدها، وهو في إحدىٰ غزواته. رضي الله عنه.

(٢) الإسراء: ١٠٨.

[معارف ومواهب]:

وقال ذو النون رضي الله عنه[١]: بينما أنا أسير، فإذا أنا بقريـة والناس يصيحون، فدنوت فإذا أسود يسخرون به! فرفع رأسه إليّ وقال: يا ذا النون! إعرف قَدْرَ الله، ولا تمنَّ على الله، فإن الحبيب لا يمنُّ على الحبيب.

فسألت عن حاله؟ قيل: إنه مجنون، لا يجالس الناس، ولا يأكل في أربعين يوماً إلاَّ أكلة واحدة، ثم نظر إلى السماء وقال:

يا غاية هـمم العارفين! إنْ عرفتُك فبمواهبك، وإن شكرتُك فبعصمتك.

[مؤنس الأبرار]:

وقال ذو النون ـ رحمه الله تعالى ـ أيضاً: بينما أنا أسير على شاطىء النيل، فإذا أنا بجارية منطلقة في النيل، وقد اضطربت أمواجه، وتقول: إلّهي! ترى ما تفعل بي؟

فقلت: يا جارية! أتشكين منه، وهو صاحب كل بر وفاجر!

فقالت: يا ذا النون! أنت الذي إذا شكرتَ شكرتَ منه[٢]، وإذا سخطت سخطت عليه[٣]،

قلت: يا جارية! من أين عرفتِ اسمي وما رأيتني؟

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

(٢) أي: إن شكرتَه فبتوفيقه لك، سبحانه وتعالى.

(٣) أي: إذا سخطتَ من قضاءه وقدره، فكأنك سخطتَ عليه! وهذا منتهى العقوق، لحضرة مدبِّر الكائنات، عزَّ وجل!

فقالت: عرفتك بنور معرفة الجبار،

فقلت لها: أتجدين وحشة للوحدة؟

قالت: لا، والذي نوَّر قلبي بنور معرفته، ما سكن قلبي قط إلى غيره، فإنه مؤنس الأبرار في الخلوات، وصاحب الغرباء في الفلوات.

[ما أنا بوحيدٍ واللَّهُ معي]:

وقال جد والدتي العارف الواسطي رحمه الله: بينما أنا أمشي في البادية، إذ أعرابي جالس منفرداً، فدنوت منه وسلمت عليه، فرد عليَّ السلام، وأبى أن أكلِّمه،

فقال: اشتغل بذكر الله، فإن ذكر الله شفاء القلوب(١).

ثم قال: كيف يتفرغ ابن آدم من ذكره وخدمته، والموت في إثره، والله ناظر إليه؟! ثم بكى، وبكيتُ معه،

فقلت له: ما لي أراك فريداً وحيداً؟!

قال: ما أنا بوحيد والله معي، وما أنا بفريد والله مؤانسي، ثم قام ومضى مسرعاً، وهو يقول: سيدي! أكثر خلقك مشغولون عنك بغيرك! وأنت عوض عن جميع ما فات، ياصاحب كل غريب! ويا مؤنس كل وحيد! ويا مأوى كل فريد! وجعل يمر وأنا أتبعه، ثم أقبل إليَّ وقال:

إرجع ـ عافاك الله ـ إلى من هو خير لك مني، ولا تشغلني عمن

---

(١) صدق والله، فإن القلوب تمرض مما يعلق بها من أدران الدنيا، فإذا ذكر العبدُ ربَّه سبحانه وتعالى، أزال الذِّكْرُ صَدَأ قلبه، فأصبح نقيّاً صافياً.

هو خير لي منك؛ ثم غاب عن بصري.

وحكي أن عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ قال: مررت براهب فسألته: منذ كم أنت في هذا المكان؟

فقال: منذ أربع وعشرين سنة. قلت: مَنْ أنيسك؟

قال: الفرد الصمد: قلت: من المخلوقين. قال: الوحش.

قلت: فما طعامك؟ قال: ذكر الله. قلت: من المأكول. قال: ثمار هذه الأشجار، ونبات الأرض.

فقلت: أما تشتاق إلى أحد؟ قال: نعم، إلى حبيب قلوب العارفين: قلت: إلى المخلوقين.

قال: من كان شوقه إلى الله، فكيف يشتاق إلى غيره؟ قلت: فلم اعتزلتَ عن الخلق؟ قال: لأنهم سراق العقول، وقطاع طريق الهدى!

قلت: ومتى يعرف العبد طريق الهدى؟

قال: إذا هرب إلى ربه من كل ما سواه، واشتغل بذكره عن كل من سواه.

[اللَّهُ عِوَضٌ عن كل فائت]:

قال هرم بن حيان[١]: رأيت أويس بن عامر ـ رحمه الله تعالى ـ[٢] فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام يا هرم بن حيان،

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٦].

(٢) أويس بن عامر بن جَزء بن مالك، القَرَني، أحد النساك العبّاد المتقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي ﷺ ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة. توفي سنة: [٣٧] للهجرة رضي الله عنه.

فقلت: كيف عرفت اسمي واسم أبي؟

قال: عرفتْ روحي روحك بنور معرفة ربي، قلت: إني أحبك في الله،

قال: ما أظن أن أحداً يحب غير الله، فكيف يحب غير الله؟

قلت: أريد الصحبة معك، والأُنس بك،

قال: ما ظننت عارفاً يستوحش عن الله حتى يستأنس بغيره،

قلت: أوصني. قال: أوصيك بالله سبحانه، فإنه عِوَضٌ عن كل ما فاتك.

[اطلب الأُنس بالمولى]:

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: كنت أسير في بعض المفاوز[1]، فإذا أنا برجل متزر بحشيش، مرتد بحشيش، فسلمت عليه، فرد عليَّ السلام، ثم قال: من أين الفتى؟ قلت: من مِصْرَ. قال: إلى أين؟ قلت: أطلب الأُنس بالمولى.

قال: اترك الدنيا والعقبى، يصح لك الطلب.

قلت: هذا كلام صحيح، صَحِّحْهُ لي. قال: أتتهمنا فيما نقول؟ وقد أُعطينا خيراً مما نقول، وهو: المعرفة.

قلت: ما أتهمك، ولكني أريد أن تزيدني نوراً على نور،

---

(١) أي: في بعض الصحارى؛ قال الأصمعي: سُمِّيتْ بذلك تفاؤلاً بالسلامة والفوز.

فقال: يا ذا النون! أُنظر فوقك [فنظرتُ،] فإذا السماء والأرض كأنهما ذهب يتوقد ويتلألأ.

قال: أُغضض بصرك، [فغضضتُ،] فصارتا كما كانتا!

فقلت: كيف السبيل إلى هذا؟ قال: تفرَّد بالفرد إن كنتَ له عبداً.

[لا يَلتفتُ إلى غير الله]:

وقال محمد المقدسي رحمه الله: دخلت دار المجانين يوماً بالشام، فرأيت فيها شاباً على رقبته غل، وعلى رجليه قيد، مشدود بالسلسلة، فلما وقع بصره عليَّ، قال لي: يا محمد! أترى ما فعل بي؟ وأشار بطرفه نحو السماء؛ ثم قال:

جعلتك رسولاً إليه، أن تقول له: لو جعلت السموات غلا على عنقي، والأرضين قيداً على رجلي، ما التفتُّ منك إلى غيرك طرفة عين، ثم أنشأ يقول:

عَلَىٰ بُعْدِكَ لَا يَصْبِرُ مَنْ عَادَتُهُ الْقُرْبُ
وَلَا يَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطْعِـكَ مَنْ تَيَّمَهُ الْحُبُّ
إِذَا لَمْ تَرَكَ الْعَيْنُ فَقَدْ أَبْصَرَكَ الْقَلْبُ

الحديث السابع

[يرضىٰ لكم. . . ويكره لكم]:

حدثنا شيخنا المقري، الإمام الصالح القاضي: أبو الفضل علي الواسطي القرشي رضي الله عنه، قال: قرأت أنا وسديد الدولة محمد بن عبد الكريم ، بن إبراهيم ، بن عبد الكريم ، بن عبد القاهر ، بن زيد ، بن رفاعة الشيباني ، ويعرب بابن الأنباري علي أبي عبد الله ، ابن أحمد ، بن عمر الحافظ ، قلنا : أنبأك أبو الحسين أحمد بن محمد ؟ فأقرَّ به ، قال : أنبأنا أبو الحسين محمد بن عبد الله الدقاق ، عن يحيى بن محمد إسحاق بن شاهين ، عن خالد بن عبد الله ، عن سهل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

«إِنَّ الله تَعَالَىٰ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثاً، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثاً، فيرْضىٰ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ؛

وَيَكْـرَهُ لَكُمْ: قِيـلَ وَقَـالَ، وَكَثْـرةَ السُّؤَالِ، وَإِضَـاعَـةَ المالِ»[١].

في هذا الحديث الشريف، من رقائق أحكام المعرفة بالله، ما يكفي العارف عن غيره، فإن الأسرار المطوية فيه، هي سُلَّمُ المصطفَيْن الأخيار إلى الله تعالى.

[الذين سبقوا غيرهم]:

أي سادة! إن لله تعالى عباداً اصطفاهم لمعرفته، وخصهم بمحبته، واختارهم لصحبته، واجتباهم لمؤانسته، وقرَّبهم لمناجاته، وحرَّضهم على ذكره، وأنطقهم بحكمته، وأذاقهم من كأس محبته، وفضَّلهم على جميع خلقه؛

حتى لم يريدوا به بدلاً، ولا سواه كفيلاً، ولا دونه ناصراً ومعيناً ووكيلاً؛

ولقد سبقوا مَنْ دونهم سبقاً، لا بكثرة الأعمال، ولكن بصحة الإرادات، وحسن اليقين، مع دقائق الورع، والانقطاع بالقلب إليه، وتصفية السر عن كل ما دون الحق؛

فأذاقهم الله طعم لباب معرفته، وأنزلهم في حظيرة قدسه، لا يصبرون عن ذكره، ولا يشبعون من برِّه، ولا يستريحون لغيره؛

فيا طوبى لهم! هم الأقلون عدداً، والأعظمون خطراً، بهم

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والإمام مسلم.

يحفظ الله محبته، حتى يؤدونها إلى نظرائهم؛

فيا طوبى لهم! هم الزاهدون فيما رغب فيه الغافلون، والمستأنسون فيما استوحش منه الجاهلون، والمشتاقون إلى ما هرب عنه الساهون، هم الذين نظروا بأعين القلوب، إلى حجب الغيوب، وجالت أرواحهم في الملكوت، فهمتهم في سرهم، وسرهم عند ربهم، به يستمعون، وبه ينظرون، وبه يريدون، وبه يتحركون، قلوبهم بحبها مستأنسة بأنسها.

[عباد الله محفوظون]:

قال أبو يزيد رحمه الله[١]: الناس يصيحون من إبليس، وهو يصيح مِنِّي!

قيل له: كيف هذا؟ والمصطفى عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالصياح منه، في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾؟[٢].

قال: لأن الله تعالى أمره في هذه الآية بالاعتصام به، وتفويض الأمر إليه؛ وفرقٌ بين الصياح من إبليس، وبين الاعتصام بالله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٣].

[نارٌ.. ونور]:

قال ذو النون رحمه الله تعالى: للعارف نارٌ، ونورٌ؛ نار

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].

(٢) المؤمنون: ٩٧.

(٣) الإسراء: ٦٥.

الخشية، ونور المعرفة؛ فظاهره محترق بنار الخشية، وباطنه مُنوَّرٌ بنور المعرفة؛

فالدنيا تبكي بعين الفناء عليه!
والآخرة تضحك بسنِّ البقاء إليه!

فكيف يقدر الشيطان أن يدنو منه ظاهراً وباطناً إلا كالبرق الخاطف؟ أو كالريح العاصف؛

فإن أتاه عارض مِنْ قِبَلِ العين، أحرقته نار العَبْرة،
وإن أتاه من قِبَل النفس، أحرقته نار الخدمة،
وإن أتاه من قِبَل العقل، أحرقته نار الفكرة،
وإن أتاه من قِبَل القلب، أحرقته نار الشوق والمحبة،
وإن أتاه من قبل السر، أحرقته نار القرب والمشاهدة؛

فتارة يحرق قلبه بنار الخشية، وتارة يتشفى بنور المعرفة؛ فإذا امتزجت نار الخشية ونور المعرفة، هاجت ريح اللطف من سرادقات الأُنس والقربة، فيظهر صفاء الحق للعبد، فتراها تلاشت الأنانية وبقيت الألوهية كما هو في الأزل.

قال أبو سليمان رحمه الله تعالى: يفتح للعارف وهو نائم على فراشه، ما لا يفتح لغيره وهو في صلاته!

قال أبو يزيد رحمه الله[1]: أدنى مقامات العارف أن يمر على الماء، ويطير في الهواء؛

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].

وأعلاها: أن يمر على الدارين، من غير أن يلتفت إلى من سواه.

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: دوران العارف مع محبوبه على أربعة أوجه:

١ ـ سرور المعرفة: وهو ممزوج برؤية حسن العناية؛
٢ ـ وحلاوة الخدمة: وهو ممزوج بذكر المِنَّة؛
٣ ـ وأنس الصحبة: وهو ممزوج بلذائذ القربة؛
٤ ـ وخوف المفارقة: وهو ممزوج بتحقيق كمال القدرة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى[1]: العارف بين البر والذكر، لا اللَّهُ يَمَلُّ من بِرِّه، ولا العارفُ يشبع من ذكره.

[هو أضحك وأبكى]:

سُئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[2]؟

فقال: أضحك العارفين بسرور معرفته، ثم أبكاهم من خوف مفارقته؛ وأمات من شاء بسيف قطيعته، وأحيى من شاء بروح وصلته، ليعلم الخلائق: أنه فَعَّالٌ لِمَا يُريد.

وقيل لعائشة رضي الله عنها: كيف يُحَاسَبُ المؤمنون العارفون؟

فقالت: ليس مع العارفين حساب، ولكن معهم عتاب.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].
(٢) النجم: ٤٣.

[عرَّفهم وأكرمهم]:

وروي أن سليمان عليه الصلاة والسلام، نظر إلى مملكته يوماً، فأمر الله تعالى الريح حتى كشف عورته، فقال للريح: ردّي عليَّ ثوبي؟ فقال الريح: ردَّ قلبك إلى مكانه!

فطوبى لأهل المعرفة، عرَّفهم أنفسهم قبل أن يعرفوه، وأكرمهم قبل أن يعرفوا الكرامة،

أولئك أقوام أنفسهم روحانية، وقلوبهم سماوية، وهمومهم مرضية، وصدورهم جزعة، وقلوبهم خائفة، وأعينهم دامعة،

عقلوا فعلموا، ووجدوا فرحلوا، وانفتح لهم نور القلب.

لِلَّهِ قَـوْمٌ مُصْطَفَـوْنَ لِنَفْسِـهِ ... آخْتَـارَهُمْ مِنْ سَالِفِ آلأَزْمَـانِ
آخْتَارَهُمْ مِنْ قَبْلِ فِطْرَةِ خَلْقِهِمْ ... فِيهِمْ وَدَائِـعُ حِكْمَـةٍ وَبَيَـانِ

* * *

الحديث الثامن

[حياء.. وإيمان]:

أخبرنا الشيخ الصالح الثقة: أبو الفتح محمد بن عبد الباقي، ابن أحمد بن سلمان، قال: أنبأنا أبو عبد الله مالك، بن أحمد بن علي المالكي، قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى القرشي، قال: أنبأنا أبو إسحٰق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، قال: أنبأنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري، عن مالك، عن ابن شهاب الزُّهري، عن سالم، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ، مرَّ على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ:

«الحياءُ مِنَ الايمانِ»(١).

[نماذج من الحياء]:

والحياء الذي يشمل الوجه من الناس: أُنموذج عن الحياء الذي يشمل القلب من الله تعالى،

والحياء الشامل للوجه وللقلب: هو من الإيمان بالله، وهو طور

---

(١) متفق عليه، عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ ورواه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

العارفين بالله سبحانه وتعالى، الذين جعل قلوبهم عَيْبَةَ أسراره[١]،

وكذلك فإن قلوب العارفين، خزائن الله في أرضه، وضع فيها ودائع سره، ولطائف حكمته، ودقائق محبته، وأنوار علمه، وأمانة معرفته،

فكلامهم هو الكشف عما يشاهده القلب، وإظهار علوم السر، وبيان معاملة الضمير، من تمييز الانفصال عن الاتصال، وبيان الأسباب الشاغلة عن الحق، من الأسباب الداعية إلى الحق،

أما الداعي إلى الخَلْقِ: فالدنيا، والنفس، والخلق؛

وأما الداعي إلى الحقِّ: فالعقل، واليقين، والمعرفة، كما ورد: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[٢]. يعني من عرف ما لنفسه، عرف ما لربه؛

[منه.. وإليه]:

وكلامهم يدور على خمسة أوجه: به، وله، ومنه، وإليه، وعليه؛

---

(١) أي: موضع أسراره.

(٢) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص [٤١٩]: قال أبو المظفر ابن السمعاني في الكلام على التحسين والتقبيح العقلي: من القواطع أنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي، يعني من قوله؛ وكذا قال النووي: إنه ليس بثابت؛

وقيل في تأويله: من عرف نفسه بالحدوث، عرف ربه بالقِدَم؛ ومن عرف نفسه بالفناء، عرف ربه بالبقاء. انتهى.

وقال بعضهم: وهو أنك تعرف أن صفات نفسك على الضدِّ من صفات ربك؛ فمن عرف نفسه بالفناء، عرف ربه بالبقاء، ومن عرف نفسه بالجفاء، والخطأ، عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه كما هي، عرف ربه كما هو.

وليس في كلامهم: أنا، وإني، ونحن، ولي، وبي؛

لأن ألفاظهم فردانية، وحركاتهم صمدانية، وأخلاقهم ربانية، وإرادتهم وحدانية؛ لا يعرف إشارتهم إلا من له قلب حريق، فيه خزائن الأسرار، وجواهر القُدُس، وسرادقات الأنوار، وبحار الوداد، ومفاتيح الغيب، وأودية الشوق، ورياض الأُنس، فكلما أبرز العارف لسان الحكمة، من ينبوع المعرفة بإشارات: استأنس بها قلوب المريدين والمشتاقين.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى[١]: القلوب كالقدور، ومغارفها الألسن، فكل لسان يغرف لك ما في قلبه[٢].

[سراجٌ في قنديل]:

وقيل لأبي بكر الواسطي ـ رحمه الله تعالى ـ: ما تقول في كلام أهل المعرفة؟

فقال: إنَّ مثل المعرفة، كمثل سراج في قنديل، والقنديل معلق في بيت، فما دام السراج في البيت، يكون البيت مضيئاً، وربما يفتح الباب فيقع ضوء السراج خارج البيت ويضيء؛

كلام أهل المعرفة يقع ضياؤه على قلوب أهل النور، فتصير أعينهم دامعة، وألسنتهم ذاكرة، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

(٢) وقد قال الحكماء: «عَقْلُ الْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ».

﴿ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

مَثَلُ نفس العارف كمثل البيت، ومثل قلبه كمثل القنديل، دهنه من اليقين، وماؤه من الصدق، وفتيله من الإخلاص، والزجاجة من الصفاء والرضاء، وعلائقه من العقل؛

فالخوف: نار في نور، والرجاء: نور في نار، والمعرفة نور في نور؛

فالقنديل معلق بباب الكَوَّة(٢)، إذا فتح العارف فاه بالحكمة التي في قلبه، هاج في كـوَّة فمه نور من الأنوار التي في قلبه، فيقع ضياؤه على قلوب أهل النور، فيتعلق النور بالنور؛

وإن بعض القول أشد ضوأ من النهار، وبعضها أشد ظلمة من الليل؛

وكلام أهل المعرفة: كنز من كنوز الرب سبحانه، معادنه قلوب أهل المعرفة، أمرهم الله تعالى بالإنفاق منه على أهله في قوله تعالى:

﴿أُدْعُ إلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٣).

---

(١) المائدة: ٨٣.

(٢) الكَوَّةُ، والكُوَّة: ثقب البيت.

(٣) النحل: ١٢٥.

قيل لبعض العارفين: أي شيء أضوأ من الشمس؟ قال: المعرفة؛

قيل: أي شيء أنفع من الماء؟ قال: كلام أهل المعرفة؛

قيل: وأي شيء أطيب من المسك؟ قال: وقت العارف؛

قيل: وما حرفة العارف؟ قال: النظر إلى صنع الربوبية، وأعلام لطائف القدرة.

[مرادنا... ومرادهم!]:

قيل لأبي سعيد البلخي رحمه الله تعالى: لم كان كلام السلف، أنفع من كلام الخلف؟

قال: لأن مرادهم كان: عزُّ الإسلام، ونجاة النفوس، والشفقة على الإخوان، ورضا الرحمن؛

ومرادنا: عز النفس، وثناء الناس، وطلب التنعم في الدنيا!

فالعبد إذا أطاع ربه، رزقه نهلة[1] من عين المعرفة، وأنطق بها لسانه؛ وإذا ترك طاعته لم يسلبها، ولكن أبقاها في قلبه، ولم ينطق بها لسانه، ليكون ذلك حسرة عليه، وابتلاء بأنواع المحن؛

وما من مؤمِنَيْنِ يلتقيان، فيذكران الله، إلَّا ويزيد الله تعالى في قلوبهما نورَ المعرفة، قبل أن يتفرقا.

إن الله تعالى أطلع أهل المعرفة، على تلاطم أمواج بحار

---

(١) أي: سقاه شربة.

خواطر القلوب، وأَشْرَفَهُمْ[١] على خزائن الأسرار، وبواطن العلوم التي لا يُحصىٰ عددها، ولا ينقطع مددها، ولا يُدْرَكُ قعرها، ولا يفنى عجائبها، حتى يغوصوا بنور المعرفة، في قعر بواطن إشاراتها المكنونة، في معانيها المخزونة؛

فيستخرجوا عجائب فوائد، ولطائف زوائد، وحقائق إشارات، يحترق منها قلوب المحبين، ويستأنس بها أرواح المريدين، وهي نور من أنوار الهداية، يهتدي به العبد إلى طريق حسن الرعاية، إذا أدركه من الحق: التوفيق والعناية.

[مددٌ رباني]:

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى[٢]: لقيت الحكماء فوجدت أكثرهم مفاليس! يفتحون من كيس غيرهم.

وكان لليث[٣] المصري ـ رحمه الله تعالى ـ أخ، وكان بالإسكندرية، فلما قدم إليه قال: إني كنت مقبلاً على ربي.

قال: فأين فوائد إقبالك على ربك؟ فسكت.

---

(١) أطلعهم من فوق.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

(٣) هو: الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث، إمام أهل مصر في عصره، حديثاً، وفقهاً؛ أصله من خراسان، ومولده في قلقشندة سنة: [٩٤] هـ، وكان من الكرماء الأجواد، قال عنه الإمام الشافعي رضي الله عنه: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. توفي في القاهرة سنة: [١٧٥] هجرية. رحمه الله تعالى.

فقال الليث: العبد إذا أقبل على الله بصدق الوفاء، يمدُّهُ الله بفوائد لم تخطر على قلب بشر.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى[1] ـ يتكلم ذات يوم، فصاح رجل في مجلسه، ومزق ثوبه، فقيل له: ما تقول فيه؟

قال: كلام أهل المعرفة، كلما نبع من عين سر الوحدانية، قرع قلب المحترق بنيران الشوق والمحبة، فتلاشت عن صاحبه صفات الإنسانية؛

كلام المتقين بمنزلة الوحي.

وجرت كلمة على لسان بعضهم؛ فقيل له: من حدَّثك بهذا؟

قال: حدثني قلبي، عن فكري، عن سرِّي، عن ربِّي.

فإسناد الحكمة: وجودها، وهي ضالة المريد، حيث ما وجدها أخذها، فلا يبالي من أي وعاء خرجتْ، وبأي لسان نطقتْ، ومن أي قلب نُقلتْ، أو على أي حائط كُتبتْ، أو من أي كافر سُمعتْ.

[حكيم يختار الحكمة]:

وقد ورد: «من أراد أن يؤتيه الله علماً من غير تعلمٍ، وهدى من غير هداية، فليزهد في الدنيا».

وإن للحكمة أهلاً وزماناً، وقد مضى زمنها والأكثرون من أهلها، وليس علينا إلا أثر المصيبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

أطلبوا مصابيح كلام العارفين قبل وفاتهم؛ نعمة اعـرفوا شرفها، وكمال فضلها، وإنما اختار «لقمانُ» الحكمةَ لشرفها.

هي: برهان الصدِّيقين، ونزهة المتقين، وفردوس العارفين، وميراث النبيين والمرسلين؛ فاطلبوها قبل ذهابها.

مَصَابيحُ الأنامِ بِكُلِّ أرْضٍ هُمُ الْعُلَمَاءُ أبْنَاءُ الْكِرَامِ
تَلألأَ عِلْمُهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ كَنُورِ الْبَدْرِ لاَحَ بِلاَ غَمَامِ

* * *

الحديث التاسع

[تبديل السيئات حسنات]:

أخبرنا العبد الصالح الثقة: أبو غالب عبد الله بن منصور ـ بجامع واسط ـ : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن علي، بن الحسين السلمي، قال: أنبأنا أبو الحسن ابن أبي الفتح، الضرير العثماني، قال: أنبأنا عمر بن محمد المقري، قال: أنبأنا عبد الرحمن بن أحمد، بن الحجاج، قال: أنبأنا أحمد بن محمد، بن أبي الرجاء، قال: أنبأنا وكيع بن الجراح، قال: حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذرٍّ، رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صغارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَيُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا ها هُنَا! قال:

فَلَقَــدْ رَأَيْـتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»(١).

ثمَّ تلا: ﴿فأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾(٢).

هذا الإشفاق هو: شيء من أسرار اليقين بالله، وحال من سلطانه، يفرغه في قلوب أهل المعرفة به، ولهذا الحديث الشريف شأن جليل، ينبىء عن كرم إلٰهي فوق تعبير اللسان، يعرفه العارفون، ويزلق به الغافلون، ويزداد خوفاً من الله به الموفقون.

[ألْسنة أهل المعرفة]:

أي سادة! من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة، فينبغي أن يحفظ أدب كلامه، فلا يكشف دقائقه إلا عند أهله، وأن لا يُحَمِّل المريد فوق طاقته، ولا يمنع كلامه من كان من أهله، ويكون كلامه مع أهل المعرفة: بلسان أهل المعرفة؛

ومع أهل الصفا: بلسان الصفا؛

ومع أهل المحبة: بلسان المحبة؛

ومع أهل الزهد: بلسانهم؛

ومع كل صنف: على قَدْرِ مراتبهم ومنازلهم، وقَدْرِ عقولهم؛ فإن الله تعالى جعل للعارف هذه الألسن؛

نعم؛ كلها تتلاشى عند ظهور سلطان الحق، وينبغي أن لا

---

(١) رواه مسلم، والترمذي، وغيرهما.

(٢) الفرقان: ٧٠. وهذه الآية، غير موجودة في آخر الحديث.

يُحدِّث بحديث لا يبلغ عقل المستمع إليه، فيكون ذلك فتنة، فإن أكثر الناس جاهلون! اشتَغلوا بعلوم الظواهر، وتركوا علم تصحيح الضمائر، فلا يحتملون دقائق كلام العارفين؛

لأن كلماتهم لاهوتية، وإشاراتهم قدسية، وعباراتهم أزلية، فلذلك ينبغي للمستمع أن يكـون معه السـراج الأزلي، والنور الديمومي.

[وليُّ الحال]:

ويقال: لسان الحال، أفصح من لسان المقال؛ فمن رضي بالحال، دون وليِّ الحال، صار مخذولاً عن الحال ومحجوباً عن ذي الجلال!

وأي دهشة أشد من دهشة العارف؟ إن تكلم عن حاله هلك! وإن سكتَ احترق، فمن ورد قلبه الحضرة كلَّ لسانه، ومن غاب قلبه عن الحضرة كثر كلامه.

[الداعي إلى الله يكون حكيماً]:

قال ذو النون رحمه الله(١): ما رأيت محدِّثاً في قوم، يحدثهم بغفلة، إلَّا كان ذلك قسوة(٢).

وقال بعضهم: سكوت العارف حكمة، وكلامه نعمة.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

(٢) لأن الكلام إذا خرج من القلب، وقع في القلب؛ وإذا خرج من اللسان، كان حدَّهُ الآذان!

ويقال: ليس على تحقيق في المعرفة، من يُحَدِّثُ بحديث المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف أبناء الدنيا؟

ما تكلمتُ مع أحد من الناس، إلاَّ ودعوته إلى الله، ثم كلمته.

من لم يكن له حلاوة المعرفة، ورؤية المِنَّة، وشكر النعمة، ولذائذ القربة، وخوف المفارقة، وأُنس الصحبة، وإخلاص العبادة، وسرور الهداية، فليس له أن يتكلم بكلام أهل المعرفة، وإن تكلم فلا يحمِّل فوق الطاقة، ولا يمنع أهل الحاجة، ولا يضيِّع أهل الغفلة.

[تُبْ من ذنوبك]:

وحكي أن رجلاً جاء إلى عارف، قال: حدثني!

فقال: إن مثلي معك، كرجل وقع في القاذورات، فذهب إلى العطار، وقال: أين الطيب؟

فقال العطار: اذهب اشتر الأشنان[1]، واغسل نفسك ولباسك، ثم تعال فتطيَّبْ!

وكذلك أنتَ، لطَّخْتَ نفسك بأنجاس الذنوب؛ فخذ أشنان الحسرة، وطين الندامة، وماء التوبة والإنابة، وطهر ظواهرك في إجَّانة[2] الخوف والرجاء، من أنجاس الجُرم والجفاء، ثم اذهب إلى

---

(١) الأشنان أو الإشنان: شجر ينبت في الأرض الرَّملية، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي.

(٢) الإجَّانَةُ: إناءٌ تُغْسَلُ فيه الثياب.

حمام الزهد والتقى، واغسل نفسك بماء الصدق والصفاء؛ ثم ائتني حتى أطيِّبَك بعطر معرفتي!

قال بعض الناس لعارف: إني لا أعرف كلامكم! قال: كلام الأخرس لا يعرفه إلاَّ أمه.

ومن كلام عيسى عليه الصلاة والسلام: «يا صاحب الحكمة! كن كالطبيب الناصح، يضع الدواء حيث ينفع، ويمنع الدواء حيث يضر؛

لا تضع الحكمة في غير أهلها فتكون جاهلاً؛
ولا تمنعها من أهلها فتكون ظالماً؛
ولا تكشف سرك عند كلِّ أحد، فتصير مفتضحاً».

وقال ذو النون رحمه الله[1]: رأيت رجلاً أسود يطوف حول البيت، ويقول: أنت، أنت، أنت! ولا يزيد على ذلك اللفظ شيئاً،

فقلت: يا عبد الله! أي شيء عنيتَ به؟ فأنشأ يقول:

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيهِ ... خَطٌّ وَلاَ قَلَمٌ عَنْهُ فَيَحْكِيهِ
نَارٌ تُقَابِلُهُ أُنْسٌ يُمَازِجُهُ ... نُورٌ يُخْبِرُهُ عَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ
شَوْقِي إِلَيْهِ وَلاَ أَبْغِي بِهِ بَدَلاً ... هٰذِي سَرَائِرُ كِتْمَانٍ تُنَاجِيهِ

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

الحَدِيثُ العَاشِرُ

[أول من تُفتح له الجنة]:

أخبرنا الشيخ: أبو طالب محمد بن علي، عن أبي القاسم علي بن أحمد الرزاز، قال: أنبأنا أبو الحسين محمد بن مخلد ـ في سنة ثماني عشرة وأربعمائة ـ قال: أنبأنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، قال: أنبأنا الحسن بن عرفة العبدي، قال: أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«آتِي يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ بَابَ ٱلجَنَّةِ فأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ ٱلخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فيقول: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»(١).

قد علم أهل العلم بالله، أن الجنة التي هي باب الخير الإلٓهي الأبدي، لا تُفتح إلاَّ بفتح محمد ﷺ لها، فهو الفاتح لكل خير دنيوي وأخروي، والعِلْم بشأنه هو سر العلم بالله تعالى، فمن أراد أن يفتح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، ومسلم، بدون لفظ: «يوم القيامة».

له أبواب الخير الدنيوي والأخروي، فعليه أن يتعلق بأذياله، فإن في نفحاتها: علم المعرفة.

[خصائص أهل الولاية والمحبة]:

أي سادة! علم المعرفة، هو العلم بالله تعالى، وهو نور من أنوار ذي الجلال، وخصلة من أشرف الخصال، أكرم الله به قلوب العقلاء، فزينها بحسن جماله، وعظيم شأنه، وخص به أهل ولايته ومحبته، وفضّله على سائر العلوم، وأكثر الناس عن شرفه غافلون، وبلطائفه جاهلون، وعن عظيم خطره ساهون، وعن غوامض معانيه لاهون، فلا يدركه إلاَّ أرباب القلوب الموفقون؛

وهذا العلم: أساس، بنيت عليه سائر العلوم؛ به ينال خير الدارين، وعز المنزلين؛

وبه يعرف العبد عيوب نفسه، ومنن ربه، وجلال ربوبيته، وكمال قدرته؛

به يطير سر العبد بجناح المعرفة، في سرادقات لطائف القدرة، ويجول حول منتهى العزة، ويرتع في روضات القدس، فلا تتم العلوم كلها دون امتزاج شيء منه بها، ولا تفسد الأعمال إلا بفقده، ولم تسكن إليه إلاَّ قلوبٌ نظر الله إليها: بالرأفة والرحمة، وأمطر عليها آمطار الفهم والبلاغة، وطيَّبها برياحين اليقين والفطنة، وجعلها موضع العقل والفراسة، وطهرها من أدناس الجهالة والغفلة، ونوَّرها بمصابيح العلم والحكمة، قال الله تعالى:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[١].

وكل عارف يخشى الله تعالى ويتقيه، على مقدار علمه بالله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾[٢].

بنوره يعرف وساوس الشيطان، الدافعة إلى المعاصي والزلّات، ويحذر به آفات الإرادات،

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[٤].

وفي الخبر: إن من العلم كهيئة المكنون المخزون، لا يعرفها إلا أهل العلم بالله، ولا ينكرها إلا أهل الغِرَّة[٥].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أي الأعمال أفضل؟ فقال: العلم بالله.

[أي العباد أفضل؟]:

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: «يا رب! أي العباد

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) الزمر: ٢٢.

(٤) النور: ٤٠.

(٥) أي: أهل الغفلة في اليقظة!

أكثر حسنة، وأرفع درجة عندك؟ قال: أعلمهم بي».

وقال الإمام الجليل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكرم الله وجهه: «أعلم الناس بالله، أشدهم تعظيماً لحرمة: لا إلّه إلاَّ الله».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «من ازداد بالله علماً، ازداد وَجَلاً»[1].

وروي أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: «أن يا داود! تعلم العلمَ النافع. قال: إلّهي! وما العلم النافع؟

قال: أن تعرف: جلالي، وعظمتي، وكبريائي، وكمال قدرتي على كل شيء، فإن هذا الذي يقربك إليَّ، وإني لا أعذر بالجهالة من لقيني».

وقيل لمحمد بن الفضل السمرقندي ـ رحمه الله تعالى ـ: ما العلم بالله؟

قال: أن ترى قضاءه في الخلق مُبْرَماً، والضرَّ والنفعَ والعزَّ والذلَّ: منه؛

وترى نفسك لله؛ والأشياء كلها في قبضته؛ وأن لا تختار لنفسك غير اختياره؛ وتعمل لله خالصاً.

---

(١) أي: خوفاً من الله، فيحمله الخوف على القيام حقاً بالمأمورات والمنهيات، ومع ذلك يعتقد نفسه مقصراً. (من تحقيق النسخة القديمة).

[عليكم ببغض الدنيا]:

يا بني! اجتهد في تعلم علم السر، فإن بركته كثيرة، أكثر مما تظن.

يا بني! من تعلم علم العلانية دون علم السر[١]، هلك وهو لا يشعر.

يا بني! إن أردت أن يكرمك الله بعلم السر! فعليك ببغض الدنيا، واعرف حرمة الصالحين، وأحكم أمرك للموت.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[٢] ﴿وَعلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ﴾[٣] ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[٤] إلا أنه قال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٥].

فرُبَّ رجل كثير الروايات جاهل بالله.

إن علم المعرفة: فضل من الله، يؤتيه من اصطفاه من خلقه، واجْتباه لصحبته.

جاء في الخبر: العلم علمان: علم باللسان، وهو حجة الله

---

(١) المراد من علم العلانية بالعلوم الشرعية الظاهرة؛
وعلم السر هو: مراقبة الله تعالى في العمل بما علم، مع الورع، والتنزه عن ذميم الصفات، والكف عن المحارم، وأكل الحرام والمشبوه. (من تحقيق النسخة القديمة).

(٢) طه: ١١٤.

(٣) النساء: ١١٣.

(٤) الكهف: ٦٥.

(٥) العنكبوت: ٦٩.

على العباد، وعلم القلب، وهو العلم الأعلى، لا يخشى العبد من الله إلاَّ به،

وقال ﷺ: أشدكم لله خشية: أعلمكم بالله.

[مراتب العلماء]:

وقال سفيان الثوري رحمه‌الله[1]: العلماء ثلاثة:

١ ـ عالم بأمر الله، غير عالم بالله؛ فذلك العالم الفاجر، الذي لا يصلح إلاَّ للنار!

٢ ـ وعالم بالله، غير عالم بأمره؛ فذلك ناقص!

٣ ـ وعالم بالله، ويأمره به؛ فهو العالم الكامل.

قيل لبعض العارفين: ما سبيل معرفة الله؟ قال: ليس يُعرف بالأشياء؛ بل تُعرف الأشياء به، كما قال ذو النون ـ رحمه الله تعالى ـ: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله.

[كيف عرفتَ الله؟]:

وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: إلهي! لولا أنت، كيف

---

(١) هو الإمام الجليل السيد: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر؛ أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى.

وُلد ـ ونشأ ـ في الكوفة سنة: [٩٧] للهجرة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى وخرج من الكوفة سنة: [١٤٤] هـ فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة، فمات فيها مستخفياً سنة: [١٦١] هجرية رحمه الله تعالى.

كنتُ أعرف من أنت[١]؟

ومثله عن رابعة العدوية، قالت لـذي النون ـ رحمهما الله تعالى ـ: كيف عرفتَ الله؟

قال: رزقني الحياء، وكساني المراقبة، فكلما هممت بمعصية ذكرتُ جلال الله، فاستحييت منه.

[أصل شجرة وفرعها]:

مَثَلُ المعرفة، كشجرة لها ستة أغصان، أصلها نابت في أرض اليقين والتصديق، وفرعها قائم بالإيمان والتوحيد،

فأول أغصانها: الخوف، والرجاء، مقرونان بغصن الفكرة؛

والثاني: الصدق، والوفاء، مقرونان بغصن الإخلاص؛

والثالث: الخشية، والبكاء، مقرونان بغصن التقوى؛

والرابع: القناعة، والرضاء، مقرونان بغصن التوكل؛

والخامس: التعظيم، والحياء، مقرونان بغصن السكينة؛

والسادس: الاستقامة، والوفاء، مقرونان بغصن الود والمحبة؛

ويتشعب من كل غصن ما لا نهاية له في العدد من أنواع الخير، والصدق في المعاملة، وأنس الصحبة، وفرائد القربة، وصفاء الوقت، وغير ذلك مما لا يصفه الواصفون؛

---

(١) صدق عليه السلام، لأنه لولا هداية الله، لما استطاع إنسان أن يعرف الله، أو أن يعبد الله؛ قال الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

اَللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وعلى كل شعبة من ثمار شتى، لا يشبه لون أحدها الآخر، ولا طعمها، تحتها أنوار التوفيق، جارية من ينبوع الفضل والعناية، والناس في ذلك على تفاوت الدرجات، وتباين الحالات،

فمنهم: من أخذ بفرعها، غافل عن أصلها، محروم من أغصانها، محجوب عن حلاوة ثمارها،

ومنهم: من تمسك بفروعها،

ومنهم: من أخذ بأصلها، وأخذ كلها من غير أن يلتفت إلى كلها، لانفراده بوليِّه خالقها؛ ومن لم يكن له نور من سراج التوفيق، ولو جمع الكتب والأخبار، والأحاديث كلها، لا يزداد إلا بعداً ونفوراً، كمثل الحمار يحمل أسفاراً!

[غرائب العلوم]:

يقال: إن رجلاً جاء إلى الإمام عليٍّ عليه السلام فقال: علمني من غرائب العلم!

قال: ما فعلتَ في رأس العلم؟ قال: وما رأس العلم؟ قال: أعرفتَ ربك؟ قال: نعم. قال: ما فعلتَ في حقه؟ قال: ما شاء الله.

قال: انطلق فأحكم هذا، فإذا أحكمته فأْتني أعلمك غرائب العلم.

قيل: الفرق بين علم المعرفة وغيرها، كالفرق بين الحيِّ والميت.

* * *

الحديث الحادي عشر

[الصدقةُ وقاية]:

أخبرنا شيخنا الإمام المقري الجليل الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي قدس الله روحه، قال: أنبأنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد الواعظ، قال: أنبأنا أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الرحمن الجمحي، قال: أنبأنا علي بن عبد العزيز، عن ابن المبارك، عن حرملة بن عمران، عن يزيد بن أبي جندب، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ٱلْمَرْءُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ ٱلنَّاسِ» أَوْ قَالَ: «يُحْكَمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»(١).

هذا لكونه ترك شيئاً قليلاً من ما تحبه نفسه لربه، فكيف إذا خرج عن نفسه بالكلية؟

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحهما، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص[٢٢٤]: أول الحديث عند جميعهم، أو أكثرهم: «كُلُّ آمْرِيءٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ.. الخ».

روي أن الله تبارك وتعالى، أوحى إلى داود عليه السلام:

«بشر المذنبين بأني غفور[١]، وأنذر الصِّدِّيقين بأني غيور»[٢].

وروي أن يوسف عليه الصلاة والسلام: لما أُلقي في الجب، كان يقول: من لعب في خدمة مولاه، فغيابة الجب مأواه!

[من حكم العارفين]:

وهنا كلمات من طرائف مختصرات القوم، تنشط بها همم الموفقين، يقول قائلهم رضي الله عنهم:

حق لمن عرف المولىٰ، أن لا يشكو من البلوى، إذا لم يعرف العبد المولى، فكل لسان له دعوى، ليس للعارف دعوى، ولا للمحب شكوى،

إذا سبقت من الربِّ العناية، هُزمت من العبد الجناية؛

إذا سبقت العناية، وجبت الولاية؛ بالعناية تحصل الولاية، والولاية تهدم الجناية؛

ليس الشأن في الولاية، لكن الشأن في العناية، لم يدرك الولاية من فاتته العناية؛ المصِرُّ من أسر السر؛ طرح الخلق وجودُ الحق؛ اطرح الدعوىٰ تجد المعنى؛

من كان له باطن صحيح، فجميع كلامه مليح؛

لا تغتر بصفاء الأوقات، فإن تحتها فنون الآفات؛

---

(١) كي لا ييأسوا من رحمة الله تعالى.

(٢) حتى لا يلتفت أحدهم إلى الأغيار؛ بل يبقى معلق القلب به سبحانه.

لا تغتر بصفاء العبودية، فإن فيها نسيان الربوبية؛

خلِّ الدارَيْنِ للطالبين؛ واستأنس برب العالمين؛

استهد بالله، فنعم الدليل؛ وتوكل عليه، فنعم الوكيل؛

ما دام قلب العبد بغير الله معلقاً، كان باب الصفاء عنه مغلقاً؛

الأُنس بالله نور ساطع، والأُنس بالمخلوق هَمٌّ واقع؛

معدن الأسرار، قلوب الأبرار؛ قلوب الأبرار حصون الأسرار؛

القلب إذا ابتلي بالمربوب؛ عزل عن ولاية المحبوب؛

خير الرزق ما يكفي، وخير الذكر الخفي؛

توكل تكف، وسل تعط؛ ليس باللبيب من اختار على الحبيب؛ بقدر ما تتعنّىٰ، تنال ما تتمنى؛

العبد إذا سخط عليه مولاه، سخط عليه ما سواه؛

وإذا رضي عنه مولاه، رضي عنه ما سواه؛

عذر الحبيب عند الحبيب مبرور، وذنب الحبيب عند الحبيب مغفور؛

من أراد المولى، فليتهيأ للبلوى:

هَـوِّنْ ٱلدُّنْيَـا وَمَا فِيهَـا عَلَيْكَ ... وَٱجْعَلْ ٱلْحُزْنَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ

الموت جسر مهيب، يوصل الحبيب إلى الحبيب، ينبغي أن يكون العبد مشغولاً، بما يكون غداً عنه مسؤولاً، اجعل التقيَّ جليسك، والدعاء أنيسك،

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَـةَ زَائِلُ[1]

---

(١) قائل هذا البيت: لبيد الشاعر، وهو: لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري؛ =

الحب يُحْرق، والشوق يُقلق، هذا سرور الخبر، فكيف سرور النظر؟

كل نعمة دون الجنة فانية، وكل بلاء دون النار عافية.

التوبة تطهر الحوبة(١)؛ الإعتراف يهدم الاقتراف.

هَبْ أنَّ الله قد عفا عن المسيئين، أليس قد فاتهم ثواب المحسنين؟

أعِدَّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً،

أُطلب ما يعنيك، بترك ما لا يعنيك؛

الرزق مقسوم، والحريص محروم؛ العبد حر إذا قَنِع، والحر

= أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية؛ من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ، ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم، وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلاّ بيتاً واحداً، قيل: هو:

مَا عَاتَبَ الْمَرْءُ الْكَرِيمُ كَنَفْسِهِ   وَالْمَرْءُ يُصْلِحُهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ

وسكن الكوفة، ، وعَاش عمراً طويلاً، وكان كريماً، توفي سنة: [٤١] هـ. رحمه الله تعالى.

نعود إلى قصة البيت: كان لبيد في مجلس من مجالس قريش ينشدهم الشعر، فجاء الصحابي الجليل: عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ وجلس معهم؛ فقال لبيد وهو ينشدهم: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّه بَاطِلُ.

فقال عثمان: صدقت. فقال لبيد: وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ.

فقال عثمان: كذبتَ، نعيم أهل الجنة لا يزول.

قال لبيد: يا معشر قريش! واللهِ! ما كان يُؤْذى جليسكم، فمتى حدث فيكم هذا؟!

فقام رجل من القوم فقال: إن هذا سفيه في سفهاء معه! فقد فارقوا ديننا، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله! فردَّ عليه عثمان حتى عظم أمرُهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها! فكان من المصابين في سبيل الله تعالى، رضي الله عنه.

(١) الإثم

عبد إذا طَمع؛ أخرج الطمع من قلبك، تحل القيد من رجلك، قدم إلى الحشر زادك، فإن إلى الله معادك؛

الدنيا دنية، وحبها خطية؛ الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة؛

الدنيا كلها غرور، والعقبى كلها سرور؛ الدنيا معدن الخطأ، والعقبىٰ معدن العطاء؛

الدنيا معدن الجفاء، والعقبىٰ معدن الوفاء؛

أساس التقوى ترك الدنيا؛ أخوف الناس آمنهم؛

ما أغفلك عما خُلقتَ له؟ وما أعجزك عما أمرت له؟ منعك طول الأمل، عن ذكر الأجل! لا تعص مولاك بطاعة هواك؛

رأس الوفاء: ترك الجفاء، إن أردت المكارم: فاجتنب المحارم؛ قليل يكفيك، خير من كثير يُطغيك؛

المؤمن: كثير الفعال، قليل المقال؛

والمنافق: قليل الفعال، كثير المقال.

اتَّقِ الله إذا خلوت، يستجبْ لك إذا دعوت؛

غضَبُ الله أشد من ناره، ورضوانه أكبر من جنته، دع التدبير إلى الملك الخبير؛

طلب الحلال، أشد من نقل الجبال؛

كل همّ وذكر لغير الله، فهو حجاب بينك وبين الله؛ لا تقع المؤانسة بين العبد وبين ربه، حتى تقع الوحشة بينه وبين خلقه؛

لا يصل العبد إلى الحق، حتى يعتزل عن صحبة الخلق؛ حسبي من سؤالي، علمه بحالي.

كُلُّ مَحْبُوبٍ سِوَى اللّٰهِ سَرَفْ   وَعَـنَـاءٌ   وَبَـلَاءٌ   وَتَـلَفْ
وَهُـمُـومٌ وَغُـمُـومٌ وَأَسَـفْ   مَا خَلَا الرَّحْمٰنَ مَا عَنْهُ خَلَفْ

ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها!

دُرْتُ حَـوْلَ الْمَشْـرِقَـيْـنِ   ثُـمَّ دُرْتُ الْـمَـغْـرِبَـيْـنِ
فَـوَجَـدْتُ الْأَمْـرَ كُـلًّا   لِـمَـلِيـكِ الـثَّـقَـلَـيْـنِ
حُـبُّـهُ مِـنْـيَـةُ قَـلْـبِـي   ذِكْـرُهُ قُـرَّةُ عَـيْـنِـي

* * *

الحديث الثاني عشر

[المرحومون]:

أخبرنا الشيخ الجليل المقري العارف بالله، خالي: أبو بكر الأنصاري الواسطي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، قال: أنبأنا أبو القاسم منصور بن النعمي، قال: أنبأنا أبو نصر عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي، قال: أنبأنا أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبي، قال: أنبأنا أبو حامد أحمد بن محمد بن بلال البزاز، قال: أنبأنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم، قال: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عمر بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الأَرضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، والترمذي، والحاكم. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

هذا الحديث الشريف، فيه من أسرار العلم بالله العجائب، أمَرَ به المصطفى ﷺ بالرحمة لمن في الأرض من المخلوقين، لتحصل بذلك الرحمة للعبد من كل من في السماء من العُلْويين، فإن السماء طريقُ تنزلِ الرحماتِ الربانية، ومحل أُنبوب الإفاضات الرحموتية، ومقر الملائكة الذين جعلهم الله وسائط أسراره بينه وبين خلقه؛

فإذا ألقى الرحمة في سر ملك الرزق، طاب الرزق؛

وإذا ألقاها في سر كاتب الأعمال، أنساه السيئات؛

وإذا ألقاها في سر الرقيب، أعان ورفق؛

والرحمة حال العارف، ومعراج قلبه إلى ربه، وإن عباد الله العارفين، مظاهر لرحمة رب العالمين في المخلوقين، وهو سبحانه أرحم الراحمين.

أي بني! إذا تحققتَ بالرحمة للمخلوقين رُحمتَ، وإذا جالست العارفين نجحت، وإذا سألت الحكماء الربانيين تعلمت.

[مفتاح العلم]:

أي بني! اعلم أن لكل شيء مفتاحاً، ومفتاح العلم السؤال؛ فإن قدر المريد على أن يجالس أهل المعرفة، فيقتبس من علمهم، وتحقيق رمزهم، ولطائف إشاراتهم، فبخ، بخ، فإن شرف العلماء الربانيِّين، أكبر من أن يدركه أحد غير الله، لأنهم أحبَّاءُ الله، وأمناء سره؛

فليغتنم حرمتهم، وليحرك خواطرهم بحسن السؤال، فإن أمواج خواطر العارفين لا تفنى عجائبها؛ وكفى للمرء جهلاً إمساكه عن التعلم، واستكفاؤه بما عنده! وقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ

الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وقال النبي ﷺ: «جَالِسُوا الْكُبَرَاءَ، وَسَائِلُوا الْعُلَمَاءَ، وَخَالِطُوا الْحُكَمَاءَ»[٢].

[رحلة في طلب العلم]:

قال ذو النون رحمه الله تعالى[٣]: وُصف لي رجل بالمغرب، فارتحلتُ إليه، فوقفت عنده أربعين صباحاً، فلم أجد وقتاً أقتبس به من علمه شيئاً، لكمال شغله بربه؛ ولم أترك الحرمة، فيوماً من الأيام نظر إليَّ فقال:

من أين المرتحل؟ فأخبرته ببعض حالي، قال: بأي شيء جئت؟ قلتَ: لأقتبس من علمك.

قال: اتَّق الله، واستعن به، وتوكل عليه، فإنه وليٌّ حميد؛ وسكت.

فقلت: زدني، رحمك الله! فإني رجل غريب، جئتك من بلد بعيد، لأسألك عن أشياء اختلجت في ضميري.

فقال: أمتعلم، أم عالم، أم مناظر؟

فقلت: بل متعلم محتاج.

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) رواه الطبراني في الكبير، عن أبي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه.

قال العارف المرصفي رحمه الله تعالى: وإذا كان من يجالس أكابر الأولياء يُحفظ من الآفات، فكيف من يجالس ربَّ السموات؟

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

قال: قف في درجة المتعلمين، واحفظ الأدب، ولا تتعد! فإنك إن تعدَّيْتَ فسد عليك النفع؛

العقلاء من العلماء، والعارفون من الأصفياء، الذين سلكوا سبيل الصدق، وقطعوا أودية الحزن، ذهبوا بخير الدارين.

فقلت: رحمك الله! متى يبلغ العبد إلى ما وصفت؟

قال: إذا كان خارجاً من الأسباب.

قلت: ومتى يكون العبد كذلك؟

قال: إذا خرج من الحول والقوة.

قلت: وما نهاية العارف؟

قال: أن يصير بالكلية كالمعدوم عند وجوده.

قلت: ومتى يبلغ إلى مهيمنة الصدِّيقين؟ قال: إذا عرف نفسه.

قلت: متى يعرف نفسه؟

قال: إذا صار مستغرقاً في أبحر المِنَّة، وخرج من أودية الأنانية، وقام على قدم ياسينية.

قلت: ومتى يبلغ العبد إلى ما وصفته؟ قال: إذا جلس على مركب الفردانية.

قلت: وما مركب الفردانية؟ قال: القيام بصدق العبودية.

قلت: وما صدق العبودية؟

قال: العمل لله تعالى، والرضا بالقضاء، قلت: أوصني.

قال: أوصيك بالله، قلت: زدني. قال: حسبك!

[عالِمٌ . . وحكيم]:

قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله: رأيت رجلاً في بعض أسفاري، وعليه ثوب من الشعر، فسلمت عليه، قلت: رحمك الله! أسألك مسألة؟

قال: أوجز، فإن الأيام تمضي، والأنفاس تُعد وتحصى، والربُّ مطَّلع يسمع ويرى.

قلت: ما رأس التقوى؟ قال: الصبر مع الله تعالى.

قلت: ما رأس الصبر؟ قال: التوكل على الله.

قلت: وما رأس التوكل؟ قال: الانقطاع إلى الله.

قلت: وما رأس الانقطاع؟ قال: الانفراد لله.

قلت: وما رأس الانفراد؟ قال: التجريد عما دون الله.

قلت: ما ألذ الأشياء؟ قال: الأنس بذكر الله.

قلت: ما أطيب الأشياء؟ قال: العيش مع الله.

قلت: ما أقرب الأشياء؟ قال: اللحوق بالله.

قلت: أي شيء أوجع للقلب؟ قال: فراق الله.

قلت: ما همة العارف؟ قال: لقاء الله.

قلت: ما علامة المحب؟ قال: حبُّ ذكر الله.

قلت: ما الأنس بالله؟ قال: استقامة السر مع الله.

قلت: ما رأس التفويض؟ قال: التسليم لأمر الله.

قلت: وما رأس التسليم؟ قال: ذكر السؤال عند الله.

قلت: ما أعظم السرور؟ قال: حسن الظن بالله.

قلت: مَنْ أعظم الناس؟ قال: من استغنى بالله.

قلت: من أقوى النَّاس؟ قال: من استقوى بالله.

قلت: من المغبون؟ قال: من رضي بغير الله.

قلت: ما المرؤة؟ قال: ترك النزول بدون الله.

قلت: متى يكون العبد مبعداً من الله؟ قال: إذا صار محجوباً عن الله.

قلت: متى يكون محجوباً عن الله؟ قال: إذا كان في قلبه هَمٌّ غير الله.

قلت: ومن الغُمْرُ[١]؟ قال: من أنفق عمره في غير طاعة الله.

قلت: ما الزهد في الدنيا؟ قال: ترك كل شيء يشغل عن الله.

قلت: مَنِ الْمُقْبِلُ؟ قال: من أقبل على الله.

قلت: ومن المُدْبر؟ قال: من أدبر عن الله.

قلت: ما القلب السليم؟ قال: الذي لم يكن فيه سوى الله.

قلت: أخبرني من أين تأكل؟ قال: من خزائن الله.

قلت: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله.

قلت: أوصني! قال: اعمل بطاعة الله، وارض بقضاء الله، واستأنس بذكر الله، تكن من أصفياء الله.

[هل يعبده من لا يعرفه؟]:

قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى[٢]: كنت في بعض

---

(١) الغُمْرُ: بسكون الميم وضمها: هو الغافل، الذي لم يجرب الأمور.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

سياحتي، فإذا بشيخ، وفي وجهه سيما العارفين،

قلت: رحمك الله! ما الطريق إليه؟ قال: لو عرفتَه لوجدت الطريق إليه.

قلت: أوَ هل يعبده من لا يعرفه ؟! قال: أوَ هل يعصيه من يعرفه؟!

قلت: أليس آدم عصاه مع كمال معرفته؟! قال: فنسي ولم يجد له عزماً[١]، ثم قال: يا هذا! دع الاختلاف والخلاف.

قلت: أليس في اختلاف العلماء رحمة؟ قال: نعم، إلاَّ في تجريد التوحيد.

قلت: وما تجريد التوحيد؟ قال: فقدان رؤية ما سواه لوحدانيته.

قلت: وهل يكون العارف مسروراً؟ قال: وهل يكون العارف محزوناً؟

قلت: أليس من عرف الله طال همُّه؟ قال: بل من عرف الله زال همُّه.

قلت: وهل تُغيِّر الدنيا قلوب العارفين؟ قال: وهل تغير العقبى قلوبهم؟

قلت: أليس من عرف الله، صار مستوحشاً من الخلق؟ قال:

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾. [طه: ١١٥].

معاذ الله أن يكون العارف مستوحشاً، ولكن يكون مهاجراً ومتجرداً.

قلت: وهل عرفه أحد؟ قال: وهل جهله أحد؟

قلت: وهل يتأسف العارف على شيء غير الله؟ قال: أوَ هل يعرف غير الله،[حتى] يتأسف عليه؟

قلت: وهل يشتاق العارف إلى ربه؟ قال: أوَ هل يكون غائباً عن العارف حتى يشتاق إليه؟

قلت: وما اسم الله الأعظم؟ قال: أن تقول: الله.

قلت: كثيراً ما قلت، ولم يداخلني الهيبة؟ قال: لأنك تقول من حيث أنتَ، لا من حيث هو!

قلت: عظني: قال: حسبك من المواعظ، علمك بأنه يراك. فقمت من عنده،

وقلت: ما تأمر؟ قال: كفى بـاطلاعـه عليك في جميـع أحوالك!

[العيش الجميل في معرفة الجليل]:

سُئل يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى[١] ـ: ما علامة القلب الصحيح؟

قال: الذي هو من هموم الدنيا مستريح.

قيل: وما القوت؟ قال: ذكر حيٍّ لا يموت.

قيل: وما صدق الإرادة؟ قال: ترك ما عليه العادة.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

قيل: وما الشوق؟ قال: ملاحظة ما فوق.

قيل: متى يتم أمر العبد؟ قال: إذا سكن مع الله بِلَا هَمٍّ.

قيل: وما علامة المريد؟ قال: أن لا يشتغل بالعبيد.

قيل: وما رأس الهدى؟ قال: صدق التقى.

قيل: وما اللذة؟ قال: الموافقة.

قيل: ومَنِ الغريب؟ قال: الذي ليس له من حبه نصيب.

قيل: ومتى يبلغ العبد إلى ولاية مولاه؟ قال: إذا عزل عن قلبه كل من سواه.

قيل: وما الراحة الكبرى؟ قال: التسليم للمولى.

قيل: وما أفضل الأعمال؟ قال: ذكر الله على كل حال.

قيل: وما الفاقة[١] العظمى؟ قال: دوام الأنس بالمولى[٢].

قيل: وما حجاب القلوب؟

قال: الاستكفاء بالمربوب.

قيل: وما العيش الجميل؟ قال: العيش مع الجليل.

قيل: وما حقيقة الوفاء؟ قال: الصدق والصفاء.

قيل: ومَنِ المحبُّون؟ قال: العارفون،

قيل: ومَنِ العزيز؟ قال: من تعزَّز بالعزيز.

قيل: ومَنِ الشريف؟ قال: من آنس باللطيف.

قيل: ومن الغُمْرُ؟ قال: من ضيع العمر.

---

(١) الفقر والحاجة.

(٢) أي: لأن الإنسان مفتقر إلى الأنس بربه، وله بذلك حاجة ماسَّة.

قيل: ما الدنيا؟ قال: ما شغلك عن المولى!

[المعادن المفيدة]:

نعم معدن المعرفة: القلب، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾(١).

ومعدن المشاهدة: الفؤاد، لقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾(٢).

ومعدن النور: الصدر، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾(٣).

وما ازداد حبّاً لله تعالى، إلاّ ازداد حباً لرسوله ﷺ، ولأوليائه.

---

(١) الحج: ٣٢.

(٢) النجم: ١١.

(٣) الزمر: ٢٢.

الحديث الثالث عشر

[المرء مع من يُحب]:

أخبرنا الشيخ الجليل، الوليُّ الأصيل، فرد الوقت: أبو المكارم، الباز الأشهب، خالي وسيدي منصور، الرباني، الأنصاري، البطايحي، رضي الله عنه، برواقه في نهر دقلى، قال: حدثنا أبو طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاني، قال: أنبأنا أبو عمرو عثمان بن محمد العلاف، قال: أنبأنا أبو بكر أحمد بن سليمان ـ إملاء ـ قال: قرأ عليَّ يحيىٰ بن جعفر ابن أبي طالب، وأنا أسمع، قال: حدثنا محمد بن عبيد بن الأعمش، عن شقيق، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرَّجلُ يحبُّ القومَ ولا يلحقُ بهمْ. قالَ: «المرءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما؛ عن أنس، وابن مسعود رضي الله عنهما.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «لا تغتر يا ابن آدم! بقوْل من يقول: أنت مع من أحببت، فإنه من أحب قوماً: اتَّبَعَ آثارهم، واعلم أنك لن تلحق بالأخيار حتى تتبع آثارهم، وحتى تأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتمسي على =

هـذا الحديث الشـريف، ملزم بمحبـة العـارفين، مبشـر بالإلحاق بهم، إذا صحت المحبة؛ وهل الدينُ إلاَّ الحبُّ في الله، والبغض في الله؟ وإنَّ مـن سر الحب الخالص: أن يُرفع العارفُ إلى مقام السر والنجوى، في المحاضرة عند سواه.

[حدُّ الفقر والغنى]:

أي بني! اعلم أن العارف بأسرار المريدين، المتطلع على همم العارفين، كلَّف العبادَ وفاء صدق العبودية، ثم بيَّن لهم تحقيق شرائطها، كيلا يتجاوزوا حدَّ العبودية، إلى حد الربوبية؛ وحدَّ الفقر، إلى حدِّ الغنىٰ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾[1].

وجعل لكل شيء سبباً، فجعل سبب المخرج من عبودية المخلوقين: القيام بصدق العبودية، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ من عبودية من سواه، ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ المؤانسة، والمحبة، والشوق إليه ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

= منهاجهم حرصاً على أن تكون منهم».

قال الشاعر وهو يعاتب أهل الادّعاء:

تَعْصِي الإِلَـهَ وَأَنْتَ تُـظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هـٰذَا لَعَمْـرِي فِي القِيَاسِ بَـدِيعُ
لَـوْ كَـانَ حُبُّـكَ صَـادِقـاً لَأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَـنْ يُحِبُّ مُطِيـعُ

ومن أهل الادّعاء: اليهود والنصارى، فهل تغنيهم الدعوى وهم كاذبون؟! قال الله تعالى حاكياً عنهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(١) فاطر: ١٥.

(٢) الطلاق: ٢ ـ ٣.

ومعنى آخر: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بحفظ السر عن آفات الالتفات إلى ما سواه: ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ من حجب الإبعاد ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ المشاهدة والوصلة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وكذلك جعل سببَ معرفة العبد ربه: معرفة العبد نفسه، بشاهد: مَنْ عرف نفسه، أي: بالعبودية، عرف ربه: بالربوبية؛ ومن عرف نفسه بالفناء، عرف ربه بالبقاء؛ ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ، عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه بالافتقار، قام للَّهِ على قدم الاضطرار؛ ومن عرف نفسه لمولاه، قَلَّتْ حوائجه إلى من سواه.

[الكفاية بالله]:

روي أن النبي ﷺ قال: «من عرف الله، قام بحقه».

أي: من عرف الله بالهداية، سلَّمَ نفسَه إليه؛ ومن عرف الله بالربوبية، قام له بأشراط العبودية؛ ومن عرف الله بالجزاء، أوقع نفسه في العناء؛ ومن عرف الله بالكفاية، اكتفى به عن كل ما سواه.

روي أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه السلام: «ألا من عرفني أرادني وطلبني، ومن طلبني وجدني، ومن وجدني لم يختر عليَّ حبيباً سواي».

[من أحب الله أطاعه]:

قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله: من عرف الله أحبه،

ومن أحبه أطاعه، ومن أطاعه قطع عن قلبه كل ما دونه؛

ومن حُرِمَ المعرفة، حرم حلاوة الطاعة، ومن حرم حلاوة الطاعة، حرم المؤانسة في الخلوة، فلا يجد في المعاملة رؤية المِنَّة، ولا يعرف قدر الله على الحقيقة، ويُغلب في الأحوال، فيسقط عن استقامة السر مع الحق.

[من عرف الله، عرف. . .]:

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله:

من عرف الله، وفي قلبه هم سوى الله، لم يسجد سجدة خالصة لله.

ومن عرف الله، ولم يستغن بالله، فلا أغناه الله.

ومن قال: الله، وفي قلبه شيء سوى الله، فلم يقل: الله.

نعم، من خاف الله في كل شيء، آمنه الله من كل شيء؛

ومن أنس بمولاه، استوحش عن كل ما سواه؛

ومن اعتز بذي العز، عَزَّ؛

ومن اعتز بغيره، فلا فخر له ولا عِزَّ؛

ومن انقطع عن الأسباب الشاغلة عن اللّٰه، اتَّصل بالأسباب الشاغلة باللّٰه؛

ومن ترك عروة العلاقات، صار مستأنساً به في جميع الأوقات؛

ومن ذاق حلاوة ذكر مولاه، يجد الملالة عن ذكر ما سواه؛

ومن كتم أسرار القلوب، ظهرت له أسرار الغيوب؛

ومن جعل الهموم همَّاً واحداً، كفاه الله الهموم؛

ومن طلب رضاء مولاه، لا يبالي بِسُخْطِ ما سواه؛
ومن اكتفى بمقامه، حُجب عن أمامه؛
ومن كان لله قريباً، كان مع غيره غريباً؛
ومن أراد عزَّ الدارين، فلينقطع إلى من له ملك الدارين؛
ومن ترك حسن الرعاية، زلَّ عن سبيل الهداية؛
ومن أراد أن يشرب من محبة الله شربة، فليشرب من بغض غير الله جرعة؛

ومن استأنس بكل شيء، استوحش من كل شيء؛
ومن سكن قلبه إلى شيء، فليس من الله في شيء.

قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ غَيْرُ ٱللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ»(١).

[الذين يريدون الله]:

قال الله تعالى في بعض الكتب: من أرادنا أردناه، ومن أراد منا أعطيناه ،ومن أحبنا أحببناه، ومن اكتفى بنا عمَّا لنا، كنَّا له وما لنا، ألا من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني.

قيل: أَلَا مَنْ طلبني بالتوبة، وجدني بالمغفرة؛ ومن طلبني بشكر النعمة، وجدني بالزيادة؛ ومن طلبني بالدعاء، وجدني بالإجابة؛ ومن طلبني بالتوكل، وجدني بالكفاية؛ ومن طلبني

---

(١) رواه الحاكم،عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.وفي سنده راوٍ قد كذَّبه: ابن المديني، والدارقطني. (فيض القدير: ٦/٦٧).

بالقربة، وجدني بالمؤانسة؛ ومن طلبني بالمحبة، وجدني بالوصلة؛ ومن طلبني بالاشتياق، وجدني باللقاء والرؤية.

وقال بعضهم: من كان لله، كان الله له؛ أي: من كان في أمر الله، كان الله في أمره؛ ومن كان في ذكر الله، كان الله في ذكره؛ ومن كان في حبِّ الله، كان الله في حبِّه؛ ومن كان في مرضاة الله، يكن الله في مرضاته: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١).

قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ؛ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»(٢).

[قال العارفون]:

ومن حكم العارفين قول قائلهم: من ابتلي بمعاملة العبيد، فليلبس لهم لباساً من حديد؛

ومن رضي من الدنيا باليسير، فقد استراح من شغل كثير؛
ومن أصبح على الدنيا حريصاً، أصبح من الله بعيداً؛
ومن هتك ستر التُّقىٰ، لم تستره السموات العلى؛
ومن نظر في عواقب الأمور، سلم من نوائب الدهور؛
ومن لم يقنع بالقليل، وقع في غمٍّ طويل؛
ومن سلَّ سيف التقى، ضرب به عنق الردى؛

---

(١) آل عمران: ١٠١.
(٢) متفق عليه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ومن كان مسروراً، لم يزل مغروراً؛
ومن لم يحفظ لسانه، فسد عليه شأنه؛
ومن لم يعرف موضع ضره، لم يعرف موضع نفعه؛
ومن أعرض عن صحبة الفجار، عوَّضه الله صحبة الأبرار؛
ومن أخذ عزاً بغير حق، أورثه الله ذُلًّا بحق؛
ومن ضيَّع أيام حرثه، ندم أيام حصاده؛
ومن توكل على غير الله، يعذبه الله به؛
ومن رضي بالله وكيلًا، صار له بكل خير دليلًا، ووجد إلى كل خير سبيلًا؛

ومَنْ عرف حلاوة النجوى، لا يجد مرارة البلوى:
﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾(١).

[من كلمات الأخيار]:

وقيل: ثلاث كلمات كان الأخيار من المتقدمين، يوصي بعضهم بعضاً في كتبهم بهن:

١ ـ من عمل لآخرته، كفاه الله أمر دنياه؛
٢ ـ ومن أصلح سريرته، أصلح الله علانيته؛
٣ ـ ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس.

---

(١) الإسراء: ٧٢.

شعر:

إِذَا السِّرُّ وَالإِعْلانُ فِي الْمُؤْمِنِ اسْتَوَىٰ
رَأَىٰ الْعِزَّ فِي الدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الثَّنَا
وَإِنْ خَالَفَ الإِعْلانُ سِرّاً فَمَا لَهُ
عَلَىٰ فِعْلِهِ فَضْلٌ سِوَىٰ الْكَدِّ وَالْعَنَا

آخر:

مَنْ اعْتَزَّ بِالْمَوْلَىٰ فَذَاكَ جَلِيلُ
وَمَنْ رَامَ عِزّاً مِنْ سِوَاهُ ذَلِيلُ
فَلَوْ أَنَّ نَفْساً مَنْ بَرَاهَا مَلِيكُهَا
قَضَتْ وَطَراً فِي سَجْدَةٍ لَقَلِيلُ

* * *

الحديث الرابع عشر

[النية الصالحة]:

أخبرنا شيخنا الشيخ: أبو الفضل علي ـ المقري القرشي ـ الواسطي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا يحيى بن مزرعة، قال: حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن علقمة بن وقاص، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ:

«العَمَلُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِىءٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[١].

---

(١) متفق عليه، أخرجه الستة، وغيرهم.

ومن هذا الطريق روى هذا الحديث سيدنا عمر الفاروق الجليل، رضي الله عنه، بنصِّ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

قلوب العارفين، إلى حضرة قدس رب العالمين:

خُذْ طَارِفَ السَّيْرِ بِلَا عَائِقٍ لِلَّهِ لَا تَقْصِدْ سِوَىٰ اللَّهِ
فَكُلُّ مَا أَمَّلْتَهُ قَائِمٌ بِهِجْرَةِ الْقَلْبِ إِلَىٰ اللَّهِ

أي بني! أهل الحجاب، يتعجبون من كلام أولي الألباب، وربما ينتهي التعجب بهم إلى طرف من الإنكار، لقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾[1] أي: تنكرون، كفعلهم.

[لوحٌ . . وكنز]:

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان تحت الجدار الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾[2]: لوح من ذهب، والذهب مكتوب فيه: «بسمِ الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف يحزن؟! وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟! وعجبت

---

(١) النجم: ٥٩.
(٢) الكهف: ٨٢.

لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يطمئن إليها؟! لا إله إلاَّ اللَّهُ، محمدٌ رسول الله»[١].

[عجباً للخليقة!]:

قال وَهْبُ رحمه الله[٢]: بينما كنت أسير في أرض الروم، إذ سمعت صوتاً من شاهق الجبل يقول:

إلهي! عجبت لمن عرفك، كيف يتعرض لسخطك برضاء غيرك؟ إلهي! عجبت لمن عرفك، كيف يرجو غيرك؟ فاتَّبعت الصوت، فإذا أنا بشيخ ساجد، يقول:

سبحانك، سبحانك، عجباً للخليقة! كيف يريدون بك بدلاً؟!

---

(١) ذكر الإمام القرطبي في تفسيره: (٣٨/١١): عند قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: اختلف الناس في الكنز، فقال عكرمة وقتادة: كان مالاً جسيماً، وهو الظاهر من اسم الكنز، إذ هو في اللغة: المال المجموع.
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان علماً في صحف مدفونة.
وعنه ـ أيضاً ـ رضي الله عنه قال: كان لوحاً من ذهب، مكتوباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! عجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب! عجبتُ لمن يؤمن بالموت كيف يفرح! عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل! عجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يطمئن لها! لا إله إلاَّ الله، محمد رسول الله».
وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة، ورواه عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ.

(٢) هو: وهب بن مُنَبِّه الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله: مؤرخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة، يُعد في التابعين، ولد سنة: [٣٤] للهجرة في صنعاء وتولى قضاءها للخليفة العادل: عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.
توفي في صنعاء سنة: [١١٤] للهجرة، رحمه الله تعالى.

سبحانك، عجباً كيف يشتغلون بخدمة غيرك؟!
سبحانك، عجباً للخليقة! كيف يشتاقون إلى غيرك؟!
سبحانك، سبحانك، كيف يتلذذون بغيرك، وبشيء دونك؟! فمضيتُ، وما أشغَلْتُه عمّا رأيت.

[إليَّ، إليَّ]:

قال أبو يزيد رحمه الله[١]: عجبت لأهل الجنة، كيف يتلذذون بدونه؟! أم كيف يستأنسون بغيره؟! وعجبت ممن يسكن إلى حال، دون وليِّ الأحوال؟! والعجب لمن أقبل إلى الخلق، والحقُّ يقول: إليَّ، إليَّ.

[عجباً ممن لا يرىٰ عيوبه!]:

قال أبو عبد الله بن مقاتل رحمه الله: عجبت لابن آدم، اختاره الله لنفسه، مع غناه عنه، وهو يعرض عنه، مع فقره إليه!
وعجبت لمن يشغل نفسه بشيء، وهو يعلم أنه قد فُرِغ منه!
وعجبت ممن يأمر غيره بما لا يفعله، ويغضب على غيره بما يفعله؛
وممن يكره أن يُعصىٰ وهو عاص!
وممن يحب أن يطاع، وهو غير مطيع لربه!
وممن يلوم غيره على الظن، ولا يذم نفسه على اليقين!!

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].

قال حاتم الأصم رحمه الله[١]:

عجبت ممن يستحي من الخلق، كيف لا يستحي من الخالق؟!

ولمن يطلب رضاء المربوبين، كيف لا يطلب رضاء الرب؟!

ولمن يحب أهل الطاعة، وهو مقبل على المعصية؟!

ولمن يعرف جلال الله، كيف يُعرض عنه؟!

ولمن يأكل رزق ربه، كيف يشكر غيره؟!

ولمن يشتري المملوك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه وطيب كلامه؟!.

وقال خُنيس بن عبد الله رحمه الله تعالى: عجبت من رجل ليله قائم، ونهاره صائم، ويجتنب المحارم، ولا تلقاه إلا باكياً حزيناً!

ورجل، ليله نائم، ونهاره لاعب، ويرتكب المحارم، ولا تلقاه أبداً إلاّ ضاحكاً مستبشراً![٢].

---

(١) هو: حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن المعروف بالأصمّ: زاهد، اشتهر بالورع والتقشف، له كلام مدّون في الزهد والحكم. من أهل بلخ، زار بغداد واجتمع بالامام أحمد بن حنبل. وشهد بعض معارك الفتوح، توفي بواشجرد سنة: [٢٣٧] هجرية، رحمه الله تعالى.

(٢) يحق لهذا العالم البصير أن يتعجب! لأن الذي يقوم الليل، ويصوم النهار، ويجتنب المحرمات، وهو باكٍ، هذا دليل على أنه من المقبولين عند الله سبحانه.

- أما الأغرار، أما الفجار، الذين لا يعرفون لله حرمة، ولا لشرعه كرامة، ولا لعبيده صيانة؛ أعرضوا عن ربهم بكليتهم! فلا صلاة عندهم ولا صيام، ولا زكاة ولا حجّ، ولا أمراً بالمعروف، ولا نهياً عن منكر؛ =

١٢٨.

[التذلل للعبيد نقص في الدين]:

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله(١):

عجبتُ ممن يتذلل للعبيد، وهو يجد من سيده ما يريد!

وعجبت لمن كان قوته رغيفاً، يعصي رباً لطيفاً!

وعجبت لمن يخاف على موت نفسه، ولا يخاف على موت قلبه، ولمن يخاف على فوات دنياه، كيف لا يخاف على فوات دينه؟!

قال قائلهم: إلٓهي!

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي ... أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي
أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ... ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي

= تراهم يأكلون من نعم الله ولا يشكرونه! وينصَبون في الدنيا ليجمعوا من حطامها الفاني الشيءَ القليل! ثم هم بعد ذلك: يضحكون ولا يبكون، وكأنهم أمنوا مكر الله، أو اجتازوا الصراط، ونجوا من النار، وحملوا معهم وثيقة تدخلهم الجنة، دار الخلد!!

الا فليعتبر من هذه صفته، بأن الله أعد للكافرين والمنافقين: ناراً يُخلَّدون فيها وبئس القرار.

فيا أيها المقصرون! توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا، وَصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم: بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السرِّ والعلانية: تُرزقوا، وتُجبروا، وتُنصروا.

جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ووفقنا جميعاً لأن نكون من أهل خشيته، ومن أهل التفكر والاعتبار، في ذكر الجنة والنار، إنه سميع قريب، مجيب غفار، والحمد لله على كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار.

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤] .

[وصال . . وفراق]:

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: إلَهي! ذِكْرُ الجنة موت، وذكر النار موت، فيا عجباً لنفس تحيا بين موتين! أما الجنة فلا صبر عنها، وأما النار فلا صبر عليها.

وقيل: ذكر الوصال: موت، وذكر الفراق: موت، كيف يحيا قلب بين موتين؟ موت العارف عجيب، لأن العارف بين سرور المعرفة، وخوف الفرقة، فكيف الموت مع سرور المعرفة؟ أم كيف الحياة مع خوف الفرقة؟!

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ رَبِّي ... وَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرُ مَنْ نَسِيتُ
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا ... وَلَوْلَا مَاءُ وَصْلِكَ مَا حَيِيتُ
فَأَحْيَا بِالْمُنَىٰ وَأَمُوتُ شَوْقاً ... فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَمَا رَوِيتُ

يا عجباً!

تَغَرَّبَ أَمْرِي عِنْدَ كُلِّ غَرِيبِ ... فَصِرْتُ عَجِيباً عِنْدَ كُلِّ عَجِيبِ

* * *

الحديث الخامس عشر

[وصية الرسول ﷺ]:

أخبرنا القاضي الإمام المقري الشيخ: علي أبو الفضل القرشي الواسطي ـ بداره بواسط ـ قال: أنبأنا أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري، قال: أنبأنا أبو يعقوب، قال: أنبأنا زاهد بن أحمد، قال، أنبأنا محمد بن إبراهيم بن نيروز، قال: حدثنا المطلب بن شعيب، بن عبد الله بن صالح، قال: حدثنا الهقل بن زياد، عن بكر بن خنيس، قال: حدثني عاصم بن عبد الله النخعي، عن أبي هارون العبدي، قال: كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري، قال: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ. إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إِنَّ ٱلنَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ، وَإِنَّهُمْ سَيَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي ٱلدِّينِ، فَإِذَا جَاؤُوكُمْ فَٱسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً»(١).

---

(١) رواه هكذا ابن ماجه برقم: [٢٤٩] باب الوصاة بطلبة العلم.

وفي رواية للطيالسي والديلمي (كما في الجامع الصغير) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ ٱلْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَباً بِوَصِيَّةِ رَسُولِ ٱللَّهِ ـ ﷺ ـ وَأَقْنُوهُمْ».

هذا الحديث الشريف، يجذب العارف إلى طلب حديث المصطفى ﷺ وسُنَّته، ليكون محل نظره النبوي، في بحبوحة التوصية السارية في عوالم الله تعالى؛ وهل لباب المعرفة بالله، إلا الأخذ بحديث رسول الله ﷺ، والعمل بسنته السنية؟ وهذا القامع للنفس.

[دناءات نفسية!]:

أي بني! اعلم أن معرفة النفس، أحد أصول العبودية، وقلَّ من يعرفها، وعز وجود من يتمنى عرفانها، وما خلق الله تعالى في الدارين سجناً أضيق على العارف، ولا أوحش ولا أنتن من النفس،

فمن عرفها على التحقيق، وخالف أمرها، فكل أرض له ثغر وطرسوس؛

ومن غفل عن معرفتها، فهو على خطر عظيم، ولا يسلم من شرها، فإن من لا يعرفها، كيف يقوم بمخالفتها؟![1].

قال أحمد بن حرب رحمه الله تعالى: إني لأشتهي أن أموت ولو ساعة، حتى أعرف نفسي وأخالفها.

قال محمد بن الفضل رحمه الله تعالى: من عرف نفسه لا يتنفس نَفَساً إلاَّ بدوام جهدها، وكثرة عبادتها؛ ولا يغتر بصفاوة أوقاتها، وحسن أحوالها، ولطائف أنفاسها، وصدق معاملتها؛ لما علم من غوامض آفاتها ومكرها، وسوء طبعها، وكمال شرها.

---

(١) أرشدنا الله تعالى، إلى أن مخالفة هوى النفس: يُدخل الجنة، فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. اللهم إنّا نعوذ بك من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.

وإني تفكرت في جميع عمري، ونظرت في شأن نفسي، فما رضيت في عمري من نفسي طرفة عين!

[الهوىٰ والغرور]:

قال الأنطاكي رحمه الله: من لم يعرف نفسه فهو مغرور.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله[١]: خالطت الناس سبعين سنة، فما وجدت رجلاً إلاَّ وهو راكب هواه، حتى أنه إن أخطأ أحب أن يُخطىء الناس كلهم؛ ولئن يُضرب ظهري بالسياط، أحب إليَّ من أن يقال: أخطأ فلان المسلم.

وقال إبراهيم التميمي رحمه الله تعالى: ما عرضت قولي على عملي، إلاَّ وجدتُه مكذوباً.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كثيراً ما يقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

قال ذو النون رحمه الله تعالى[٢]: من نظر بعين المعرفة إلى سلطان ربه، فني عنه سلطان نفسه، ومن نظر إلى عظمة ربه، صغرت عنده عظمة نفسه، وقُهرت تحت جلال هيبته.

وقيل لمالك بن دينار، حين ماتت زوجته أم يحيى: لو تزوجت يا أبا يحيى!

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٢].

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

قال: لو استطعت لطلقت نفسي! ولو أن منادياً ينادي بباب المسجد: ليخرج شَرُّكم رجلاً، فوالله ماسبقني أحد إلى الباب، إلا رجل له فضل قوة في السعي!

[يعترفون!]:

وقال أبو يزيد رحمه الله تعالى[١] قلت: يارب! كيف الوصول إليك؟
قال: يا أبا يزيد! دع نفسك وتعال.
لقي حكيمٌ حكيماً فقال: يا أخي! إني لأحبك في الله.
فقال: يا أخي! والله لو علمتَ مني ما أعلم من نفسي، لبغضتني الحالة.

وكان بكر بن عبد الله المزني، ومطرف بن عبد الله، بالموقف[٢]؛
فقال مطرف: اللهم لا تردَّهُمْ لأجلي!

وقال بكر: ما أشرف هذه المواضع وأرجاها، لولا أنا فيهم! اللهم لا تحبس المغفرة بشؤمي، ولا تردهم لأجلي!

وقال موسى بن القاسم رحمه الله تعالى: وقع عندنا زلزلة وريح حمراء، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل، فقلت: يا أبا عبد الله! أدع الله لنا، فأنت إمامنا.

فقال: ليتني لا أكون سبب هلاككم.
فقال موسى بن القاسم: رأيت النبي ﷺ تلك الليلة في المنام،

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].
(٢) يعني: في عرفات.

فقال: إن الله تعالى دفع عنكم، بدعاء ابن مقاتل.

وكان عطاءٌ السُلمي رحمه الله تعالى يبكي كلما هبت ريح شديدة، ويقول: هذه من أجلي، يصيب بها الخلائق، لو مات عطاء لاستراح الخلائق من بلائه!

وكثيراً ما كان ينوح على نفسه، ويقول: يا عطاء! لعلك أول مسحوب إلى النار، وأنت غافل!

وكان الفضيل رحمه الله تعالى واقفاً بعرفات، فنظر إلى جميع الناس، وقال: يا له من موقف ما أشرفه، لولا أنا فيهم! ثم بكى، ورفع رأسه، وأخذ لحيته وقبض عليها، وقال: يا سوأتاه على ما كان من نفسي؟ فإنها مغرورة، وبالثناء مسرورة، وإن من غاية بلاء النفس، أن لو مات نصفها، لم يصلح النصف الآخر.

[حوار مع النفس]:

وحكي أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله تعالى[١] قال: نظرت في حال عبادتي فرأيتها مختلطة، ثم نظرت إلى نفسي وتركيبها، فإذا هي منسوبة إلى كل بلاء، ورأيتها لا تخلو من الشرك، وعلمت أن الله تعالى لا يقبل الشرك.

فقلت لها: يا مأوى كل شر! إلى كم يدعوك الله إلى توحيده، ولا

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].

تنظرين إليه! فاشتد على قلبي غم هذا الإشراك، فعمدت وأعدت لها كانون الصياغة، ثم سعرت فيه نار الحق، ووضعت فيه كير الليسية، ونصبت سَنْدَانَ الوحدانية، وضربتها بمطرقة الأمر والنهي، وطال بِيَ العناء، فلما نظرت إليها وجدتها مشركة!

فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنها لا تنظف بالجفاء، فلعلها تنظف بالرفق، واللين، والمداراة؛

فرددتها إلى بستان ذكر المِنَّة، ووضعت بين يديها رياحين رؤية اللطف والكرامات، وتروَّحت بمراوح التحنن والبر والإحسان، وطال مني العناء، فلما فتشتها وجدتها مشركة!

فقلت لها: يا مأوى كل شر وبلاء! لا تصلحي بالجفاء ولا بالرفق؟ ثم رددتها إلى قصار الأحذية، ليضربها على حجر الفردانية، ويغسلَها بماء صفوة الصمدانية، فلم يزل يضربها رجاء أن تنظف من الإشراك؛ وطال مني العناء، فلما نظرت إليها فإذا هي مشركة!

فقلت: إنا للّه، لعل صلاحها من وجه آخر، ثم أنزلتها بمنزلة امرأة مستحاضة، فلم أزل أنظر إليها كالمتحير المضطر، وأنظر إلى بلائها، حتى أيست منها، وعلمت أن لا يتأتى مرادي منها، فطلقتها ثلاث تطليقات، وتركتها، وصرت وحدي إلى ربي، وناديته: يا عزيزي! أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك، بالعتق من عبودية ما سواك.

فلما علم الله تعالى صدق الدعاء مني، واليأس من نفسي، كان أول إجابة الدعاء، أن أنساني نفسي بالكلية.

[اتَّهِمْ نفسك]:

قال أبو سليمان رحمه الله تعالى[١]: لو أن الخلق اجتمعوا على أن يضعوني، كإيضاعي عند نفسي، لم يقدروا على ذلك؛

طوبى لعبد أطلعه الله على شر النفس، وعرف أصل خلقتها، وأنواع عوارضها، ومقتِها ومألفِها وقهرِها؛ وحقَّرها، واتهمها، ووضعها.

(١) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، العنسي، المذحجي، أبو سليمان: زاهد مشهور من أهل داريًا ـ قرية بقرب دمشق ـ رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام وتوفي في بلده سنة: [٢١٥] هجرية، رحمه الله تعالى.

الحديث السادس عشر

[الاقتداء بالصحابة]:

أخبرنا سيدنا فرد الوقت، أبو المكارم الباز الأشهب الشيخ: منصور، الرباني البطايحي الأنصاري رضي الله عنه، برواقه في بلدة نهر دقْلى من واسط، قال: أنبأنا أبو عبد الله مالك بن أحمد، بن علي الفرا ـ قراءة عليه ـ قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد، بن موسى بن الصلت، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، قال: حدثنا عبيد بن أسباط، عن أبيٍّ بن سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إقْتَدُوا بِالَّذِينِ مِنْ بَعْدِي من أصحابي: أبي بَكْرٍ، وَعُمَرَ؛ وَٱهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ٱبْنِ مَسْعودٍ»[1].

فقد أمر عليه الصلاة والسلام، بتصحيح القدوة بالشيخين

---

(١) رواه الترمذي عن حذيفة، وابن عدي في الكامل عن أنس، والحاكم عن ابن مسعود، رضي الله عنهم.

العظيمين، سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر الفاروق، رضي الله عنهما، وبالتحقق بالاهتداء بهدي عمار رضي الله عنه، فإنه مات على حبٍّ الصهر العظيم، الصنو الكريم، سيدنا علي، رضي الله عنه؛

وأكد لزوم التمسك بالعهد، كما كان محافظاً عليه ابن أم عبد، رضي الله عنه(١).

وفي هذا حكمة الجمع بين حب الصحب والآل؛ سر يدركه العارفون الموفَّقُون؛ وقد جعل صحة المتابعة له باتباع الشيخين رضي الله عنهما، وحقيقة الاهتداء بهديه بموالاة الأمير رضي الله عنه، وجمع بين النكتتين بلزوم التمسك بالعهد؛

ومتى اقتدى العبد اهتدى، ومتى اهتدى تمسك بعهد الله، وهناك وقد عرف، وهل المعرفة بالله تعالى إلَّا هذا؟ فإن من اهتدى بهدي محمد ﷺ، واقتدى به، وتمسك بعهده، أقبل على الله، وأعرض عن غيره.

[كيف يصل العبد إلى الله؟]:

جاء في الخبر، أن الله تعالى قال:

«يا دنيا! آخدمي من خدمني، واستخدمي من خدمك».

وليس من معالي الهمة: الاشتغال بما فيه حظ النفس.

وفي نعت النبي ﷺ بعلو همته الشريفة: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٢).

---

(١) يعني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) النجم: ١٧.

ولا يصل العبد إلى الله تعالى ،حتى يقطع مفاوز الدنيا وما فيها، من زهراتها ولذاتها، وراحاتها وشهواتها، ويجاوز أودية الخلق، وما منهم، من جميل معاشرتهم وثنائهم ومحمدتهم؛

وإن الله تعالى خلق جميع ذلك، ابتلاء لكل من أراد أن يصير مجرداً، حتى إن التفت إلى شيء منها صار مفتضحاً في دعواه، وغرق في أودية الحسبان والخسران، فكم مستدرج بالنعم، محجوب عن الخالق، غافل عن الصدق، جاهل بعرفان النفس، يصبح ويمسي على الحسبان؛ فيبدو له من ذي العرش: ما لم يكن يحتسب.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[١].

[زهد عجيب]:

وإن من معالي الهمة، ما قيل لأبي عبد الله: لو أعطاك الله تعالى الدنيا بجميع ما فيها، ماذا تفعل بها؟

فقال: لو أمكنني أن أجعلها لقمة، وأضعها في فم كافر لفعلت!

قيل: ولم؟ قال: لأن الله تعالى يبغض الكافر والدنيا جميعاً، فأفعل ذلك، ليقع البغيض إلى البغيض.

ثم حكي من صدق ما ادّعاه، أن سلطان هراة[٢] بعث إليه

---

(١) الزمر: ٤٧.

(٢) قال ياقوت الحموي رحمه الله تعالى في «معجم البلدان»: (٥/٣٩٦) هَرَاةُ: مدينة عظيمة مشهورة، من أمهات مدن خراسان.

سبعة أوقار من الحنطة ، وكان الشيخ يومئذ بهراة مع أصحابه ، فأطعم الخادم منها أولياءه ،

فقال له أبو عبد الله : أطعم الباقي فقراء العامة ، فقال: لا يمكن ، الأبواب مغلقة.

فقال: اذهب به إلى المجوس الذين هم في جوارنا!

قال الخادم : فخشيت عقوبة الله تعالى في ترك أمره، فأعطيته المجوس، فجاؤوا بكرة إليه وقالوا : ما الحكمة في إعطائك إيَّانا ونحن مخالفوك؟!

فقال: الدنيا عدوة الله، والكافر عدو الله، ولا يقرب الحبيب من الحبيب، حتى يبعد من عدوه.

قال: فأسلموا جميعاً على يديه.

[لا يريد غير الله]:

وحكي أن بعض المريدين كان يمشي في البادية، فحدثته نفسه ببعض حاجتها، فإذا هو على شط بئر، فرمى رَكوته في البئر ليستقي الماء، فخرجت له الرَّكوة مملوءة من الذهب! فرمى بها في البئر، وقال: يا عزيزي! لا أريد غيرك.

قال عمار القرشي رحمه الله تعالى : كنت في البادية ،فأردت التلبية وكنتُ حاجًا، فأخذت منديل شيخ لي ، فقددته نصفين، واتَّزرت بنصفه، وارتديت بالآخر، فلم تزل نفسي تنازعني ببعض الحاجة، فإذا البادية كلها فضة، فمضيت وقلت: إلّهي إني أعوذ بك من كل إرادة سواك.

قال عيسى عليه الصلاة والسلام:

«طوبى لرجل ذكر الله، ولم يذكر إلاَّ الله، وطوبى لرجل خشي الله، ولم يخش إلاَّ الله، وطوبى لعبد سأل الله، ولم يسأل إلاَّ الله».

[لا تعُدْ.. فتقع!]:

وحكي أن الإمام ابن الإمام، سيدنا زين العابدين، علي(١) بن الحسين، رضي الله عنهما قال: كنت عند أبي عبد الله(٢) الحسين عليه السلام، أقرأ في بعض الكتب، وكان في يده سكين، فرأيت حرفاً خطأً، فقلت: ناولني السكين لأصلح هذا الحرف؛ فناولني، فلما قضيت الحاجة رددته عليه، فقال لي: يا عليّ! لا تعد إلى هذه مرة أخرى، فتقع إلى ذُلِّ السؤال، وخساسة الهِمَّة!

وروي أن النبي ﷺ قال ذات يوم لثوبان رضي الله عنه: «يَا ثَوْبَانَ! لاَ

(١) هو: الإمام السيد عليّ بن الحسين بن علي - رضي الله عنهم - ابن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو الحسن، الملقب بـ «زين العابدين» ولد رضي الله عنه في المدينة المنورة سنة: [٣٨] هـ، وكان مضرب المثل: في الحلم، والورع؛

ويقال له: «عليّ الأصغر» للتمييز بينه وبين أخيه «علي الأكبر».

كان رضي الله عنه من الكرماء، الذين يتصدقون سراً، أحصي بعد موته عدد من كان يقوتهم سراً، فكانوا نحو مائة بيت!

قال بعض أهل المدينة المنورة: ما فقدنا صدقة السرِّ إلاَّ بعد موت زين العابدين.

وقال محمد بن إسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين معايشهم ومآكلهم، فلما مات «علي بن الحسين» فقدوا ما كانوا يُؤتَوْن به ليلاً إلى منازلهم.

وليس لسيدنا «الحسين» السبط عقبٌ إلاَّ منه. وتوفي في المدينة المنورة سنة [٩٤] للهجرة. رضي الله تعالى عنه، وعن جميع الآل والصحب.

(٢) في الجملة خلل، ربما يكون قد سقط منها كلمة: [والدي] فلو وضعناها بعد [عند] لتم بها المعنى؛ لأن كلمة: [أبي عبد الله] هي كنية سيدنا الحسين - رضي الله عنه - وليست اسمه.

تَسْأَلْ النَّاسَ»[١]. فكان ثوبان ربما يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد ناولني إياه، حتى ينزل ويرفعه.

[كَرَمُ نفْس]:

وسأل رجل من سفيان ـ رحمه الله ـ كِسرةً، فأعطاه ديناراً! فقيل له في ذلك، فقال: إن كان لا يعرف هو قَدْرَ نفسه، فلا أدع كرم نفسي، وإن كان هذا ترك الهمة، فأنا لا أدع الجود.

همم العارفين متصلة بمحبة الرحمن، وقلوبهم ناظرة إلى مواضع العز من العزيز، لا راحة لهم في دار الدنيا، دون الخروج منها.

وكان كثيراً ما يُرىٰ حبيب العجمي رضي الله عنه، يوم التروية بالبصرة، ويوم عرفة بعرفات، فقيل له في ذلك. فقال: هو أقل ما أطار إليه الهمة أهل الهمة.

[إلّهي . . إلّهي!]:

ودخل علي ـ كرم الله وجهه ـ مسجدَ رسول الله ﷺ،

---

(١) روىٰ بنحوه الامام أحمد في مسنده، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئاً، وَلَا سَوْطَكَ وَإِنْ سَقَطَ مِنْكَ، حَتَّىٰ تَنْزِلَ إِلَيْهِ فَتَأْخُذَهُ».
ورمز الحافظ السيوطي: لحُسْنِهِ.
يرشدنا عليه الصلاة والسلام، إلى أن نكون من أهل التوكل والتفويض إليه سبحانه وتعالى.
قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: احتاجت رابعة، فقيل لها: لو أرسلت إلى قريبك فلاناً! فبكت وقالت: الله أعلم أني أستحي أن أطلب منه الدنيا وهو يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟!
اللهم وفقنا لما يرضيك عنّا، ولا تحوجنا إلى أحد من خلقك، وأسدل علينا بسترك.

فرأى أعرابياً في المسجد يقول: إلهي! أريد منك شويهة.

ورأى أبا بكر الصديق في زاوية أخرى يقول: إلهي! أريدك.

فشتان ما بين الهمتين، فكل يطير بهمته، فإذا بلغ طيرانه إلى غاية همته، وقف فلم يجاوزها،

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[١]، أي: على نيته وهمته.

•

وقيل لأبي يزيد رحمه الله تعالى[٢]: سمعنا أنك تمر على الماء، وتطير في الهواء!

فقال: المؤمن أعز على الله من السموات السبع، فأي عجب أن يبلغ مقام طير أو حوت؟

قريء بين يدي ابن المبارك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[٣]،

فقال: ليس أنه يسبق بدنٌ بدناً، ولا عملٌ يسبق عملاً؛ ولكن همةٌ تسبق همةً، في جميع الخيرات والإرادات.

[لا تفتخروا بأعمالكم]:

قال بعض العارفين: مساكين أهل الغفلة! يشتغلون بكثرة الأعمال، ويعظمونها ويفتخرون بها، ولو أن أهل المعرفة، عملوا

---

(١) الإسراء: ٨٤

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].

(٣) المؤمنون: ٦١.

أعمال أهل السموات والأرض، من الأزل إلى الأبد، كان ذلك أصغر وأحقر في أعينهم، من خردلة في السماء والأرض.

قال النبي ﷺ: «لا تستكثروا طاعتكم، ولا تستقلوا ذنوبكم».

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام، كان يمر على شاطىء البحر، فقال: إلٓهي! قد اصطكتْ ركبتاي، وانحنىٰ ظهري، حبيبي! فما أنت صانع بي؟

فأمر الله تعالى ضفدعاً أن يجيبه؛

فقال: يا ابن عمران! أتمنُّ على ربك بعبادتك إياه؟! وقد اصطفاك وكلمك، وقرَّبَك وناجاك، فوالذي خلقني ويراني، إني على صخرة منذ ثلاثمائة وستين سنة، أُسبِّحه ليلاً ونهاراً، لا أفتر منها لحظة، ومنذ ثلاثة أيام لم آكل، وكل ساعة ترتعد فرائصي من هيبته.

[عِلْمُه سبحانه يُغني]:

وقال أبو سعيد أبو الخير رحمه الله تعالى: كنت في البادية، فنالني جوع شديد، فطالبتني نفسي أن أسأل الله طعاماً، فقلت: ليس هذا من دأب المتوكلين؛ فطالبتني أن أسأله اصطباراً، فلما هممت به ثانياً، سمعت هاتفاً يقول:

أَيَجْهَلُ أَنَّنَا مِنْهُ قَرِيبٌ وَأَنَّا لا نُضِيعُ مَنْ أَتَانَا
يُرِيدُ أَبُو سَعِيدَ سُؤَالَ صَبْرٍ كَأَنَّا لا نَرَاهُ وَلا يَرَانَا

* * *

الحديث السابع عشر

[دخول الجنة بغير حساب]:

أخبرنا شيخنا القاضي العدل، الثقة المقري، الإمام الشيخ: علي أبو الفضل القرشي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو طالب محمد بن علي بن الفتح العشاري، قال: أنبأنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص، قال: أنبأنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، قال: أنبأنا مالك بن الخليل أبو غسان، قال: أنبأنا بن عدي، عن أشعث، عن الحسن، عن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال: **«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ» قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ ٱللَّهِ؟! قَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُوْنَ، وَلَا يَتَطَيَّرُوْنَ، وَلَا يَكْتَوُوْنَ؛ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**[1].

جعل ﷺ عدم التطيُّر المرتبة الثانية، بعد ترك الاسترقاء؛

---

(١) رواه الإمام مسلم رقم: [٢١٨] في «كتاب الإيمان» باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وهذه مرتبة الخلَّص ، من أهل الانمحاق عنهم وعن كونهم في مراد الله تعالى ؛

رحمهم الله، ما أقلهم في كل عهد! فإن رتبتهم التحقق بالتوكل على الله تعالى، توكلاً تنطوي فيه الأسباب والمرادات، وأولئك هم العارفون بالله حقاً، رضي الله عنهم.

[أخلاق بطل!]:

يا هذا! لو أن العالَم فريقان:

١ ـ فريق يروِّحني بمراوح من نَدٍّ،

٢ ـ وفريق يقرض جسمي بمقارض من نار؛ لا زاد هؤلاء عندي، ولا نقص هٰؤلاء!

أي بني! اعلم أن من عرف الله حق معرفته، تلاشت همته تحت سرور وحدانيته، ولا شيء من العرش إلى الثرى، أعظم من سرور العارف بربه،

والجنة بكل ما فيها في جنب سروره بربه، أصغر من خردلة؛ لما علم أنه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم؛

فمن وجده فأي شيء لا يجد؟ وبأي شيء يشتغل بعده؟

وهل رؤية غيره إلا من خساسة النفس، ودناءة الهمة، وقلة المعرفة به؟

وهل يكون لباس أجمل من لباس الإسلام؟ أو تاج أجل من تاج المعرفة، أو بسط أشرف من بساط الطاعة؟

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[١].

[القلب يزداد حباً وأنساً]:

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى[٢] في بعض مناجاته:

إلّهي! إنك تعلم أن الجنة وما فيها، لا تزن عندي جناح بعوضة، بعدما وهبتَ لي معرفتك، وآنستني بك، وفرغتني للتفكر في عظمتك، ووعدتني النظر إلى وجهك.

نعم، إن أدنى منازل العارف، أن الله تعالى لو أدخله النار، وأحاط به العذاب، لم يزدد قلبه إلاَّ حباً، وأنساً به، وشوقاً إليه.

[حسبي ربي]:

قال ابن سيرين رحمه الله تعالى[٣]: لو خُيِّرْتُ بين الجنة وركعتين، تخيرت الركعتين؛ لأن في الركعتين رضاء الله تعالى، والقرب منه؛

وفي الجنة هوى النفس، ومحبة الناس.

قيل: لما أُلقيَ الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار و ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ﴾[٤]،

قال: حسبي ربي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) يونس: ٥٨.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٢].

(٣) هو: الإمام محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة؛ تابعي، اشتهر بالورع، وتعبير الرؤيا؛ ولد في البصرة سنة: [٣٣] للهجرة، وتوفي فيها سنة: [١١٠] هـ رحمه الله تعالى.

(٤) سورة «الأنبياء» عليهم الصلاة والسلام: ٦٨.

قال تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[١].

[الاستسلام لله]:

ورويَ أن الله تعالى أوحى إليه: يا إبراهيم! أنت خليلي، وأنا خليلك، فلا تشغل قلبك بدوني، فتنقطع الخُلَّةُ بينك وبيني، لأن الصادق في دعوى خُلتي: من أُحرق بالنار، لم يتحول قلبه عني إلى غيري إجلالاً لحرمتي.

وذكر الله تعالى ذلك في كتابه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٢].

فعرف صدقه في التسليم؛ حتى ألقي في النار.

قال أبو عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ في مناجاته:

إلٓهي! لا تدخلني في النار، فإنها تصير برداً عليَّ من حبي لك.

قال أبو أيوب السختياني رحمه الله تعالى: إنما يخاف النار، من نسي مولاه، فيقال لهم: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[٣]، مع ثواب أعماله.

[عتقاء الله]:

قال أبو حفص رحمه الله تعالى: إني لأخاف على معرفة قوم،

---

(١) سورة «الأنبياء» عليهم الصلاة والسلام: ٦٩.
(٢) البقرة: ١٣١.
(٣) السجدة: ١٤.

يكون على جباههم مكتوباً: عتقاء الله بعد إخراجهم منها، يسألون الله رفع تلك العلامة عنهم؛ ولو كنتُ أنا، لسألته أن يكتب ذلك على جميع أعضائي، ويكفيني فخري: أني من عتقائه!

وأنا أقول: إنما الحاصل للمريد في الجنة من الجنة هو: الربُّ تعالى، وقربه، ونظره، واستماع كلامه،

أما ترى امرأة فرعون إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي ٱلجَنَّةِ﴾[١]، كما يقال: الجار، ثم الدار.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى[٢]: إني لأستحيي أن يكون غاية همتي مخلوقاً، وقد قال الله تعالى لبعض أنبيائه: «من أرادنا، لم يُرِدْ سوانا».

قال بعض المشايخ: رأيت شاباً في المسجد الحرام، وقد أثَّر فيه الضر والجوع، فأدركتني الرحمة عليه، وكان معي مائة دينار في صُرَّةٍ، فدنوت منه، وقلت: يا حبيبي! اصرف هذا في بعض حوائجك؛ فلم يلتفت إليَّ، فألححت عليه،

فقال: يا شيخ! هذه حالة لا أبيعها بالجنة وما فيها، وهي دار الجلال، ومعدن القرار والبقاء، فكيف أبيعها بثمن بخس؟!

[الذين يطلبون الله]:

قال أبو موسى الدبيلي ـ خادم أبي يزيد رحمهما الله

---

(١) التحريم: ١١.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٢].

تعالى ـ: سمعت شيخاً ببسطام يقول: رأيت في منامي، كأن الله تعالى يقول:

كلكم تطلبون مني، غير أبي يزيد، فإنه يطلبني ويريدني، وأنا أريده.

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى: اتخذ الله جليساً وأنيساً، والزَمْ خدمة مولاك، تأتك الدنيا وهي راغمة، وتطلبك الآخرة وهي عاشقة؛

وقال: يا طالب الدنيا! دع الدنيا تطلبك؛

ويا طالب الآخرة! أو لم يكف بربك أنه على كل شيء قدير؟

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى[١]: كنت بالموقف، فهممت أن أسأل الله شيئاً، فهتف بي هاتف: بَعْدَ الله، تسأل غير الله[٢].

[الدنيا وعشاقها!]:

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فاضرب بالدنيا وجه عشاقها، وبالآخرة وجه طلابها، واستأنس برب العالمين، والسلام.

---

(١) هو؛ أحمد بن عيسى، أبو سعيد؛ من أهل بغداد صحب ذا النون المصري، وسرياً السقطي؛ وبشر بن الحارث، وغيرهم، وهو من أكابر السادة الصوفية ومشايخهم. توفي سنة: [٢٧٩] هجرية رحمه الله تعالى.

(٢) حينما يصل الإنسان إلى ضرورة السؤال من الناس، يرتفع عنه الحظر الشرعي، لأنه صار مضطراً إلى السؤال؛

وهذا السيد اضطر للسؤال، لفاقة شديدة نزلتْ به، فلما همَّ أن يسأل، هتف به هاتف: بَعْدَ الله، تسأل غير الله؟!

عند ذلك، نسي نفسه واضطرارها، ورجع بكليته إلى خالق الأشياء كلها؛ رضي الله عنه.

قال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: لا تستكثر الجنة للمؤمن، فإنه قد وافى الله تعالى، بما هو أكثر قدراً من الجنة، وهو المعرفة.

وصلّى رجل من العارفين على جنازة، فكبر خمساً(١). فقيل له في ذلك! فقال: كبرتُ أربعاً على الميت، وواحدة على الدارين.

وحكي أنه قرىء بين يدي أبي يزيد: ﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ﴾(٢) قال: فأين من يريد المولى؟

[حوار بين أميرين]:

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لأبي بكر الصديق، رضي الله عنهما: يا خليفة رسول الله ﷺ! بماذا بلغتَ هذه المنزلة حتى سبقتنا؟ فقال: بخمسة أشياء:

أولها: وجدتُ الناس صنفين، طالب دنيا، وطالب عقبى، فكنت أنا طالب المولى؛

---

(١) إن لبعض العارفين بالله تعالى أحوالاً، ربما تخالف قواعد العلوم الشرعية، وربما توافقها؛

فعلينا أن لا ننكر عليهم إذا ظهر لنا خلاف ما نعلم، ويجب علينا أن لا نقلدهم في مثل هذه الأمور؛ بل نتبع النصوص الشرعية، ونطرح كل ما خالف؛

فربما يكون أحدهم مجذوباً، وإن الله تعالى، إذا أخذ ما أوهب ـ يعني العقل ـ أسقط ما أوجب ـ يعني التكاليف الشرعية ـ نسأل الله تعالى المعافاة، في الدنيا والآخرة.

(٢) آل عمران: ١٥٢.

والثاني: منذ دخلت في الإسلام، ما شبعت من طعام الدنيا.

والثالث: ما رُويتُ من شراب الدنيا.

والرابع: إذا استقبلني عملان، عمل للدنيا، والآخر للعقبى، اخترت عمل الآخرة، على عمل الدنيا.

والخامس: صحبت النبي عليه الصلاة والسلام، فأحسنتُ صحبته.

فقال له عليٌّ: هنيئاً لك يا أبا بكر!

* * *

الحديث الثامن عشر

[إذا أدَّب الله عبده]:

أخبرنا[١] ابن العم، الولي الصالح، السيد سيف الدين عثمان، قال: حدثني أبوك السيد علي بن يحيى الرفاعي - صاحب المشهد المنوَّر ببغداد - قال: حدثني ابن عمي السيد حسن بن عسلة، قال: حدثني النقيب الجليل السيد يحيى بن ثابت، قال: حدثني أبي السيد ثابت، عن أبيه السيد علي الحازم أبي الفوارس، عن أبيه السيد أحمد بن علي أبي الفضائل، عن أبيه السيد رفاعة الحسن المكي - نزيل إشبيلية - عن أبيه السيد أبي القاسم محمد البغدادي - نزيل مكة - عن أبيه السيد الحسن القاسم أبي موسى الرئيس، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمن الرضى المحدث القطيعي، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى، عن أبيه الأمير

---

(١) سند هذا الحديث كان مغلوطاً فيما طبع سابقاً، ولفت نظرنا إلى ذلك الأستاذ «طاهر الكيالي الحمصي» فصححنا سند حديثي: «٢٩ و٣٨» الآتي ذكرهما. (من تحقيق النسخة القديمة).

الكبير السيد إبراهيم المرتضى، عن أخيه الإمام الأعظم، قبلة أهل الباطن، علي الرضا ـ صاحب طوس ـ عن أبيه الإمام الشهيد موسى الكاظم، عن أبيه الإمام السعيد جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين علي السَّجَّاد، عن أبيه الإمام المظلوم الشهيد السعيد، الحسين، ـ صاحب كربلاء ـ عن أبيه أمير المؤمنين، يعسوب نحل الموحدين، الإمام علي، كرم الله وجهه، عن ابن عمه، سيد المخلوقين، حبيب رب العالمين، نبينا ورسولنا محمد ﷺ أنه قال:

«أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»(١).

هذا الحديث الشريف ملزم بالتحقق بآدابه ﷺ، فإنَّ من زل عنها هوى، ومن فارقها ضل وغوى؛ وبها تعرج همم المقربين، وتزهر أسرار العارفين، ولا وجه يلتحق به العارف بربه إلا طريق الأدب المحمدي، وسُلَّمُ كلِّ هذا: الذكر المتواصل

[لا تنظروا إلى الأعمال!]:

أي بني! اذكر الله تعالى، واعلم أن الله تعالى أعلى درجةَ الذكر، وعظم رتبتَه، ورفع شأنَه، وشرفه وفضله، ثم قسمه على اللسان، والأركان، والجَنَان ؛ فينبغي أن يكون الذاكر على حذر أن يلتفت إلى الذكر، ويكون شريف الهمة والإرادة، لطيف الفطنة في

---

(١) قال في تمييز الطيب من الخبيث: أخرجه العسكري في «الأمثال» عن علي رضي الله عنه مرفوعاً في حديث طويل. (والحاصل هو حديث ضعيف).

الإشارة، صحيح النية والإرادة؛ لا يُريد بذكره غيره، ولا يلتمس منه فراغه عنه إلى ما دونَه، لأن الوصول إلى الكل تحت الرضا به عن غيره، والحرمان من الكل تحت الاشتغال بغيره؛

[واجبات الذاكر]:

ويجب على الذاكر أن يذكره على غاية من التعظيم والحرمة، لا على العادة والغفلة، فيصير بذلك محجوباً عن المذكور، عقوبة لترك التعظيم والحرمة، لأن حفظ الحرمة في الذكر، خير من الذكر؛

وما من عبد ذكره على التحقيق، إلاَّ نَسِيَ في جنب ذكره ما سواه، وكان الله له عوضاً من كل شيء؛ وربما يريد العارف أن يذكره، فيهيج في سره أمواج التعظيم والهيبة، فيكل لسانه، ويطير فؤاده من إجلال الوحدانية، ثم يبدو له شعاع الشوق والمحبة، من حجب القلب والإلفة، فتنتهي همته إلى سرادقات الألوهية، وميادين الربوبية بإذن الله؛

فحينئذ يكشف له عما ستر عن غيره، من عجائب غيبه، ولطائف صنعه، وكمال قدرته، وأنوار قدسه؛

[فِعْلُ الله]:

فعند ذلك يعرف العبد، أن الله تعالى يفعل ما يشاء، بمن يشاء، لمن يشاء، متى يشاء، كيف يشاء، بيده المَنُّ، والعطاء، والإرادة؛

لا رادَّ لفضله، ولا مُعقِّبَ لحكمه؛ فيُشغَل به، ويصير فانياً تحت بقائه؛

وهذا معنى ما روي في بعض الأخبار، أن الله تعالى قال في بعض الكتب: من يذكرني ولا ينساني، حركت قلبه لمحبتي، حتى إذا تكلم، تكلم لي، وإذا سكتَ، سكت لي.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (١).

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى(٢): الذكر أكبر من الجنة؛ لأن الذكر نصيب الله، والجنة نصيب العبد؛ وفي الذكر رضاء الله، وفي الجنة رضاء العبيد.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «إن الله تعالى يتجلى للذاكرين عند الذكر، وتلاوة القرآن، ولا يرونه، لأنه أعز من أن يرى، وأظهر من أن يخفى، فتفردوا بالله سبحانه، واستأنسوا بذكره، وما نزلت بأحد نازلة إلاَّ وفي كتاب الله لها دليل، من الهدى والبيان».

[الأُنس بذكر الله]:

قال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: إن لله تعالى في الدنيا جنة، من دخلها كان آمناً، طوبى لهم وحسن مآب، قيل: ما هي؟ قال: الأُنس بذكره.

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

قال الله تعالى في بعض كتبه: أوليائي وأحبائي، تنعموا بذكري، واستأنسوا بي، فإني نعم الرب لكم، في الدنيا والآخرة.

[مائدة المعرفة]:

قيل لأبي بكر الواسطي رحمه الله تعالى: هل تشتهي طعاماً؟ قال: نعم. قيل: أي شيء؟ قال: لقمةً من ذكر الله، بصفاء اليقين، على مائدة المعرفة، بأنامل حسن الظن بالله، من جَفْنَةِ[1] الرضا عن الله سبحانه.

وروي أن الله تعالى قال للخليل عليه الصلاة والسلام:

أتدري لِمَ اتخذتك خليلاً؟ قال: لا. قال: لأنك لا تُغفلُ قلبك عني، وعلى كل حال، لا أراك تنساني.

[يا ربنا!]:

لولا أنك أمرتنا بذكرك، فمن كان يجترىء أن يذكرك؟ إجلالاً وإعظاماً لك سبحانك؛

عجباً للذاكرين! كيف تثبت قلوبهم في أبدانهم عند ذكر عظمتك!

[قبول الأعمال]:

وروي أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى! إني لم أقبل صلاة ولا ذكراً إلا ممن يتواضع لعظمتي،

---

(١) الجفنة: إناء كالقصعة.

ويلزم قلبه خوفي، ويقطع عمره بذكري،

يا موسى! إن مثله في الناس، كمثل الفردوس في الجنان، لا يتغير طعمها، ولا ييبس ورقها؛ فأجعلُ له عند الخوف أمناً، وعند الظلمة نوراً، وأجيبه قبل أن يدعوني، وأعطيه قبل أن يسألني.

وروى كعب الأحبار رحمه الله تعالى[١] أن الله تعالى قال: من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل مما أعطي سائلي[٢].

وقال عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام: طوبى لمن ذكر الله، ولم يذكر إلاّ الله، وطوبى لمن يخشى الله، ولم يخش إلا الله.

وروي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام لما قال: يا أسفىٰ على يوسف؛ أوحى الله تعالى إليه: إلى متى تذكر يوسف؟ أيوسف خلقك، أو رزقك، أو أعطاك النبوة؟ فبعزتي لو كنتَ ذكرتني،

---

(١) هو: كعب بن ماتع بن ذي هجن الحِمْيَري، أبو إسحاق: تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر رضي الله عنه، وقدم المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم: كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسُّنَّة عن الصحابة، رضي الله عنهم. وخرج إلى الشام فسكن حمص، وتوفي فيها ـ سنة: [٣٢] هـ ـ عن مائة وأربع سنين. رحمه الله تعالى.

(٢) وروي بمعناه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الربُّ تبارك وتعالى:

«مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَلامِ، كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ». [رواه الترمذي].

واشتغلت بي عن ذكر غيري، لفرجت عنك من ساعتك.

فعلم يعقوب أنه مخطيء في ذكره يوسف، فأمسك لسانه عن ذكره.

وقالت رابعة البصرية رضي الله عنها[١]: ما أوحش الساعة التي لا أذكرك فيها؟!

[الله أقرب إلينا من حبل الوريد]:

وقال موسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم:

إلٰهي! أقريب أنت فأناجيك؟ أم بعيد فأناديك؟

فقال الله تعالى: أنا جليس لمن ذكرني، وقريب ممن أنس بي، أقرب إليه من حبل الوريد[٢].

قيل لذي النون ـ رحمه الله تعالى[٣] ـ: متى يكون ذكر الله للعبد صافياً؟

قال: إذا كان به عارفاً، وممن دونه متبرئاً.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ذكر الله طعام الروح، والثناء عليه شراب الروح، والحياء منه لباس الروح، وما تلذذ

---

(١) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].
(٢) حبل الوريد: عِرقٌ في العنق.
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

المتلذذون بمثل ذكره، وما تنعم المتنعمون بمثل أُنسه.

إن الله تعالى قال في بعض الكتب: من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ، ومن ذكرني من حيث هو، ذكرته من حيث أنا.

[إبليس والوسوسة]:

وقال: إن الخلائق صاحوا من إبليس، وإن إبليس صاح من الذاكرين، وتلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: ما من مؤمن إلا وعلى قلبه شيطان، إذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله وسوس.

ذِكْرُ الله شفاء لا يضر معه داء، وذكر الناس داء لا ينفع معه دواء!

فاجعل ذكر الله قِبْلة همك، وإضاءة مسجد فكرتك؛ واعلم أن حقيقة الاستئناس بذكر الحبيب، هو نسيان غيره.

من شغله ذكر الله تعالى، فني عن ذكر ما سواه، وصار

---

(١) الأعراف: ٢٠١.
(٢) تقدمت ترجمته ـ رضي الله عنه ـ في صفحة: [٥٧].

مدهوشاً تحت لطائف صنعه، وتلاشت كليته تحت جمال حسن عنايته، واستغرق في بحار ذكر امتنانه.

لِلنَّاسِ عِيدَانِ مَعْدُودَانِ فِي سَنَةٍ
وَلِلْمُرِيدِ جَمِيعُ العَصْرِ أَعْيَادُ
فَالذِّكْرُ عَادَتُهُ وَالْحَمْدُ رَاحَتُهُ
وَالْقَلْبُ فِي مَلَكُوتِ الرَّبِّ أَوَّادُ(١)

---

(١) أوّده : عطفه وعوّجه .

الحديث التاسع عشر

[القيام والصيام]:

أخبرنا الفقيه الصالح: بندار بن بختيار الواسطي، قال: أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد المهدي الهاشمي، قال: أنبأنا أبو عثمان إسماعيل بن محمد، قال: أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله الضبي، قال: أنبأنا سليمان بن أحمد، قال: أنبأنا إدريس بن جعفر العطار، قال: أنبأنا يزيد بن هارون بن محمد، عن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ بيتي فقال: «يا عبدَ الله بنَ عَمْرو! ألم أُخْبَرْ أنكَ تَكَلَّفُ قِيَامَ اللَّيلِ وَصِيَامَ النَّهَارِ؟ قَلتُ: إنِّي أفعل. فقال: إنَّ من حسبكَ أن تصوم من كلِ شهرٍ ثلاثةَ أيَّامٍ، الحسَنةُ بِعشرِ أمثالِها، فكأنكَ قد صُمتَ الدهر كلهُ»[1].

ففي هذا الحديث الشريف أسرار:

---

(١) رواه الإمام أحمد، ومسلم، ورواه البخاري بهذا المعنى، وأبو داود بطرق مختلفة، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وابن سعد، وغيرهم.

منها: البشارة بتواصل نور الأعمال، بنور الأعمال، من دون انقطاع؛ وإن تباعدت الأوقات،

ومنها: مضاعفة ثواب العمل لهذه الأمة؛ الحسنة بعشر أمثالها، لتنشط قلوبهم لعمل الخير،

ومنها: الأمر بعدم التكلف، الذي يُفضي بالعبد إلى السأم والملل،

ومنها: لزوم التذكر، حتى لا تطم القلبَ الغفلةُ،

ومنها: الإيمان القطعي بوعد الله وحسن كرمه؛

وكل هذه الخصال، خصال العارفين، الذين انقطعوا عن كل الهموم الدنيوية والأخروية، وصار همهم ربهم، ومن كان همه ربه، فلا هَمَّ لَهُ.

[اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا]:

قال يحيى بن معاذ[١] - رحمه الله تعالى - في مناجاته: إلهي! إن عرفتك، فأنت الذي قد هديتني، وإن طلبتك، فأنت الذي أردتني، وإن أجبتك، فأنت الذي اخترتني، وإن أطعتك، فأنت الذي وفقتني، وإن أَنَبْتُ إليك، فأنت الذي آويتني؛

وإن الله تعالى لا يكِلُ العارفين إلى أنفسهم، ولا إلى طاعاتهم، ولا إلى ذِكْرهم، بفضله ورحمته؛ بل يكلؤهم بأكاليل شفقته، ويمطر عليهم أمطار رحمته، من سحائب فضله وعنايته.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

[كيفية أداء الشكر؟]:

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب! كيف لي أن أؤدي شكر نعمك، ولك عليَّ في كل شعرة نعمتان؟

فقال له: يا موسى! إذا عرفتَ أنك عاجز عن شكري، فقد شكرتني.

وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أُشكر نعمتي عليك.

فقال: إلٰهي! وكيف لي أن أشكرك، وشكري لك على النعم أعظمُ نعمةً عليَّ؟

فأوحى الله تعالى إليه: إذا علمتَ ذلك، فأنت أشكر العباد لي.

وقال محمد بن السماك رحمه الله تعالى: أُذكرْ من كان ذكره لك قبل ذكرك، وحبه قبل حبك؛ وما ذكرته إلاَّ بذكره لك، وما أحببته إلاَّ بحبه لك.

وقال أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: من نسي ذكر الله تعالى كان مستدرجاً.

واعلم أن أدنى أوصاف العارف، عيش القلب مع الله بلا علاقة، وذلك من ذكر الله إياه، وذلك بيِّن في قول الله تعالى:

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[١]. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢] أي قليل من يرى مِنتي عليه، عند شكره لي!

[شكر المنعم]:

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال:

إلٰهي! كيف استطاع آدم أن يشكر نعمتك عليه؟ إذ خلقته بيديك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرتَ الملائكة فسجدوا له.

فقال الله: يا موسى! علم آدم أنَّ ذلك مني، فحَمِدَني عليه.

فمن أطاعه، فبتوفيقه أطاعه، فله المِنَّةُ، ومن عصاه، فبمقدوره عصاه، فله الحجة عليه، فقد سبق فضله لمن أطاعه قبل طاعته، وقد سبق عدله لمن عصاه قبل معصيته إياه، لأنه الفعال لما يريد.

وروي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال:

إلٰهي! لولا أنت كيف كنت أعرف من أنت؟[٣].

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما لنا نحب المدح

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) سبأ: ١٣.

(٣) أي: لولا أنك هديتنا إلى معرفتك ما عرفناك، فالحمد لك يا ربنا! على نعمائك، وآلائك.

والثناء؟ فقال: لنسيان امتنان الله عليكم، وحسن عنايته التي سبقت منه لكم؛ فمن نسي المنة، وجحد النعمة، قلبت له النعمة نقمة!

[أصناف أهل الذكر]:

يا بني! إن الله تعالى أعطاك المعرفة، ووفقك لطاعته من غير إحسان سبق منك، ومن غير شفاعة كانت لأجلك، فينبغي أن تشتغل بذكره وخدمته، من غير طلب عوض ومكافأة منه،

فأهل الذكر أصناف مختلفة، فمنهم من يذكر علىٰ جهة مِنَّةِ الإسلام، ومنهم على جهة السنَّة والجماعة، ومنهم من يذكره على جهة مِنَّةِ ذكره، حتى يصير قلبه والهاً، ولسانه كليلاً، وعقله هائماً، ويصير في عظمته مبهوتاً، ويتيه في كرمه، ويدهش في محبته، لما علم أن الأعمال لا تقوم إلاَّ به.

والذكر على وجهين: ذكر يتولد منه الخوف والخشية، وذكر يتولد منه الشوق والمحبة؛

فأما ما ينتج الخوف والخشية، فهو ذكر من يذكر الله مع نفسه، ويرى ذكر الله له، سببَ ذكره لله تعالى، ويعلم أنه بذكر الله يصل إلى ذكره إياه؛

وأما الآخر: فهو الذكر الذي يذكر ذكر الله له في الأزل، حيث لم يكن موجوداً، إلى أن يصير في الدنيا مفقوداً، ثم إلى الأبد، فوجد ذكر الله له سابقاً أزلياً، خالداً أبدياً،

وذكره مكدراً بالشهوات، ممزوجاً بالغفلات، فشتان بين من يدخل على الله برؤية ذكره، وبين من يدخل على الله برؤية فضله ومنته، واعلم أن ذكر العبد لله تعالى، في إضافة ذكر الله تعالى للعبد، كالغبار تحت الأمطار.

بِذِكْرِكَ تَحْيىٰ مُهْجَتي يَا مُؤَمِّلي
وَذِكْرُكَ لِي مِنْ قَبْلِ ذِكْرِي أَكْبَرُ
مَنَنْتَ بِطَوْلٍ لاأَقُومُ بِشُكْرِهِ
فَأَيَّ أَيَادِيكَ[1] الْجَزِيلَةِ أَشْكُرُ؟

***

(١) أي: نعمك.

الحَدِيثُ العِشْرُونَ

[ثمن بيوت الجنة]:

أخبرنا الشيخ الحجة الثقة العارف: أبو بكر بن يحيى النجاري الأنصاري الواسطي، قال: أنبأنا أبو القسم طلحة الكتاني، قال: أنبأنا أبو الحسين أحمد بن عثمان الآدمي، قال: حدثنا أحمد بن ماهان السمسار، قال: أنبأنا عبد الرحمن بن مهدي، عن شعبة، عن النعمان بن سالم، قال: سمعت عمر بن أوس يحدث عن عتبة بن أبي سفيان، عن أم حبيبة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّه تَعَالَىٰ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعاً مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، إلَّا بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ»[1].

هذا الحديث الشريف، يحث على ملازمة النوافل، فإنها من المقربات إلى الله تعالى، وهي زاد العارفين في طريقهم إليه سبحانه، وشأن المتجردين لجنابه جلت قدرته.

---

(١) أخرجه: مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

[مشاهدة نور الحق]:

أي بُني! اعلم أن من تجرد بسره عن الكل، وتفرد بسر السر الفرد، كُشِفَ له الغطاء، واستبانت له البراهين، عند مشاهدة نور الحق سبحانه، وهنالك يسقيه الله بكأس محبته، حتى يسكره به عن غيره، ويزيل عنه التعب والنصب، ويصير سكوته ذكراً، وأنفاسه تسبيحاً، وكلامه تقديساً، ونومه صلاة؛

ولا يزال العبد يركب بسره مركب المعرفة، حتى يتصل بالمعروف، فإذا اتصل بالمعروف، بقي معه إلى الأبد، من غير أن يلتفت منه إلى ما سواه.

[سلطانٌ وأعوانه]:

واعلم أن مثل القلب كالقصر، والمعرفة فيه كالسلطان، والعقل أمير على الأركان، له تبع وأعوان، واللسان كالترجمان، والسر من خزائن الرحمٰن، ولا بد لكل واحد منها من الاستقامة في مواضعه، ودوران كلها على استقامة السر مع الحق؛

فإذا استقام السر، استقامت المعرفة، فيستقيم العقل؛
وإذا استقام العقل، استقام القلب؛
وإذا استقام القلب، استقامت النفس؛ وإذا استقامت النفس، استقامت الأحوال؛

فالسر منوَّر بنور الجمال والجلال؛
والعقل منوَّر بنور اليقظة والاعتبار؛

والقلب منوَّر بنور الخشية والأفكار؛

والنفس منورة بنور الرياضة والانزجار؛

فالسر بحر من بحور العطايا، وأمواج الهمة فيه لا يُحصىٰ عددها، ولا ينقطع مددها؛

وإن استقامة السر مع الحق، هي الدوام على بساط المشاهدة، مع فقد رؤية الاستقامة.

واعلم أن صراط الاستقامة: السرادق، من صراط الآخرة؛ والمرور على جسرها، أصعب من المرور على جسر الآخرة؛ وإن عالِمَ الأسرار غيور، لا يحب أن يكون في قلب العبد حب أو ذكر لغيره.

[الاشتغال بالله]:

قال الله تعالى في بعض كتبه: إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي، جعلت لذته وهمته في محبتي، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه.

ودخل رجل على سري السقطي رضي الله عنه[١]، فقال له:

أي شيء أقرب إلى الله، ليتقرب به العبد إلى الله؟ فبكى

---

(١) هو: سريُّ بن المُغَلِّس السقطي، أبو الحسن: من كبار المتصوفة؛ ولد في بغداد وتكلم بلسان التوحيد، وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وهو خال الجنيد البغدادي وأستاذه؛ توفي في بغداد سنة: [٢٥٣] للهجرة رحمه الله تعالى.

السري، فقال: أمثلك يسأل عن هذا؟ إن أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله سبحانه، أن يطَّلِع اللهُ على قلبك، وأنت لا تريد من الدارين غيره!

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى(١): غاية همتي ومرادي من الله تعالى، أن يجعل لي المَيل إليه، فلا أرى شيئاً دونه، ولا أشتغل بأحد سواه، ثم لا أبالي إلى التراب صيرني، أم إلى العدم رَجَعني.

وقيل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: بأي شيء وجدتَ الخُلَّة؟

فقال: بانقطاعي إلى ربي، واختياري إياه على ما سواه، وبأني ما أكلت قط إلاَّ مع الضيف.

وقالت رابعة البصرية رحمها الله تعالى(٢):

إلَهي! همتي ومرادي في الدنيا من الدنيا ذكرك، وفي الآخرة من الآخرة رؤيتك، ثم أفعل بينهما ما شئتَ.

[استقبالات، والتفاتات]:

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى(٣): رفعت السر إلى مواصلة الحق، فطار بأجنحة المعرفة، بنور الفطنة، في هواء

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٢].

(٢) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥٦].

الوحدانية، فاستقبلته النفس، وقالت: أين تذهب؟ أنا نفسك لا بُدَّ لك مني! فلم يلتفت السر إليها؛

ثم استقبله الخلق، وقالوا: أين تذهب؟ نحن رفقاؤك وندماؤك، ولا بد لك منا، ومن معاونتنا إياك! فلم يلتفت إليهم،

ثم استقبلته الجنة بكل ما فيها، وقالت: أين تذهب؟ فإني لك، ولا بد لك مني! فلم يلتفت إليها،

ثم استقبلته العطايا والمواهب، والكرامات كذلك، حتى جاوز المملكة، وبلغ سرادقات الفردانية، وجاوز الكلية والأنانية، حتى وصل إلى الحق، وهو المطلوب.

[الرجوع من الطريق]:

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال في بعض مناجاته: يا ربِّ! عجبت ممن يجدك ثم يرجع عنك!

فقال الله تعالى: يا موسى! إنَّ من وجدني لا يرجع عني، وما رجع من رجع إلا عن الطريق!!

وقال أبو العباس ابن عطاء رحمه الله تعالى[1]: متى ظهرت على عبدٍ الآخرة، فنيتْ في جنبها الدنيا، وبقي العبد مع دار البقاء؛

---

(١) هو: أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي، أبو العباس، من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم، له لسان في فهم القرآن يختص به. كان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه، توفي سنة: [٣٠٩] وقيل: [٣١١] هجرية، رحمه الله تعالى.

ومتى ظهرت على العبد مشاهدة الحق تعالى ، فنيَ عنده ما دون الحق، وبقي العبد مع الحق.

[اسم الله الأعظم]:

وقال رجل لأبي يزيد[١] ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغني أن عندك اسم الله الأعظم، أحب أن تعلمني ذلك.

فقال أبو يزيد: ليس لاسم الله حد محدود، ولكنه فراغ قلبك لوحدانيته، وترك الالتفات منه إلى غيره؛ فإذا كنت كذلك، فخذ أي اسم شئت، تسير به من المشرق إلى المغرب، في ساعة ثم تجيء.

[الذين يطلبون الله]:

قال ذو النون رحمه الله تعالى[٢]: كنت حاجّاً فإذا شاب يقول:

إلّهي! قد اجتمع وفدك، وأنت أعلم، فما أنت صانع بهم؟

فسمعت صوتاً يقول: وفدي كثير، وطلابي قليل.

وسُئل بعضهم: كم بين الحق والعبد؟

قال: أربعة أقدام: يرفع قدماً من الدنيا، وقدماً من الخلق، وقدماً من النفس، وقدماً من الآخرة؛ فإذا هو ثَمَّ[٣].

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

(٣) ثم: ظرف. ومعناها: هناك. أي: فإذا فعل العبد ذلك، كان مع الله تعالى على الدوام. (من تحقيق النسخة القديمة).

قال السري رحمه الله تعالى[١]: من قام على طاعة الله بغير علاقة، سقاه الله شربة من عين محبته، وبلغه إلى مقعد صدق.

[المقعد الصدق]:

قال علي رضي الله عنه: العارف إذا خرج من الدنيا لم يجده السائق ولا الشهيد في القيامة؛ ولا رضوان في الجنة؛ ولا مالك النار في النار؛

قيل: وأين يوجد؟ قال: في مقعد صدق عند مليك مقتدر، إذا قام من قبره لا يقول: أين أهلي وولدي؟ ولا أين جبريل وميكائيل؟ والجنة والثواب؟ ولكن يقول: أين حبيبي وأنيسي؟

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ تَرَىٰ مَا لا يَرَاهُ النَّاظِرُونَا
وَأَلْسِنَةٌ بِسِرٍّ قَدْ تُنَاجِي تَدِقُّ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَا
وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ فَتَأْوِي عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَا
فَتَرْعَىٰ فِي رِيَاضِ الْقُدُسِ طَوْراً وَتَشْرَبُ مِنْ بِحَارِ الْمُرْسَلِينَا
عِبَادٌ قَاصِدُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ دَنَوْا مِنْهُ وَصَارُوا وَاصِلِينَا

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٧٠].

الحديث الواحد والعشرون

[الصدقة تطفيء غضب الرَّب]:

أخبرنا الشيخ العارف بالله تعالى: سيدي عبد الملك بن الحسين، بن ميمون بن الحسين، الحربوني الواسطي قدس الله سره، قال: أنبأنا الشيخ الثقة عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد،

أقول: وبهذا السند عن عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد، بزيادة لفظة ابن يوسف بعد أحمد، أجازنا كتابة مولانا الخليفة المفترض الطاعة في الأرض، القائم لله بإحياء السُّنَّة والفرض، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله العباسي الهاشمي، أعز الله به كلمة الدين والمسلمين، وأيد باقتداره شريعة سيد المرسلين، عليه صلوات رب العالمين؛ وعبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد بن يوسف المتقدم ذكره،

قال: أنبأنا أبو الحسن محمد بن مرزوق بن عبد الرزاق قراءة، قال: أنبأنا علي بن أحمد بن علي، قال: أنبأنا عمي الحسن بن علي؛

قال محمد بن مرزوق: وقرأت على أبي نصر محمد بن سلمان، أخبركم ذو النون بن محمد بن عامر؟ فأقر به، قال: أنبأنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، قال: حدثنا محمد بن هارون، قال: أنبأنا محمد بن العباس النسي، قال: أنبأنا عمرو بن أبي سلمة، قال: حدثنا صدقة، عن الأصبغ، عن ابن حكيم، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال:

«صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ ٱلسُّوءِ، وَإِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِيءُ غَضَبَ ٱلرَّبِّ، وَإِنَّ صِلَةَ ٱلرَّحِمِ، تَزِيدُ الْعُمُرَ، وَتَنْفِي الْفَقْرَ»(١).

في هذا الحديث الشريف، من مكارم الأخلاق، ما يصعد همة العارف إلى حضرة ربه، فإن أُسَّ(٢) المعرفة بالله: مكارم الأخلاق، وأما سوء الأخلاق، فهو والعياذ بالله من انحجاب السر عن الله تعالى.

[المصيبة التي لا تنجبر!]:

أي بني! اعلم أن أعظم مصائب السر، حجابه عن الله تعالى،

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، عن أبي أمامة رضي الله عنه، وأخرجه في الأوسط عن أم سلمة رضي الله عنها، بلفظ:

«صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ ٱلسُّوءِ، وَٱلصَّدَقَةُ خَفِيّاً تُطْفِيءُ غَضَبَ ٱلرَّبِّ، وَصِلَةُ ٱلرَّحِمِ زِيَادَةٌ فِي الْعُمُرِ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الآخِرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ: أَهْلُ الْمَعْرُوفِ».

(٢) الأُسُّ: أصل البناء، وكذا الأساس.

فكل من حلت به هذه المصيبة، فقد تلاشت سائر مصائبه في جنبها، فإنَّ المحب سكران، والسكران لا يجد حالة سكره وجع المصيبة، فإذا أفاق وجد الألم.

ومصيبة المحجوب عن الله لا تنجبر أبداً، إلا بتجريد السر عن كل ما دون الله تعالى؛

ولا وعيد في القرآن أصعب من قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[1].

فكم من طاعة حجبت صاحبها عن المطاع؟

وكم من نعمة قطعت صاحبها عن المنعم،

ورُبَّ نائم رزق الانتباه بعد رقدته؛ ومنتبه نام بعد طول الانتباه!

ورُبَّ فاجر رزق الولاية، وبلغ منازل الأبرار! وزاهد سقط من ولايته، وسلك مسالك الفجار!

وكم من عامل قد حجبته رؤية أعماله، عن رؤية امتنان ربه، حتى عمي بصره، فصار مبعداً، وهو يحسب أنه واصل؟ ولا مصيبة أشد على العارف من الحجاب، ولو طرفة عين، وأعظم عقوبة على العبد من الله: البعد والحجاب.

[إذا فُقِدَتْ حلاوة المناجاة!]:

وحُكيَ أن رجلاً من العباد قال: إلٓهي! إلى كم أعصيك ولا تعاقبني؟!

---

(١) سورة المطففين: ١٤.

فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان، قل له: إلى كم أعاقبك وأنت لا تدري؟! ألم أحجبك عن لطائف أنسي! ألم أُخرج عن قلبك حلاوة مناجاتي!

وقال أبو موسى ـ خادم أبي يزيد رحمهما الله تعالى ـ: دخل الشيخ مدينة، فتبعه خلق كثير، فلما نظر أبو يزيد إليهم وإلى ازدحامهم نحوه، قال:

اللهم إني أعوذ بك أن تحجبني عنك بهم، وأعوذ بك أن تحجبهم عنك بي.

رحمه الله ما أكثر إنصافه! ما أصدقه بربه، ما أشفقه على إخوانه المسلمين؛ أراد لهم الخير وصحة النظر، كما أراد لنفسه.

تنبه يا من يريد اجتماع الناس عليه، واعتقادهم به! كم طَيَّرَتْ طقطقة النعال حول الرجال من رأس؟ وكم أذهبتْ من دين؟ اللهم سلِّم، اللهم سلِّم.

[لطائف ربانية]:

اعلم أن الناس أربعة أصناف:

١ ـ رجل جعل الله قلبه بصيراً، ينظر بنور اليقين إلى لطائف صنعه وكمال قدرته،

٢ ـ ورجل جعل الله عقله بصيراً، ينظر بنور الفطنة إلى الوعد والوعيد،

٣ ـ ورجل جعل الله سره بصيراً، ينظر في كل الأوقات بنور المعرفة، إلى الله تعالى،

٤ - ورجل جعله الله مكفوفاً، لا يبصر شيئاً! فهو مظهر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

[عصاة.. وطائعون]:

واعلم أن الكفار محجوبون بظلمة الضلالة، عن نور الهدى؛

وأهل المعصية محجوبون بظلمة الغفلة، عن أنوار التقوى؛

وأهل الطاعة محجوبون بظلمة رؤية الطاعة، عن أنوار رؤية التوفيق، وعناية المولى؛ فإذا رفع الله عنهم هذه الحجب، نظروا بأعين النور إلى النور، فعند ذلك يحجبون عن غيره به؛

فكل من نظر إلى حركاته وأفعاله في طاعة الله، صار محجوباً عن وليها مفلساً؛

ومن نظر إلى وليها، صار محجوباً به عن رؤيتها، لأنه إذا رأى عجزه عن تحقيقها وإتمامها، صار مستغرقاً في امتنانه؛

وربما يُحجب برؤية العبادة عن وجدان حلاوتها،

وربما يحجب برؤية وجدان الحلاوة عن صحة الإرادة،

وربما يحجب برؤية المِنَّة عن المنَّان سبحانه.

قال النساج رحمه الله تعالى: من رأى نفسه عند الطاعة، لم يتخلص من العجب!

---

(١) الإسراء: ٧٢.

ومن رأى الخلق، لم يتخلص من الرياء!
ومن رأى الطاعة، لم يتخلص من الغرور!
ومن رأى الثواب، لم يتخلص من الحجاب!

ومن رأى الربَّ تعالى، فذلك في مقعد الصدق، عند مليك مقتدر.

[الحسنة والسيئة]:

وقال بكر بن عبد الله رحمه الله تعالى: من اشتغل بطرائف الحكمة ودقائقها، صار محجوباً عن حقائقها[1]، وما أعرِفُ معصيةً أضرَّ بصاحبها من نسيان الربِّ، وعلاقة القلب بغيره!

وقال: كل همٍّ وذكر لغير الله تعالى، فهو حجاب بينك وبين الله،

وفي الخبر: «رُبَّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا الرَّجُلُ لَا يَكُونُ لَهُ سَيِّئَةٌ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْهَا»؛

---

(١) الاشتغال بطرائف الحكمة ودقائقها، عمل مشكور صاحبه، إن عملَ بما عَلِم؛
أما إذا اشتغل بالطرائف، وترك العمل! فذلك من الذين وبّخهم الله بقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥].
فحينما يُحشر الناس إلى رب العالمين، ويقف الخلائق في المحشر، وتُنشر الصحف، ويقع كل كتاب بيد صاحبه، يقول المقصرون، ويقول الكافرون، ويقول المنافقون:
﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩].

وَرُبَّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُها ٱلرَّجُلُ لَا يَكُونُ لَهُ حَسَنَةٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا».

قيل في معناه: لأن الحسنة محمودة، والسيئة مذمومة؛ فما دام العبد في الحسنة مع رؤية الحسنة، فهو في ميدان الدلال والافتخار! وما دام العبد في السيئة مع رؤية السيئة، فهو في ميدان الانكسار والافتقار، وحال العبد في وقت الافتقار أحسن.

[طرائف الفوائد]:

قال الإمام أبو بكر الصديق رضي اللهعنه:

«اللهم إني أعوذ بك من الشرك الخفي».

قالت رابعة رضي الله عنها[1]: حجبت الدنيا قلوب أهلها عن الله، فلو تركوها لجالت في ملكوته؛ ثم رجعت بطرائف الفوائد!

قيل لسيدي منصور الرباني رضي الله عنه: بأي شيء يعرف العبد أنه غير محجوب عن ربه؟

قال: إذا طلبه، ولم يطلب منه، وأراده، ولم يُرِدْ منه، وأن لا يختار على اختياره شيئاً، وإن اختار له النار؛

وكل من ليس في قلبه سلطان الهيبة، ونار المحبة، وأنس الصحبة، فهو محجوب!

---

(١) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

وقال: كفاك من المعرفة أن تعلم أن الله مطلع عليك،
وكفاك من العبادة أن تعلم أن الله مستغن عنك،
وكفاك من المحبة أن تعلم أن حبه سابق على حبك،
وكفاك من الذكر أن تعلم أن ذكره متقدم على ذكرك.
القلوب إذا قعدت على بساط الهيبة، زالت عنها الشهوات،
وإذا قعدت على بساط المعرفة، زالت عنها الغفلات؛
وإذا قعدت على صدق الفردانية بالفرد للفرد، فذلك المقعد الصدق.

* * *

الحديث الثاني والعشرون

[كونوا كما أمركم الله]:

أخبرنا الشيخ الثقة العارف بالله تعالى: عبد الملك بن الحسين الحربوني، قدس الله روحه، قال: أخبرنا أبو مطيع محمد بن عبد الواحد الأديب، قال: أنبأنا أبو بكر عبد الله بن أحمد بن العباس الباطرقاني، قال: أنبأنا سليم بن أحمد الطبراني، قال: حدثنا إسحاق بن إبرهيم الديري، قال: أنبأنا عبد الرزاق، قال: أنبأنا معمر، عن الزُّهري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَكُونُوا إِخْوَاناً كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ»[1].

---

(١) هذا جزء من حديث رواه: البخاري، ومسلم، والطبراني، وأبو داود والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَٱلظَّنَّ، فَإِنَّ ٱلظَّنَّ أَكْذَبُ ٱلْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ ٱللَّهِ إِخْوَاناً كَمَا أَمَرَكُمْ، ٱلْمُسْلِمُ أَخُو ٱلْمُسْلِم، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، ٱلتَّقْوَىٰ هَا هُنَا، ٱلتَّقْوَىٰ هَا هُنَا، ٱلتَّقْوَىٰ هَا هُنَا ـ وَيُشِيرُ إِلَىٰ =

هذا الحديث الشريف، تضمن من أسرار المعرفة بالله العجائب، فإنه أمر بالتخلي عن الصفة الإبليسية، وهي: الحسد؛ ثم بالتجرد من الصفة النفسانية، وهي: البغض لغير الله تعالى؛ ثم بالترفع عن الصفة السافلة الهوائية، وهي: التجسس؛ ثم بعد أن أكمل درجات التنقية، أمر برؤية عدم الفرقية بين المرء وبين إخوانه؛ وأن هذا من أمر الله تعالى.

وإذا كملت للعبد هذه الخصال، فقد أحكم شأن المعرفة بالله، ومن هذا السر قول سيدنا علي كرم الله وجهه، ورضي الله عنه: «من عرف نفسه، فقد عرف ربه»(١).

[التفاتات!]:

أي بني! اعلم أن العبد بين الله وخلقه:

إن التفت منه إلى الخلق، تجرد عن الحق، وصار متروكاً محروماً مخذولاً؛

وإن التفت إلى الله عن الخلق، قرَّبه الله وأدناه، وأوصله إلى قربه، فإنَّ الله تعالى إذا أحب عبداً غار عليه على قَدْرِ قربه منه، وحبه له، ولم يحتمل منه الالتفات إلى شيء سواه، فإنه إن

= صَدْرِهِ ـ بِحَسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ: أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِرْضُهُ، وَمَالُهُ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ، وَلاَ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

(١) قال في أسنى المطالب ص [٢١٩]: ونسبه بعضهم إلى أبي سعيد الخراز، وبعضهم إلى يحيى بن معاذ الرازي. رحمهما الله تعالى.

نظر إلى شيء دونه، عذبه الله بذلك الشيء، وجعله وبالا عليه؛

[النظر إلى الأشياء]:

أما ترى أن إبليس لعنه الله، نظر إلى نفسه، وقال عن آدم: أنا خير منه! فلعنه وطرده،

وكذلك نظر فرعون إلى ملكه، وقال: أليس لي ملك مصر؟ فغرقه؛

وقارون، نظر إلى ماله وقال: إنما أُوتيته على علم عندي! فخسف الله به وبداره الأرض!

وكذلك الملائكة: نظروا إلى تسبيحهم وتقديسهم حيث قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]، فابتلاهم الله تعالى بالسجدة لآدم؛

وكذلك كل من قال: أنا، يقول الله تعالى: لا؛ بل أنا؛ ثم يرده إلى أسفل السافلين؛

وكل من يقول: أنتَ الله، يرفعه إلى أعلى عليين،

والالتفات على وجهين، التفات العين، والتفات القلب؛

فالتفات العين مثل ما قال الله تعالى لمحمد حبيبه عليه الصلاة والسلام:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

---

(١) البقرة: ٣٠.

الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(١).

ثم منَّ عليه لَمَّا عصمه حيث قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾(٢).

ثم مدحه بترك الالتفات إلى ما سواه، في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٣).

ثم أورثه ذلك الترك الكلي، أن رفع له الحجاب، حتى رأىٰ ما رأىٰ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾(٤).

وأن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾(٥).

قال: أُنظر إلى الجبل، ولن تراني بعد أن نظرت إلى غيري.

[العارف لا يلتفت إلى غير الله]:

كان بعض العارفين، يطوف حول الكعبة، فناداه واحد، فخطر بباله أن يلتفت إليه، فسمع هاتفاً يقول: ليس منّا من التفت إلى غيرنا!

---

(١) طه: ١٣١.
(٢) الإسراء: ٧٤.
(٣) النجم: ١٧.
(٤) النجم: ١٣.
(٥) الأعراف: ١٤٣.

وحكي أن آخر، كان يطوف حول الكعبة، فنظر إلى امرأة، فظهرت يد من الهواء وفقأت عينه!

ثم نودي: نظرتَ بعينك إلى دوننا ففقأناها، ولو نـظرتَ بقلبك إلى غيرنا لكويناه!

وقال ذو النون رحمه الله تعالى[١]: من نظر من توحيده إلى نفسه، لم ينجه التوحيد من النار؛

ومن التفت من الصلاة إلى غيرها، فقد سقط عن درجة المصلين؛

ومن التفت من وقته إلى وقته، ذهب عنه الوقت وهو لا يشعر.

وفي الخبر: إذا التفت العبد في الصلاة، يقول الله: عبدي تلتفت إلى من هو خير لك مني؟! أقبل، ولا تُعرض بوجهك عني، فإني إذاً أُعرضُ عنك!

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

أتاني جبريل بمفاتيح خزائن الدنيا، فلم ألتفت إليها ولم أقبلها[٢].

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة [٢٣].

(٢) روى بنحوه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ».

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ لأصحابه: «فقد ذهب رسول الله ﷺ، وأنتم تنتثلونها!» ومعنى تنتثلونها: أي: تأخذونها جميعاً.

قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت وقد منع الكونين عني، ومنعني أن أنظر إليهما.

[غيرةُ الحقِّ]:

وقال العارف السَّقطي رضي الله عنه(١): كنت في طلب صديق لي ثلاثين سنة، فلم أظفر به؛ فمررت يوماً في بعض الجبال، فإذا هو قائم على صخرة، فدنوت منه وأخذت ذيله، فقال: خلِّ عني يا سَرِي! فإن الحق غيور، فلا يراك تأنس بغيره، فتسقط من عينه!

[الحبُّ الكاذب]:

وحكي أن رابعة ـ رحمها الله تعالى ـ(٢) كانت في طريق مكة، فأقبل إليها رجل وقال: يا هذه! كُلِّي بكلك مشغول.

فقالت: إن كنتَ صادقاً، فكلي لكلك مبذول! إلاَّ أنَّ لي أختاً أحسن مني وهي وراءك! فالتفتَ الرجل، فلطمته رابعة على وجهه! وقالت:

إليك عني يا بطال! ادَّعيت محبتنا، ثم نظرت إلى غيرنا؟ رأيتك من بعيد، فقلت: وجدتُ عارفاً، فلما تكلمتَ، قلتُ: وجدتُ عاشقاً، فلما جربتك وجدتك كذاباً!

ما رأيت معك صفاوة العارفين ومروءتهم، ولا طريقة العاشقين وصيانتهم.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٧٠].

(٢) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

فصاح الرجل، وجعل التراب على رأسه، وقال: ادَّعيتُ محبة مخلوق فأعرضتُ عنه، جاءت اللطمة على وجهي! فأخاف أن أدعي محبة الخالق، فإذا أعرضت قلبي أن تكون اللطمة على قلبي.

وأما الالتفات بالقلب، فقد حُكي أنه كان لفتح الموصلي صبي، فيوماً من الأيام عانقه وقبله، فنودي من الهواء: يا فتح! ادَّعيْتَ محبتنا وفي قلبك حب غيرنا؟ فصاح صيحة، خرَّ مغشياً عليه.

[اتخاذ الخليل]:

ونظرت رابعة البصرية إلى رباح القيسي، وهو يقبل صبياً من أهله، فقالت: أتحبه؟ قال: نعم. قالت: ما كنت حسبت أنَّ في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره؟

ففزع القيسي فزعاً شديداً حتى غشي عليه، فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه.

قال ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، ولَـكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ»[1].

وحكي أن داود عليه الصلاة والسلام، استقبله رجل في بعض سياحاته، فقال: أين تريدُ؟

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال: استوحشت عن الناس، واستأنست بالله.
فقال له الرجل: هذا مِنْ قِبَلَكَ أو مِن قَبلِ الله؟
قال: فسقط داود مغشياً عليه، ثم أفاق وقال: نبهك الله كما نبهتني؟

وقال بعضهم: إن الله تعالى أمر قوم موسى بقطع رؤوسهم حين سجدوا للعجل، بعد أن سجدوا لله تعالى،
فقال: رأس سجد لي، ثم سجد لغيري! فلا يصلح لي.
فكذلك القلب.

وبلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام قال: أوتيت ما أوتي الناس، وما لم يؤتوا، وهممت بما همَّ به الناس، وما لم يهموا، فوجدت الأشياء كلها لله، والأمور كلها بيد الله، والحاصل من الدارين وما فيها هو: الله،
فلا ينبغي لمن ادَّعى محبته، أن يكون في قلبه حب لغيره
قالت رابعة رحمها الله تعالى(١):

يَا حَبِيبَ الْقُلُوبِ مَنْ لِي سِوَاكَا ... اِرْحَمْ الْيَوْمَ مُذْنِباً قَدْ أَتَاكَا
يَا حَبِيبِي وَصَفْوَتِي وَرَجَائِي ... كَذَبَ الْقَلْبُ إِنْ أَحَبَّ سِوَاكَا
يَا أَنِيسِي وَمُنْيَتِي وَمُرَادِي ... طَالَ شَوْقِي مَتَى يَكُونُ لِقَاكَا

---

(١) تقدمت ترجمتها في صفحة [٥٠].

الحديث الثالث والعشرون

[خير الناس بعد الأنبياء] :

أخبرنا شيخنا الشيخ الكبير، العارف بالله تعالى، القاضي المقري: أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو الحسين عاصم بن الحسن بن المقري، قال: حدثنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد، قال: أنبأنا مهدي بن إسماعيل بن محمد الصفار، قال: أنبأنا محمد بن عبيد الله بن المناوي، قال: أنبأنا شبابة - يعني ابن سوار - قال: أخبرنا شعبة بن علقمة بن مزيد، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السُّلمي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١).

هذا الحديث الشريف، يفيد أن الخيرية قد صحت لمن

(١) رواهُ الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

تعلم القرآن وعلَّمه، لما في القرآن العظيم من بالـغ الحِكَم، وغامض السر، وخطير الشأن؛

وهـو حبل اللَّه الأعـظم، به يهتـدي المهتدون، ويصـل الواصلون؛

وهو خُلُقُ رسول الله ﷺ، وبـابُ الله تعالى، والمعجـزة الدائمة، والنور الذي لا ينحجب؛

وعنه تأخذُ أرواحُ العارفين أسرارَ المعرفة، وأما المعرفة التي لم ترجع إليه، ما هي إلاَّ زور وضلالة؛

ومتى تحقق العبد بالعلم بالقرآن العظيم، فقد صار عارفاً، وانكشفت له الأسرار الربانية، الملكية والملكوتية،

ومتى صار عارفاً حنَّ وأنَّ، وطلب زيادة العلم بالله، من كل طريق، ومن كل فن؛ وكل الطرق والفنون: في القرآن العظيم؛

والعارفون هم الراسخون بالعلم، يقولون: آمنا به؛ وإليه منتهىٰ سير هممهم، وعنه يصدرون، وبه يهيمون، ومنه يأخذون،

ولذلك يقال فيهم: ندماء الحق؛ وبهذا السر يُفَرِّقون بين الباطل والحق.

[الاستدراج المخيف!]:

أي بني! اعلم أن الله تعالى ربما يزين أعداءه بلباس أوليائه وأصفيائه، حتى أنهم يغترون بصفاء الأوقات، ويحسبون أنهم من أهل ولايته! فهذا من الله لهم استدراج؛

وربما يزينهم بالعز والجاه والرياسة، والمنزلة عند الناس، حتى يغتروا بثناء الناس ومحمدتهم، ويُحسبون من أهل فضله! فهذا أيضاً من الله استدراج لهم؛

وكذلك ربما يزينهم بأنواع لطائف الحكمة، فيغترون بحسن بلاغتهم، وكمال فهمهم وفطنتهم، ويحسبون أنهم أحاطوا بكل حقيقة علماً، فهذا لهم من الله استدراج؛

وربما يزينهم بلباس النعمة، ويغرقهم في أنواع النعم، فيغترون بحسن تجملهم، وطيب عيشهم، ويحسبون أنهم على شيء من الله، فهذا لهم من الله استدراج؛

ولا يتركهم حتى يردهم إلى حقيقة معلومة، قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

فهذا ما كدر عيش المريدين في دار الدنيا، حتى دام كمدهم، واصفرت ألوانهم، وذابت نفوسهم، ودهشت عقولهم، وطارت أفئدتهم، وانشقت مراراتهم، وفقدوا من الخلائق، وواجب على كل ذي عقل ومعرفة: أن يحذر مولاه، كما حذر نفسه بقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾[٢]،

وكما قال: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[٣].

---

(١) القلم: ٤٤.
(٢) آل عمران: ٢٨ و ٣٠.
(٣) البقرة: ٢٣٥.

[عالِمُ الغيب والشهادة]:

وقال ﷺ: «المؤمن لا يسكن اضطرابه، ولا تأمن روعته، حتى يخلف جسر جهنم».

ألا إن الله تعالى غيَّبَ مكره في حلمه، وخداعه في لطفه، وعدله في كرمه، وخذلانه في أنواع نعمه، وسخطه في جميل ستره، وقطيعته في إمهاله؛

فينبغي للعبد أن لا يعتمد على حسن أوقاته، وكثرة حسناته، فكم من أحد تراه في زِيِّ المريدين، وهو في علم الله من المطرودين! ولا يشعر أن الله تعالى، ربما يُزيِّن عدوَّه بلباس أوليائه، ثم يرده آخر الأمر إلى بُعْدِهِ،

وربما يكسو وليه لباس الأعداء، ثم يرده آخر الأمر إلى حقائق كرمه، لأنه هو يُبدِيء ويُعيد.

يعني: يبديء على أوليائه صفات أعدائه، وعلى أعدائه صفات أوليائه، ثم يعيدهم إلى حقائق معلومة، وهو الفعال لما يريد، بإظهار فضله في أهل عدله، وإظهار عدله في أهل فضله؛

ألا ترى أن الله تعالى زين إبليس بزينة عصمته، وهو في سابق علمه من أهل اللعنة؟ ستر عليه ما سبق منه إليه، حتى أظهر أمره في العاقبة؛

وكذلك زين «بلعام»[1] بأنوار ولايته، وهو عند الله تعالى من أهل سخطه؛

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ =

وأغرق قارون في بحار نعمته، وهو عند الله تعالى من أهل سخطه.

لا يغرنك بالله أربعة أشياء:

١ ـ اظهاره لك ما لم تعلم؛

٢ ـ وستره عليك بما قد عملت؛

٣ ـ وزيادته لك فيما لم تشكره؛

٤ ـ واعطاؤه إياك ما لم تسأله؛

فإنه ربما أراد الله تنبيهاً لك أو استدراجاً.

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى:

من رأى صنع الربوبية، عند إقامة العبودية، انقطع عن نفسه، واعتصم بربه، وفوض أمره إليه، فحينئذ يسلم من آفات الاستدراج.

[للاستدراج أنواع]:

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى[1] ـ يقول:

= مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

اختلف في تعيين الذي أوتي الآيات! فقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: هو بلعام بن باعوراء، ـ ويقال: بلعم ـ من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش، وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه! ثم انسلخ عن آيات الله، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وضلالات شهواتنا، ونسأل الله تعالى: الحفظ، والحماية، والرعاية، إنه أكرم مسئول، وخير مأمول.

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

يا معشر المستورين بالنعم والعِصَم! لا تغتروا، فإن تحتها آفاتِ النِّقَم،

لا تغتروا بعمارة الأوقات، فإن تحتها غوامض الافات،

ولا تغتروا بصفاء العبودية، فإن فيها نسيان الربوبية، والأمر كما قال؛

فَيا رُبَّ مستدرَجٍ بالإحسان إليه، ويَا رُبَّ مغتر بالثناء عليه، ويا رُبَّ مفتون بالنعم عليه، ويَا رُبَّ مستهلك بالستر عليه!

فمن لم يكن باطنه في ملازمة الحق تعالى عين ظاهره، كان شكه أغلب من يقينه، وإن كان ظاهره يدل على أوصاف الموقنين، وفقدان أنوار الباطن من رؤ ية حركات الظاهر، والغفلة عن غوامض آفات الاستدراج من رؤ ية صفاء العبودية؛

فليس للموفق أن يعتمد، ولا للمخذول أن ييئس،

واستدراج أهل الذنوب الركون إليها، والإصرار على الإعراض عن الله سبحانه؛

واستدراج أهل العلم: طلب الجاه والمنزلة عند الخلق؛

واستدراج أهل الاجتهاد: الاستكثار والإعجاب؛

واستدراج المريدين تطلعهم إلى العطايا والكرامات، وسكونهم إليها؛

واستدراج العارفين: استغناؤ هم بالمعرفة دون المعروف، حتى جعلوا لها حداً وغاية ونهاية، وظنوا أنهم قد أحاطوا بها! فكل من كان منزلته أرفع، كان استدراجه أعظم وأدق.

كم من مذكِّرٍ لله، ناسي الله!
وكم من مخوف بالله، جريء على الله!
وكم من داع إلى الله، بعيد من الله!
وكم من تال كتاب الله، منسلخ من آيات الله؟

[ترك الدنيا..]:

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى[1]: لو كنت تركت الدنيا وافتخرت بتركها، فالفخر أعظم من إمساكها؛

ولو تركت عيوب النفس وأعجبت بتركها، فالعجب عيبه أكبر؛

ولو جهدت وتعلقت بجهدك، فتعلقك أعظم الاستراحة؛

ولو خفت وأمنت على أنك خفت، فالأمن من الخوف أكبر.

ثم قال: رؤية القرب في القرب، أقرب البعد؛

ورؤية الأنس في الأنس أعظم الوحشة؛

ورؤية الذكر في الذكر أشد النسيان؛

ورؤية المعرفة في المعرفة أكبر النكرة.

[المستغاث منك وإليك]:

وقال بعض أهل المعرفة: كلما ظننت أني وجدت، فحينئذ فقدت، وكلما ظننت أني فقدت فحينئذ وجدت؛

إلهي! إن تركتُك طلبتني، وإن طلبتك طردتني، لا معك قرار، ولا مع غيرك أنس، فالمستغاث منك إليك.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٥٠].

وقال أبو يعقوب رحمه الله تعالى: أجهل ما يكون العبد بالله، إذا ظن أنه استغنى عن الدنيا بالمعرفة.

[ترديد آية من كتاب الله]:

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى(١): ذنب افتقرتَ به إليه، خير من طاعة افتخرتَ بها عليه.

وكان فُضَيْلٌ كثيراً ما يبكي ويردد هذه الآيـة: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾(٢)، يقول: عملوا أعمالاً حسبوا أنها حسنات، فإذا هي سيئات! حين يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون!

[رؤيا.. وبقاء]:

أي بني! المعرفة مستقر ومستودع، مستقر في قلوب الأولياء، ومستودع في قلوب الأعداء، ثم يسلب في آخر الأمر، فليس للموفق أن يعتمد على توفيقه، ويأمن من مكره؛ ولا للمخذول أن ييئس من روح ربه؛

وربما يرى الرجل للرجل الرؤ يا الصالحة، وهو استدراج من الله تعالى؛

كما حكي أن رجلاً من أهل الشام، أتى إلى العلاء بن زياد وقال له: إني رأيتك في المنام، كأنك من أهل الجنة.

فترك مجلسه وأخذ في البكاء، وقال: لعل الله أراد أمراً؟

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

(٢) الزمر: ٤٧.

قيل: أصل الاستدراج نسيان الحق، والاستغناء بمن دونه، والتعلق بما سواه، والالتفات منه إلى غيره.

[الاغترار بكثرة الأعمال]:

وليس على تحقيق في المعرفة من يغتر بكثرة العلم والعمل، لأن إبليس كان معلم الملائكة، ثم في آخر الأمر نظر إلى نفسه وعبادته!

وترك أمراً من أوامر الله، فصار من الملعونين المطرودين أبد الآبدين.

وإياك أن تغتر بعمارة الأوقات، وصفاء الأحوال، فإن «برصيصاً»(١)، و«بلعام»(٢) كانا أعْبَدَ الناس في زمانهما

---

(١) أطاع برصيص ربَّه ستين سنة، حتى أعيا الشيطانَ من عبادته! وضرب الله مثله في القرآن العظيم، حتى لا يغتر العُبَّاد بعباداتهم؛ بل ينبغي لهم أن يعملوا عملاً صالحاً، ويسألوا الله من فضله أن يتقبل منهم، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧].

وقصة هذا الراهب، الذي زنى وسجد لإبليس! مذكورة في عدة مواضع من كتب التاريخ، منها: «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير: (٢/١٣٦ - ١٣٧):

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنَّها، ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القسّ فيداويها؛ فجاؤا بها إليه، فداواها وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته! فأتاها، فحملت فعمد إليها فقتلها! فجاء إخوتها؛

فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعيتني، أنا صنعت هذا بك، فأطعني أنجك مما صنعتُ بك، اُسجد لي سجدة!! فسجد له؛ قال: إني بريء منك إني أخاف اللَّهَ ربَّ العالمين.

وقانا الله شرور أنفسنا، وشرور الشياطين؛ وحفظنا من كل سوء!

(٢) انظر صفحة: [١٩٤ - ١٩٥].

وأحسنهم حالًا! وفي آخر الأمر مـالا إلى النفس والهوىٰ، فصارا مفتضحين في الدنيا والآخرة!

ولا تغتر بصحبة الصالحين والزهاد، بغير الحرمة والمتابعة لهم، فالصحبة لو نفعت، لنفعت امرأة نوح، وامرأة لوط؛ ولأن الاغترار مدرجة من مدارج الاستدراج.

[المغرورون]:

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[2]،

وذلك أن الشيطان ربما يأتي الزاهد ليغره، فيقول: يا ولي الله! ويا خيرته من خلقه! أما ترى من ربـك هذه الكـرامات والعطايا، والقرب والأُنس!

أما تدري ما ألهمك ربك من كلام أهل المعرفة، وحقائق أنواع الإشارات! فهل يكون مثل هذا إلا لأهل محبته؛ أما ترى حال قربك معه، وكمال لطفه بك، وأنك لو أقسمتَ على الله لأبَرَّك!

ولا شك أن الملائكة ينظرون إلى حركاتك وسكناتـك،

---

(١) فاطر: ٥.

(٢) الانفطار: ٦.

وحسن أحوالك، وقد رجح فضلك على أهل زمانك، فما أغفل الناس عما أنت فيه!

حتى يغره بأنواع مكره وخديعته؛ فإن تداركه الله بالفضل والرحمة، وبصره بمكائد عدوه، وعرج ملتجئاً بسره إلى سرادقات قدرته، فعند ذلك يسلم من درجات آفات الاستدراج.

واعلم أن قلوب أهل المحبة، لا تزال تموج من خوف الاستدراج، كما تموج البحار، حتى يصير كلُّما فيه بالله.

ورأيت مكتوباً على عصا واحد؛ شعر:

كُلُّ ذَنْبٍ لَكَ مَغْفُو رٌ سِوَىٰ الْإِعْرَاضُ عَنِّي

فقلت:

إِنْ كُنْتُ أَعْرَضْتُ فَقَدْ تُبْتُ عُدْتُ إِلَىٰ الْوَصْلِ كَمَا كُنْتُ
وَلَيْسَ لِي جُرْمٌ سِوَىٰ أَنَّنِي نَظَرْتُ فِي الْحُبِّ فَعُوقِبْتُ

* * *

الحديث الرابع والعشرون

[درجات المحبة]:

أخبرنا شيخنا الإمام فرد الوقت، الباز الأشهب خالي: أبو المكارم منصور، البطايحي الرباني، رضي الله عنه، قال: أنبأنا القاضي أبو الحسين محمد بن علي بن المهتدي، قال: أنبأنا أبو الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام، قال: أنبأنا أبو الحسين أحمد بن محمد، قال: أنبأنا أبو الحسن علي بن محمد الحربي، قال: أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن علي، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي»**[1].

وبهذا الحديث الشريف نظام التصفية، فمن أدركها فقد أدرك الصفاء، والتحق بأهل الاصطفاء.

أي بني! اعلم أن للصفاء ظهراً وبطناً، فأما ظهرها: فأن

---

(١) رواه الترمذي في المناقب، والحاكم في فضائل أهل البيت.

تصفّيَ كليتك من أدناس النفس والخلق والدنيا، وأما بطنها: فأن تصفي كليتك من غبار رؤية الأعمال، وطلب الأعـواض على الأعمال، والالتفات منه إلى ما سواه.

روي أن النبي ﷺ قال: أسرَارَكم أسرَارَكم، فإنها عند الله بواد.

ويقال: جديدك مع الله لا تُخْلِقْه مع الناس، وصفاؤك مع الله لا تكدره مع الناس.

وقال يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى: دخلت مكة، فاستقبلني عطاء بن أبي رباح[١]، وسلم عليَّ، ثم أقبل على الناس فقال: تسألوني عن العلم، وفيكم يحيىٰ بن أبي كثير!

قال: فتضرعت إلى الله أربعين يوماً، إلى أن يذهب حلاوة هذه المقالة من قلبي!

[رزقٌ من غير واسطة]:

ويروى أن النبي ﷺ قال: ألا إن أوَانيَ الله في الأرض هي القلوب، فأحب الأواني إلى الله تعالى: أصفاها وأصلبها وأرقها.

معناه: أصفاها لله عند المراقبة، وأصلبها في دين الله عند المخاطبة، وأرقها على الإخوان عند الموافقة.

---

(١) هو الإمام التابعي الجليل: عطاء بن أسلم بن صفوان: تابعي من أجلّاء الفقهاء؛ كان عبداً أسود، ولد في قرية «جند» ـ باليمن ـ سنة: [٢٧] هـ ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة: [١١٤] هـ. رحمه الله تعالى.

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى: لما اشتغل قلب مريم بحب ابنها، سمعت صوتاً: لما كان سرك صافياً لنا، كنا نرزقك في الشتاء والصيف، من غير واسطة، ولا شدة، ولا عناء؛

فلما ميَّلْتِ سرك عني فلا يأتيك رزقك إلَّا بشدة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾(١).

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى(٢): اعلم أن العبد إذا لم يُصَفِّ وقته لله تعالى في إقامة العبودية، انقطع عن الله وهو لا يشعر؛ فمن اجتهد في صفاء معاملة الظاهر، أورثه الله صفاء معاملة الباطن.

ومعنى قوله: انقطع عن الله وهو لا يشعر. قول أبي يزيد رحمه الله تعالى: من ظن أنه بالحال يصل، فبالحال ينقطع، ومن طلب الأنس بالحال، فبالحال يستوحش.

[طوق العبودية]:

قال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى: إنَّ الله تعالى حكم على أصفيائه وأحبابه، أن لا يخرجون من الدنيا إلَّا وطوق العبودية في أعناقهم.

---

(١) مريم: ٢٥.

(٢) هو: الإمام أحمد بن محمد بن الحسين الجريري، كان من كبار أصحاب الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ وصحب سهل بن عبد الله التُّسْتَري، أُقعد بعد الجنيد في مجلسه، لتمام حاله، وصحة علمه. توفي سنة: [٣٢١] هجرية، رحمه الله تعالى.

وبحق أقول: ما اشتغل أحد بغيره إلاَّ ضاع عمره، وذهبت عنه صفاوة الوقت؛ فمن أراد صفاوة الوقت، فليؤثر الله على شهوته.

[علاج الرَّين]:

وقيل لواحد: ما حقيقة صفاوة الوقت؟

فقال: تصفية الكلية، لخلاَّق البرية، بوفاء صدق العبودية.

قال الأنطاكي رحمه الله تعالى: إن وجدت ريناً في قلبك، فأدم الصيام، فإن وجدت ريناً، فأقل الكلام، فإن وجدت ريناً، فاترك الآثام، فإن وجدت ريناً، فأكثر البكاء والتضرع إلى الملك العلام.

ويقال: الجهل كله موت، إلا من يرزقه الله العلم؛ والعلم كله حجة، إلا من وفقه الله للعمل به؛ والعمل كله هباء منثور، إلا أن يكون صافياً لله؛ وأهل الصفاء على خطر عظيم، إلا أن يُسَلِّموا ذلك إلى الله تعالى بلا عيب.

ويجب على العبد أن ينظر في حال أكله وشربه، ولباسه وكلامه، وحركاته وإرادته: فيدع منها ما كدر، وليأخذ ما صفا؛ لأن صفاوة الأوقات على قَدْرِ صفاوة الأحوال.

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(١).

وقال ذو النون رحمه الله تعالى(٢): إن لله عباداً، يبلغون في

---

(١) الشعراء: ٨٨ - ٨٩.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

درجة الصفاء، مقاماً تقع فراستهم على سر الناس، فيعرفون السعداء من الأشقياء: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1] من عباده.

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما فضل أهل الصفاء على غيرهم؟

قال: رفع الحجاب عنهم، واتهام الوشاة فيهم، وإفشاء الأسرار إليهم.

قيل: هل يكون لأهل الصفاء حلاوة العبادة؟

قال: أما قبل رؤية المِنَّة فنعم، وأما قبل رؤية العبادة فلا، بلا تعليق.

وقيل لبعضهم: متى يعرف الرجل أنه من أهل الصفاء؟

فقال: إذا ستر جميع المعاصي بستر التوبة، وستر جميع الخيرات بذكر ستر المِنَّة، وستر ما دون الله بستر الله تعالى.

[أوصاف أهل الصفاء]:

وحكي أن بهلولاً كان لا يأخذ شيئاً من أحد، وإنْ أكثر عليه الإلحاح، فقيل له في ذلك! فقال: أمرنا أن لا نأخذ بالواسطة، لأن منها ذهاب الصفاء. قيل: وما الصفاء؟

قال: طيران القلب بأجنحة الاشتياق لرب العالمين.

ويقال: أدنى أوصاف أهل الصفاء، عيش القلب مع الله بلا علاقة، ومن لم يعرف نفسه بالفقر والفاقة، والعجز والضعف: لم ينل صفوة اليقين؛

---

(١) آل عمران: [٧٣].

وإذا كان العبد لله تعالى كأن لم يكن، يكن الله تعالى له كما لم يزل.

وقال أبو سليمان رحمه الله تعالى[١]:

طوبى لمن صحت له خطوة واحدة، لا يريد بها إلا الله تعالى.

وقال الإمام معروف الكرخي رضي الله عنه[٢]: بينا أنا أسير في البادية، لم يكن معي أحد من البشر، إذ نزل شخص من السماء، فسألني: ما الصفاء؟ فقلت: صدق الوفاءِ. فقال: صدقت!

ثم عرج وهو يقول: ﴿يوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ﴾[٣].

[حقيقة الصفاء]:

أما ترى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وضع قدماً واحداً بصدق الوفاء، على صخرة صمَّاء، فأمر الله تعالى: أن اتخِذوا من مقام إبراهيم مصلّى.

وحقيقة الصفاء: التخلق بخُلُق المصطفى ﷺ، والاقتداء بأصحابه أولي الصدق والوفاء، والانقطاع إلى الملك الأعلى.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٣٦].

(٢) هو الإمام الجليل: معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ: أحد أعلام الزهّاد والمتصوفين، وكان موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في بغداد ونشأ فيها، واشتهر بالصلاح، وقصده الناس للتبرك به، حتى كان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في جملة من يختلف إليه، توفي في بغداد سنة: [٢٠٠] هجرية، رحمه الله تعالى.

(٣) الإنسان: ٧.

وقيل: حقيقة الصفاء، طرح القلب على بساط الامتنان، واستقامة السر مع الملك الديان.

وقيل: تصفية القلوب لعلام الغيوب.

وقيل: صدق الافتقار، مع دوام الاضطرار؛ وترك الاختيار، مع حسن الانتظار.

وقيل: فناء الكلية تحت كمال القدرة، وطيران الهمة بأجنحة الشوق نحو رب العزة.

وقيل: هجرة السر إلى الله من المراتب والدرجات، والفرار إلى الله من المنازل والمقامات.

وقيل: هي مجانبة دواعي النفس، ومتابعة دواعي الروح، وإخماد صفات البشرية، تحت صفات الربوبية.

* * *

الحديث الخامس والعشرون

[الله يُرْبي الصدقات]:

أخبرنا شيخنا القاضي العدل، الثقة المقري الكبير الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي، رحمه الله رحمة واسعة، قال: أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد الكاتب، قال: أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد الغيلان، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، قال: أخبرنا محمد بن غالب، قال: حدثني عبد الصمد بن ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ[(١)] ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»[(٢)].

---

(١) الفَلُوّ: بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، هو: الْمُهْر.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه.

حثَّ هذا الحديث الشريف على بذل المعروف، ونبه على لزوم الإخلاص فيه، وبشر بعد الإخلاص بمضاعفته وقبوله، وكل هذا انطوى في الإخلاص، وهو نور العارفين بالله، إذ الأعمال بغير الإخلاص كلها ظلمة، وبه تتنور، وبذلك ارتفعت همم العارفين في الأعمال إلى الإخلاص: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(١).

إلَّا أن المتحققين بالتصوف، صفتْ سرائرهم، وحسنت شعائرهم؛ همهم ربهم، وَخُلُقُهُمْ سُنَّةُ نبيهم - ﷺ - عكسَ أهل المروق من أصحاب الدعوى.

[المسيئون إلى التصوف]:

أي بني! إذا نظرت في القوم الذين ادَّعوا التصوف اليوم، رأيت أن أكثرهم من الزنادقة، والحرورية، والمبتدعة!

ورأيتهم أكثر الناس جهلاً وحمقاً، وأشدهم مكراً وخديعة، وأعظمهم عجباً وتطاولاً، وأسواهم ظناً بأهل الزهد والتقوى، وأهل الصدق والصفاء(٢)؛

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) لقد وقف المسلمون في وجه الإسلام، ووقف المتصوفون في وجه التصوف!

إن الإسلام دين حق، وعدالة، وسماحة، ولو طبق المسلمون أخلاق الإسلام العظيم، لآمن به كثير من الناس، من غير دعوة إليه؛

لأن الذي يدين بغير الإسلام، إذا رأى المعاملة الحسنة من المسلمين فيما بينهم، لا بد وأن يعترف بأن المسلمين دعاة هداية ورشاد، فعلى الغالب، يدخل في دين الله الحق.

وأما أهل التصوف، فهم أهل دعوة إلى الصفاء والمصافاة مع حضرة الحق جلَّ وعلا.

وعلامات أهل الصفاء؛ أدق من أن يصفها واصف، وأعلى من أن تحتملها الأوهام؛

فمن علامة الصوفي: أن يصفو في أقواله، وأفعاله،

= وإذا رأينا بعض المتسبين إلى التصوف، قد أساؤا مع الله، ومع الناس، فعلينا أن نعلم بأن هؤلاء ليسوا من الصوفية، مهما زعموا أنهم من أهل الطريق، وأنهم من أهل الحسب والنسب! لأن أخلاقهم وأفعالهم تخالف قواعد الإسلام، وروح الطريق إلى الله تعالى؛

وأنا رأيتُ أحد هؤلاء المدَّعين، يجلس على باب مسجد في «رمضان» من الصباح إلى المساء، يبيع ويشتري، ولم يؤد صلاة واحدة! لا في المسجد ولا في غيره!

وأعرف إنساناً مات، كان لا يصلي في مساجد المسلمين، فسألته عن سبب عدم صلاته في المسجد؟! فقال: نحن نتصرف في الوقت! قلت: كيف يكون ذلك؟! وهل أنتم أفضل من رسول الله ﷺ، أو من أبي بكر رضي الله عنه، أو من باقي الصحابة؟ كانوا يسارعون إلى المساجد، ويُصلُّون جماعة لكل صلاة. قال: نحن نؤدي الصلاة بعد المغرب أو بعد العشاء، فتقع الصلاة حاضراً!!

وهو مع هذا الافتراء على الله تعالى، والادِّعاء الكاذب، كان يدجِّل على الناس ـ باسم الدين، أو باسم الصوفية ـ يُنجِّم لهم، ويأخذ من أموالهم، وأكثر زبائنه من النساء المغفلات!

وأعرف إنساناً جاور في أحد المساجد، وهو لا يجيد قراءة الفاتحة، وهو على أبواب القبر، يجر رجليه جرّاً، وهو مع ذلك يحاول أن يقرأ للنساء، ويزعم بأنه يقرأ في اللوح المحفوظ!!

فيا لها من مصيبة أتتنا من هؤلاء العاقّين لله ولرسوله وللإسلام؟!

وإذا أراد أتباع الإسلام ـ دين الحق ـ وأتباع الطرق الصوفية أن يسيروا على درب الهدى، فعليهم ألاَّ يرضوا بصحبة أو مشورة من يخالف الكتاب والسُّنَّة، في أقواله أو أفعاله؛ بل عليهم أن يمتثلوا أوامر الله تعالى، في الاستقامة على الصراط المستقيم، وأن يكونوا مع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

حفظنا الله من الزيغ والضلال، ووفقنا لاتِّباع الحق والهدى، وحفظ علينا ديننا وآخرتنا، والحمد لله على فضله وامتنانه.

وحركاته: من أدناس آفات النفس، والْخَلْق، والدنيا؛

وتصفوَ خواطره من غبار الإعراض عنه تعالى، والنظر منه إلى من سواه.

وأيضاً من علاماته: أن يكون مع النفس بلا نَفْس، ومع الخلق بلا خَلْق، ومع القلب بلا قلب، ومع الحال بلا حال، ومع الوقت بلا وقت؛

ويكونَ مستقيماً على بساط أمر الله، متذللاً تحت جلال عظمة الله، مستكفياً مستغنياً به عن غيره؛

قلبه مضروب بسياط خوف القطيعة والهجران،

وسره مضروب بسياط خشية البعد والحرمان، نفسه منوَّرة بنور الخدمة، وقلبه منوَّر بنور المحبة، وسره منوَّر بنور المعرفة.

ومن علامته أيضاً: أن يكون فؤاده طائراً بأجنحة الشوق،

وأركانه مستقيمة على طريق الحق بالحق للحق، مع حسن الانتظار، وعلى غاية الانكسار، مقبلاً بالكلية على مليكه، مع ترك الالتفات منه إلى ملكه، مع الفرار من المخلوقين، لشدة وَجَدانِهِ حلاوةَ الأُنس بربِّ العالمين.

رجوعه إلى الحق، واعتماده على الحق، وقراره مع الحق، من غير أن يلتفت منه إلى الخلق؛

وحشي القلب، سماوي الحديث، رباني العلم، فرداني الهمة، روحاني العيش، نوراني القَدَر[١]، وحداني المعنى؛

---

(١) أي: مؤمن بقَدَر الله تعالى، لا يرى الأفعال من المخلوقات إلاَّ من طريق النسبة. (من تحقيق النسخة القديمة).

جميع إرادته تحت إرادة المعبود، شاكراً لله في السر والإعلان، كي لا يقع في أبحر الكفران، ذاكراً لله بالقلب واللسان، في كل وقتٍ وأوان، كيلا يتيه في مفاوز النسيان؛

يعلم أن المولى يراه، ومن فوق العُلىٰ يرعاه، فهو فانٍ تحت عظمة نظره، متلاش بكليته تحت كمال قدرته، مستغرق صفاء أوقاته في أبحر امتنانه، مع سقوط كل حلاوة، غير حلاوة محبة ربه؛

مستقيم على صدق العبودية، من غير رؤية العبودية، فارغ القلب عن الشغل بغير الله، مع الاتكال بالقلب على الله، متواضع لأهل الإيمان، قائم على بساط الأحزان، حتى يأتيه اليقين[١] بالعفو والرضوان؛

لسانه مثل قلبه، يصدق في جميع أقواله وأفعاله، لا كما قال الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢].

شاكر لقليل النعمة، صابر على كثير الشدة، راض بقضاء ربِّ العزة، دائم على احتراس القلب لله بالحجة؛

لا يخاف دون الله، ولا يرجو غير الله، ولا يريد إلاَّ الله؛ لِمَا علم أنه لا مضر ولا نافع، ولا رافع ولا دافع، ولا معزٌ ولا مُذِلَّ، إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له؛

---

(١) الموت.

(٢) الصف: ٢.

متابع لسُنَّة المصطفى ﷺ، وأخلاقه، ومذاهب أصحابه؛

خائف من سوء العاقبة، مشتغل بالمقدِّرِ إذا اشتغل الناس بالتقدير، وبالمدبِّر إذا اشتغلوا بالتدبير، جالس على بساط الخدمة مع الحياء، متكيء على سرير الفقر والفاقة، مشرف على غرف القرب والمشاهدة، شارب بكأس الأُنس والمحبة، يطيل صمته، ويكظم غيظه، ويغلب شهوته، ويفارق راحته، من غير أن يلتفت إلى معاملة قلبه؛

[اعتبار. . . واحتقار]:

فارغ من مصالح نفسه، تارك لجميع راحاته وشهواته، خائف من الوحشة بينه وبين حبيبه، يكون أحسن الناس للناس وأتقاهم، وأصدق الناس وأصفاهم، وأعقل الناس وأرعاهم، ينظر إلى الدنيا بعين الاعتبار، وإلى النفس بعين الاحتقار، وإلى الآخرة بعين الاستبشار، وإلى الرب بعين الافتخار.

في الاستقامة كالجبل الراسي، لا تحركه الرياح الهائجة، لا يطلب ما ليس له، ولا يهتم بما قُسِمَ له، فارغ عن خدمة المخلوقين، مشتغل بخدمة رب العالمين؛ لا يعرض عنه ببلواه، ولا يختار حبيباً سواه؛

نفسه طاهرة من كل خطأ وزلة، وقلبه متبريء من كل سهو وغفلة، وسره من كل حول وقوة، بدون الله ـ سبحانه ـ لا يرضى؛

طعامه طعام المرضى، وبكاؤه بكاء الثكلىٰ، لا يتوكل قلبه

إلا عليه، ولا يُسلم إلاَّ إليه، ولا يشكر النعمة إلاَّ له[١]، ولا يطلب الحاجة إلاَّ منه؛

مستأنس بالله في جميع الأحوال، منقطع إليه في جميع الأعمال؛

وَذِكْرُ اللّهِ حديثهُ في جميع المقال، تارك اختياره إلى ذي الجلال.

نومه قليل، وحزنه طويل، وبدنه نحيل، وأنيسه الملك الجليل؛ حسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) أي: ولو شكر الناسَ بوصول النعمة له على أيديهم، فإنه مراقِبٌ أنها منه تعالى، فيشكر الله حقيقة، ويشكر الناس امتثالاً، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: لا يشكر الله من لا يشكر الناس. (من تحقيق النسخة القديمة).

الحديث السادس والعشرون

[صيام الدهر]:

أخبرنا شيخنا العارف بالله، خالي الشيخ: أبو بكر ابن يحيى النجاري، الأنصاري الواسطي، رضي الله عنه، قال: حدثني الأستاذ أبو القاسم علي بن أحمد البسري، قال: أنبأنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن مهدي، قال: أنبأنا محمد بن مخلد العطار، قال: أنبأنا محمد بن علي بن خلف، قال: أخبرنا عمرو بن عبد الغفار، عن حسن بن حُيي وسفيان الثوري، عن سعد بن سعيد، أخي يحيى بن سعيد، عن عمر بن أيوب، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتّاً مِنْ شَوَّال، كَانَ كَصِيَامِ ٱلدَّهْرِ»[١].

وسر ذلك: استغراق العبد في أداء الفرض، وانغماسه في

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والطبراني.

السُّنة المحمدية، فإنها بركة الوقت، وليس عند العارف أهم من استحصال بركة الوقت، بِفَرْضٍ أو سُنَّة، أو جمع بينهما؛ وهناك منتهى الهمم، فإن السُّنة المحمدية روح العارف، بها يقوم، وبها يقعد، وهي منار ألبابِ العارفين، فإن مشيد أركانها، ورافع بنيانها ﷺ: لم ينطق عن الهوى؛ بل هو جلجلة: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[1] ولورَّاثه العارفين هذه الحصة، من بركة اتِّباعه؛ أرواحنا وأرواح العالمين فداه.

[خزائن الله في أرضه]:

أي بني! اعلم أن قلوب أهل المعرفة خزائن الله في أرضه، يضع فيها ودائع سره، ولطائف حكمته، وحقائق محبته، وأنوار علمه، وآيات معرفته، التي لا يَطَّلِع عليها مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل، ولا أحد دون الله، بغير إذنه سبحانه،

فينبغي أن يكون العارف عالماً بصلاحه وفساده، مستقيماً على معاملته، عارفاً بربحه وخسرانه، حافظاً له من مكابدة عدوه، مستعيناً بالله في ذلك كله، وأن لا يدع في قلبه مكاناً لغيره، فإن الله تعالى إذا اطَّلَعَ على قلب، فرأى فيه غيره! مقته وخذله، وسلط عليه العدو.

ومعـاملة القلوب لله خاصـة، ومعاملة الأركـان مختلطة،

---

(١) النجم: ١٧.

ومعاملة القلوب تُقبل بغير الأركان[1]، ومعاملة الأركان لا تقبل بدون القلب، ولا تستوجب الثواب؛ فإن كان العبد في معاملة القلب مقصراً، وفي معاملة الأركان موفراً، حكم على توفير أحكامه بتقصير قلبه، وإن كان في معاملة القلب موفراً، وفي معاملة الأركان مقصراً، حكم على تقصير أركانه بتوفير قلبه.

[إذا كانت القلوب مع الدنيا!]:

روي أن موسى عليه الصلاة والسلام: مرَّ بقوم من بني إسرائيل قد لبسوا المسوح، وقد جعلوا التراب على رؤوسهم، ودموعهم منحدرة على خدودهم،

فبكى عليهم رحمة لهم! وقال: إلهي! أما ترحم عبادك؟ أما ترى حالهم؟

فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى! أنظر هل نفدت خزائني، أوَ لستُ بأرحم الراحمين؛ كلا، ولكن أعلمهم بأني بذات الصدور خبير، يدعونني بقلوب خالية عني، مائلة إلى الدنيا.

وروي أنه ﷺ، مرَّ برجل ساجد على صخرة، منذ ثلاثمائة سنة، كان يبكي ودموعه تجري على الأودية؛ فوقف عليه وبكى لبكائه، وقال: يا إلهي! أما ترحم عبدك؟

---

(١) يعني: إن العزم على صالح العمل بنية صحيحة مرضية، تُقبل عند العجز عن كل العمل أو إكماله؛ ولا يُقبل العمل بدون نية صحيحة خالصة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

فقال الله تعالى: لا أرحمه، قال: ولِمَ يا إلهي؟ قال: لأن قلبه يستريح إلى غيري، وكان له جبة يستتر بها من الحر والبرد!

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: لا يستقيم عمل العبد، حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه.

[صلاح القلب وفساده]:

وقال عليه الصلاة والسلام: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَد كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)].

وقال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى! قل لبني اسرائيل: أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب وَجِلة، وأبصار خاشعة، وأبدان نقية، ونية صادقة.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى[(٢)]: قلب المؤمن مضغة جوفانية، حشوها جوهرة ربانية، حولها روضة فردانية، تحتها ساحة نورانية، والله تعالى ناظر إليها في كل لحظة بالرحمة والشفقة، ويحول بينها وبين ما يشغله عنه،

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

(٣) التوبة: ١١١.

وقيـل: معاملة القلوب أمـر شديـد، والثبات عليهـا أشد وأصعب.

[القيام بحقوق الله]:

قيل لبعض أهل المعرفة: عبدٌ فقدَ قلبه، متى يجده؟

قال: إذا نزل فيه الحق، قال: متى ينزل؟ قال: إذا ارتحل عنه ما دون الحق.

ومعاملة القلوب على عشر مدارج:

أولها: الخطرات، ثم حديث النفس، ثم الهم، ثم الفكر، ثم الإرادة، ثم الرضا، ثم الاختيار، ثم النية، ثم العزيمة، ثم القصد؛ حتى يبلغ إلى عمل الظاهر.

فمن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب عند الخطرات، فهو على مدارج الصديقين،

ومن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب عند حديث النفس، فهو على مدارج المقربين،

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الهم، فهو على مدارج الأوابين،

ومن قام لله، على حفظ معاملة القلب عند الفكرة، فهو على مدارج المخلصين،

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الإرادة، فهو على مدارج المريدين،

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند الاختيار، فهو على مدارج المتقين،

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند النية، فهو على مدارج الزاهدين،

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند العزم، فهو على مدارج المنيبين،

ومن قام لله، فحفظ معاملة القلب عند القصد، فهو على مدارج المجتهدين،

ومن قام لله تعالى، فحفظ معاملة القلب على عمل الظاهر، فهو على مدارج العابدين، من عامة الموحِّدين.

[أدناس الشهوات]:

وقال إسحاق بن إبراهيم رحمه الله تعالى: لأنْ تردد قلبك إلى الله تعالى ذرة، خير لك من جميع ما طلعت عليه الشمس؛ وما من أحد صفا قلبه من أدناس الشهوات، وطهره من غبار الغفلات، ونقاه من كدورات الغوايات؛ إلا أطلعه الله على غاية الغايات.

وقال بكر بن عبد الله في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾[1] قال: الذي يمشي ببدنه على الأرض، وقلبه معلق بالله تعالى.

وقيل لأبي عبد الله رحمه الله تعالى: ما القلب السليم؟

---

(١) ق: ٣٣.

قال: قلب منقطع من علائق الدنيا، مملوء من حب المولى، لا يشكو من الشدائد والبلوى، ولا يهتك أستار الصيانة والتقوى.

ويقال: من لم يكن بينه وبين الله معاملة سرية(١) كان مسيئاً وإن كان محسناً؛

ومن لا يرى أن الكونين بما فيهما، بسير قدرته، وسريع لحظته، لم ينل معاملة القلب.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى(٢): اعلم أن معاملة القلب هي: تجديد السر مع الانفراد به، وملاحظة القلب على دوام حفظ الأوقات، مع صدق الحال، من غير التفات منه إلى الوقت والحال.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن لله تعالى عباداً، تطير قلوبهم إلى الله اشتياقاً، لا يدركها البرق الخاطف.

[القليل والكثير]:

ويروى أن النبي ﷺ قال: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة، ولا صيام، ولكن بحق وقر في قلبه.

إن الله تعالى لا يَرُدُّ القليلَ لقلته، ولا يقبل الكثير لكثرته؛ ولكن إنما يتقبل الله من المتقين.

ويقال: ليس على مقام الصدق، من تعلق قلبه بالمقام؛

(١) أي: عبادة خاصة لم يطلّع عليها بشرٌ، لأن هذا أقرب إلى الإخلاص.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٥٠].

ولكن الصادق من تعلق قلبه برب المقام مجرداً، حتى لا يرى مع الله غير الله أحداً.

ويقال: إذا صارت المعاملة إلى القلوب، استراحت الأبدان.

ويقال: لا تكون معاملة القلب، إلا لمن له قلب صاف، ليس بساه؛ صحيح ليس بجريح؛ بصير ليس بضرير؛ فريد ليس بطريد؛ طالب ليس بهارب؛ قريب ليس بغريب؛ عاقل ليس بغافل؛ سماوي ليس بأرضي؛ عرشي ليس بوحشي.

[تجريد القلب]:

وقال ثابت النساج رحمه الله تعالى: قرأت القرآن سنين بالخوف، فلم أجد القلب؛

ثم قرأته بالرجاء، فلم أجد القلب؛

ثم قرأته بتجريد القلب عن كل ما دون الله تعالى، فعند ذلك وجدته، ورأيت عند وجوده: الولاية الكبرى، والعزة العظمىٰ، والمراتب العليا.

وقال الله تعالى في بعض الكتب: القلوب بيدي، والحب في خزائني؛ فلولا حبي لعبدي، ما قدر العبد أن يحبني؛ ولولا ذكري له في الأزل، ما قَدِرَ أن يذكرني؛ ولولا إرادتي إياه في القِدَم، ما قدر العبد أن يريدني.

قيل: إن عارفاً رأى رجلاً يدور حول المسجد، فقال له: يا هذا! ما تطلب؟ قال: أطلب موضعاً خالياً أصلي فيه.

فقال: خَلِّ قلبك عما دون الله، وَصَلِّ في أي موضع شئت.

ويقال: بقَدْر إقبالك على الله، يكون قرب القلب منه، وما اطلع الله على قلب عبد فرأى فيه غيره إلاَّ عذبه الله به، وَوَكله إليهِ.

[عند المولىٰ يطيب القلب]:

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى(١): القلب إذا وضعتَه عند الدنيا خاب، وإذا وضعته عند العقبى ذاب، وإذا وضعته عند المولى طاب.

وقال: الدنيا خراب، وأخرب منها: قلب من يعمرها،
والآخرة دار عمران، وأعمر منها: قلب من يطلبها،

وقال: مفاوز الدنيا تقتطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقتطع بالقلوب.

وقال: خراب النفس من عمارة القلب، وعمارة النفس من خراب القلب.

سُئل واحد من أبناء القلوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال: قلبي يتكلم. قيل: مع مَنْ؟ قال: مع مُقَلِّب القلوب.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

الحديث السابع والعشرون

[المرء مع حبيبه]:

أخبرنا الشيخ الجليل، العارف بالله، شيخنا: أبو الفضل علي الواسطي القرشي ـ يعرف بابن القاري ـ رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد، بن المظفر الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله ابن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا بشر بن خالد، قال: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال:

«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»(١).

في هذا الحديث الشريف، من الإلزام بمحبة أحباب الله ورسول الله ﷺ، ما فيه بلاغ للموقنين، وهدى للمتقين، ونور للعارفين؛

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أنس، وابن مسعود، رضي الله عنهما.

فإن من تدبر سر المعية، التي أفصح بها هذا النص الأشرف، انسلخ إلاَّ عن محبة الله تعالى، ومحبة من أحبه الله؛ وأحب الله؛

وكذلك العارفون رضي الله عنهم، ومن العارفين[١] هم أهل القلوب المنيرة، أصحاب صفاء السريرة، والعمدة على القلوب.

[ذكرى لأهل القلوب]:

أي بني! اعلم أن الله تعالى ذكر في محكم كتابه للعباد: أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه، وقضاه وتقديره، وحكمه وتدبيره، ومشيئته في خلقه؛ وضرب الأمثال، وذكر آلاءه ونعماءه، ولطائف صنعه، وكمالَ قدرته، وعظيمَ ربوبيته. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[٢].

أشهَدَ في هذه الآية جميعَ العباد، شرف مراتب أبناء القلوب، وبيَّن فضلهم على مَنْ دونهم.

قال بعض المفسرين، في معنى قوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: أي: قلب واثق بجميع ما ذكره الله سبحانه في كتابه، من الوعد والوعيد وغيرهما؛

وقال بعضهم: لمن كان له عقل، يزجره عن جميع الضلالات والغوايات، في جميع الحالات.

---

(١) وردت عبارات النسخ الثلاث هكذا، ولعل الصواب: «والعارفون» وحذف «من».
(٢) ق: ٣٧.

وقال بعضهم: لمن كان له ذهنٌ، يَفِرُّ به عن الشرك والشك.

وقال بعضهم: لمن كان له يقين، يسقط عنه وثائق الغرور، في جميع الأمور، إلى أن يصل إلى الملك الغفور.

وقال بعضهم: لمن كان له سر، يتلاشى معه جميع أوصاف العبودية، تحت إشارة الربوبية، عند مشاهدة الحق.

وقال بعضهم: لمن كان له استقامة السر مع الحق، من غير التفات منه إلى ما سواه.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب مفرد لتفرد الفرد، وإن الله تعالى زين قلوب العارفين بزينة المعرفة، كرماً وامتناناً؛ وزين قلوب المريدين بالعظمة والهيبة، رحمة وإحساناً؛

وحجب قلوب الغافلين بالجهل والغفلة، محنة وخذلاناً؛

وطبع على قلوب الكافرين، بالإبعاد والنُكرة، طرداً وحرماناً.

[أقسام القلوب]:

والقلوب ثلاثة:

١ ـ قلب يطير في الدنيا حول الشهوات!

٢ ـ وقلب يطير في العقبى حول الكرامات!

٣ ـ وقلب يطير في سدرة المنتهى حول الأُنس والمناجات!

فقلب معلق بالدنيا، وقلب معلق بالعقبى، وقلب معلق بالمولى؛

وقلب حريق، وقلب غريق، وقلب سحيق؛

وقلب منتظر للعطاء؛ وقلب منتظر للرضاء، وقلب منتظر للقاء؛

وقلب مشروح، وقلب مجروح، وقلب مطروح؛

وقلب منيب: وهو قلب آدم عليه الصلاة والسلام،

وسليم: وهو قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام،

ومنير: وهو قلب «محمد» عليه أفضل الصلاة والسلام.

* * *

الحديث الثامن والعشرون

[تعوذات نبوية]:

أخبرنا شيخنا القاضي الثقة، المقري الجليل الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي القرشي، رحمه الله رحمة واسعة، قال: أخبرني أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي، قال: أخبرني عبد الله أحمد السرخسي، قال: حدثني أبو عبد الله محمد الفربري، قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم: قال: أخبرنا الحسين، عن زائدة، عن عبيد الملك، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: تعوذوا بكلمات، كان النبي ﷺ يتعوذ بهن:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ»(١).

---

(١) هذا الحديث ورد بروايات شتى، وطرق كثيرة، وأقرب لفظ يحاكيه مع زيادة فيه: ما رواه الحاكم، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: =

استعاذ ﷺ من القواطع عن الله تعالى، فإن الجُبْنَ: مقعِدٌ عن قول الحق؛ والبخل: مقصر عن طلب الحق؛ وأرذل العمر: صارف عن بذل الهمة في الحق؛ وفتنة الدنيا: قاطعة عن الحق؛ وعذاب القبر: نتيجة أولئك، والعياذ بالله تعالى؛

وفي مضمون هذه الاستعاذة الشريفة المحمدية، إرشاد بإعلاء الهمة عن الجبن والبخل، وحث عن التجرد إلى الله تعالى، وهذا بغية العارفين.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، يا مصلح الصالحين، يا ولي المتقين، يا دليل المتحيرين، يا أنيس العارفين، يا أرحم الراحمين!

[بَيْنَ الرضا والتسليم]:

أي بني! اعلم أن العبد إذا علم أن الله سبحانه حكيم فيما حكم، وقدير عالم بما قضى ودبَّر؛ وعرف أنه جاهل بالمحبوب والمكروه، رضي عن الله في حكمته وقضائه.

والرضا: هو سكون القلب إلى الحكيم، وترك الاختيار مع التسليم، ولا شيء أشد على النفس من الرضا بالقضاء، لأن الرضا بالقضاء، يكون على خلاف رضا النفس وهواها، فطوبى لعبد آثر رضا الله تعالى، على رضا نفسه.

= «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يُسمع، ونفس لا تشبع، ومن الجوع، فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة، فإنها بئست البطانة، ومن الكسل، والبخل، والجبن، ومن الهرم، وأن أُرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات». أُنظر: فيض القدير: (٢ ـ ١٢٣/١٢٤).

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام، كان يقول في مناجاته:

إلّهي! خصصتني بالكلام، ولم تكلم بشراً قبلي، فدلني على عمل أنال به رضاك.

فقال الله تعالى: يا موسى! رضائي عنك، رضاكَ بقضائي.

وقال الداراني رحمه الله تعالى[١]: أرجو أن أكون قد أعطيت من الرضا طرفاً، وذلك أن الله تعالى لو أدخلني النار، لكنت بذلك راضياً، وأن أحق الناس بالرضا: أهل المعرفة؛ وهو باب الله الأعظم.

[جبريل.. واللوح المحفوظ]:

وروي في بعض الكتب: أن جبريل عليه الصلاة والسلام، كان يهبط إلى الأرض، فرأى رجلاً عليه أثر السكينة،

فقال: يا رب! ما أحسن هذا الرجل؟

فقال الله تعالى: يا جبريل! أُنظر اسمه في اللوح في أسماء أهل النار.

فقال: إلّهي! ما هذا؟

فقال: يا جبريل! إني لا أُسأل عمّا أفعل، وأنه لا يبلغ أحد من خلقي علمي، إلا بما شئت.

فقال جبريل: يا رب! أتأذن لي أن أخبره بما رأيت؟ قال:

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٣٦].

لك الإذن. فهبط جبريل وأخبره بحاله، فخر الرجل ساجداً،

وكان يقول: لك الحمد يا مولايَ! على قضائك وقَدَرِك، حمداً يعلو حمد الحامدين، ويزيد على شكر الشاكرين.

قال: فما زال يحمد الله تعالى، حتى ظن جبريل أنه لم يسمع ما قال!

فقال: يا عبد الله! وهل سمعتَ ما قلتُ لك؟

قال: نعم، أخبرتني أنك وجدتَ اسمي بين أسماء أهل النار، في اللوح المحفوظ.

قال: فما هذا الحمد والشكر؟

قال: سبحان الله يا جبريل! إن الله تعالى قد قضى مع كمال علمه، وسعة رحمته وحلمه، ولطائف ربوبيته، وحقائق حكمته، فمن أنا حتى لا أرضى؟! تبارك الله ربي؛ ثم خرَّ ساجداً، وأخذ في التسبيح والتحميد.

قال: فرجع جبريل إلى الله.

فقال الله تعالى: ارجع إلى اللوح المحفوظ، وانظر ماذا ترى؟ فرجع فإذا اسمه في أسماء أهل الجنة. فقال: يا جبريل! هو ما ترى، إني لا أُسأل عما أفعل.

فقال جبريل: إلٓهي! ائذن لي حتى أخبره: بما رأيت.

فقال: لك الإذن.

قال: فهبط جبريل فأخبره بما رأى.

قال: لك الحمد يا سيدي ومولاي! على قضائك وقدرك،

حمداً يعلو حمد الحامدين، ويزيد على شكر الشاكرين.

فرجع جبريل متعجباً، من كمال رضاه عن الله، بكل ما حكم له!

[الأمرُ أمرُه]:

وكذلك روي: أن الله تعالى، أوحى إلى نبي من أنبيائه: أنْ قُلْ لعبدي فلان ابن فلان أنك من أهل النار؛ فلما بلُغ إليه الرسالة، حمِدَ الله تعالى،

وقال: الحمد لله على ما قضى، فالأمر أمره، والحُكْمُ حُكْمُه.

فقال الله تعالى لنبيه: إلْحَقْ به ثانياً، وأخبره بأني قد غفرتُ لك، حيث رضيتَ بقضائي.

فبُلِّغَ الرسالة؛ فشهق الرجل شهقة وخرَّ ميتاً.

[درجات القضاء]:

وأن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه:

١ ـ قضاء النعمة؛ فعلى العبد فيه الرضا والشكر.

٢ ـ والثاني: قضاء الشدة؛ فعلى العبد فيه الرضا والصبر؛

٣ ـ والثالث: قضاء الطاعة، فعلى العبد فيه الرضا وذكر المِنَّة، والقيام بالواجب إلى الموت،

٤ ـ والرابع: قضاء المعصية، فعلى العبد فيه الرضا عن الله والتوبة.

[من رضيَ فله الرضا]:

وسُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنـه: عن القضاء والقدر؟

فقال: ليلٌ مظلم، وبحرٌ عميق، وسرُّ الله الأعظم؛ فمن رضي به فله الرضا، ومن سخط فله السخط!

وروي أنه لما وضع المنشار، على رأس زكريا عليه الصلاة والسلام، همَّ أن يستغيث بالله تعالى، فأوحى الله إليه: يا زكريا! إمَّا أن ترضىٰ بحكمي لك، وإما أن أخرب الأرض، وأهلكَ من عليها. فسكت حتى قُطع نصفين.

[مرض الصالحين]:

وحكي أن رابعة البصرية ـ رحمها الله تعالى[١] ـ مرضت، فقيل لها: أما ندعو لك طبيباً؟

فقالت: مَنْ قضىٰ عليَّ؟ قالوا: اللَّهُ تعالى. قالت: أوَ مثلي من يرد قضاء سيده؟!

ومرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقيل له: أما ندعو لك الطبيب؟ فقال: قدرآني. قيل: وما قال؟ فقال: قال: إني فعَّالٌ لما أريد.

شكىٰ نبيٌّ من الأنبياء بعض ما ناله من المكروه، فأوْحَىٰ اللَّهُ

---

(١) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

إليه: كم تشكوني، ولست أهل ذم ولا شكوى! فهكذا كان بدء شأنك في علمي، فَلِمَ تسخط؟ أفتحب أن أعيد الدنيا من أجلك! أو أبدل اللوح بسببك! فأقضي ما يسرك كما تريد، لا كما أريد، ويكون ما تحب دون ما أحب، فبعزتي حلفت: لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى، لأسلبنك ثوب النبوة، ولأوردَنـك النار ولا أبالي.

[عجائب أهل الابتلاء!]:

قال بعض الحكماء: ليس العجب ممن ابتُلِيَ فصبر؛ إنما العجب ممن ابتلي فرضي.

قيل لعبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: أي الرجلين أفضل: رجل أحب البقاء ليطيع، أو رجل أحب الخروج شوقاً إليه؟

فقال: لا هذا ولا ذاك؛ ولكن رجل فوَّض أمره إلى الله، وقام على قدم الصدق في الرضا، فإن أبقاه أحب ذلك، وإن أخرجه أحب ذلك؛ فهذه منازل الرضا عنه، وخُلُقُ العارف معه.

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله(١): ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله.

---

(١) هو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، بن مروان بن الحكم، الأموي القرشي، أبو حفص، الخليفة الصالح، والملك العادل، اعتبره المسلمون خامس الخلفاء الراشدين، ولد في المدينة المنورة سنة: [٦١]: هجرية، ونشأ فيها، وولي إمارتها للوليد، ثم أصبح وزيراً لسليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة: [٩٩] هـ ولم تطل مدة خلافته، قيل دُسَّ له سُمٌ وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به سنة: [١٠١] هـ، ومدة خلافته سنتان ونصف. رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وقال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: إن لله عباداً، يستحيون من الصبر، ويسلكون مسلك الرضا؛ وإن له عباداً، لو يعلمون من أين يأتي القدر، لاستقبلوه حباً ورضا!

[في الصبر والشكر]:

وفي الخبر: إن أول ما كتب الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ: لا إله إلاّ الله، محمدٌ رسول الله، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر لنعمائي، كتبته صدِّيقاً، وبعثته يوم القيامة مع الصدِّيقين؛

ومن لم يرض بقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليختر رباً سوائي!

[سلِّم نفسَك لله]:

يقول قائلهم رضي الله عنهم: يانفس! إني أسلمتك إلى ربك، على أنه إن شاء جوَّعك، وإن شاء أشبعك؛ وإن شاء أعزك، وإن شاء أذلك؛ وإن شاء أحياك، وإن شاء أماتك؛

وهو أغنى وأولى بكِ منك؛ وأنت بالكلية له يا نفس! فما لك والحكم على من له الحكم والخلق والأمر؟!

[العيش الطيِّب]:

وقيل ليحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى[1] ـ: متى يطيب عيش المؤمن؟

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

قال: إذا رضي عن الله تعالى، بكل ما قضى وقدَّر، وحكم ودبَّر.

وقيل له: متى يكون العبد راضياً عنه؟

قال: إذا قال العبد لربه: إلهي! إنْ أعطيتني شكرتُ، وإن منعتني رضيتُ، وإن دعوتني أجبتُ، وإن تركتني عَبَدْتُ.

والزهد عشرة أجزاء؛ وأعلى درجة الزهد: أدنى درجة الورع،

والورع عشرة أجزاء؛ وأعلى درجة الورع: أدنى درجة اليقين،

واليقين عشرة أجزاء؛ وأعلى درجة اليقين: أدنى درجة الرضا، لأن الرضا أعلى درجة العبودية،

وإن الله سبحانه جعل الرَّوْح والراحة في الرضا، وجعل الهمَّ في السخط.

[لو كتبتَ الحديث!]:

وحكي أن عطية الحمصي رحمه الله تعالى قال: إن والدي قال لإبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى[1]: يا أبا اسحاق! لو كتبتَ من هذا الحديث كما كتبنا.

فقال له: اشتغلتُ بثلاثة أجزاء، فإن فرغتُ منها فعلتُ ما تقول.

قال: وما هي؟ قال: التوكل على الله فيما تكفل به من

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٢].

الرزق، وإخلاص العمل لله، والرضا بقضاء الله؛

فأما التوكل والإخلاص، فقد فرغت منهما بعون الله، وأما الرضا بقضاء الله، فإني منه في شغل شاغل.

قال: فبكى والدي بكاء شديداً، وقال: ما أبعدنا عما أنت فيه! هل يكون فوق الرضا منزلة نقدر أن نقول فيها شيئاً؟!

[الراضون عن ربهم]:

قال محمد بن واسع رحمه الله تعالى[1]: إني لا أغبط إلاَّ من أصبح وليس له غداء ولا عشاء، وهو عن الله تعالى راض.

قيل لسفيان الثوري رضي الله عنه[2]: متى يكون العبد عن الله راضياً؟

قال: إذا سرته المصيبة، كما سرته النعمة!

وقال رجل عند الإمام الحسين رضي الله عنه: إن أبا ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ كان يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة.

فقال: رحم الله أبا ذر! أمّا أنا فأقول: من رضي بحسن اختيار الله تعالى، لم يتمنَّ غير ما اختاره الله له.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى[3]: طلبت العلم فلم

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٦].

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٩٦].

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

أسترح، ثم طلبت العمل فلم أسترح، فرضيت عن الله، فغرقت في الراحة.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ليس الشأن في أكل خبز الشعير، ولبس الصوف، لكن الشأن في الرضا عن الله تعالى.

سَيَكُـونُ الَّـذِي قَضَىٰ كَـرِهَ الْعَبْـدُ أَمْ رَضِي
لَيْسَ هـٰذَا يَـدُومُ؛ بَـلْ كُـلُّ هـٰذَا سَيَنْقَضِـي

وكان مكتوباً على سيف عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قَدْ قَضَىٰ فِيكَ حُكْمُهْ فَـانْقَضَىٰ مَا يُـرِيـدُهْ
فَـأَرِدْ مَـا يَكُـونُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَـا تُـرِيـدُهْ

أيَّ يَـوْمَيْ مِنَ الْمَـوْتِ أَفِـرُّ يَـوْمَ لَا يُقْدَرُ أَمْ يَـوْمَ قُـدِرْ
يَـوْمَ لَا يُقْـدَرُ لَا يَـأْتِي بِـهِ وَمِنَ الْمَقْدُورِ مَا يُنْجِي الْحَذِرْ

* * *

الحديث التاسع والعشرون

[حِصْنُ اللَّهِ أَمْنٌ]:

أخبرني خالي وسيدي: أبو المكارم منصور الرباني، البطايحي الأنصاري الواسطي، رضي الله عنه، قال: حدثني السيد الشريف حسن بن عسلة الرفاعي ـ برواق أبي، في أمِّ عَبيدة ـ قال: حدثني النقيب السيد يحيى الرفاعي، قال: حدثني أبي السيد ثابت، قال: حدثني أبي السيد علي الحازم الرفاعي، قال: حدثني أبي السيد علي أبو الفضائل، قال: حدثني أبي السيد الكبير: رفاعة الحسن، المكي، الحسيني ـ نزيل إشبيلية ـ قال: حدثني أبي السيد محمد أبي القاسم، عن أبيه السيد الحسن القاسم، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمن الرضي المحدِّث القطيعي، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى، عن أبيه الأمير السيد إبراهيم المرتضى، عن أخيه الإمام علي الرضا، عن أبيه الإمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام علي زين العابدين، عن أبيه الإمام الحسين ـ الشهيد بكربلاء ـ عن أبيه أمير المؤمنين علي

المرتضى، عن ابن عمه سيد المرسلين، وأشرف المخلوقين، نبينا محمد المصطفى ﷺ، أنه قال: حدثني جبريل عليه الصلاة والسلام، قال: حدثني ربُّ العزة سبحانه وتعالى قال:

«كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ حِصْنِي، فَمَنْ قَالَهَا دَخَلَ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي».

هذا الحديث القدسي، الذي وصل إلينا بالسند النبوي، فيه من إعظام شأن كلمة التوحيد، ما يزيد العبد إيماناً، ويملؤه عرفاناً، ويلزمه بالمداومة على الذكر بهذه الكلمة، التي هي روح التوحيد، وما على قائلها بعد الإيمان بمبلِّغها ﷺ من بأس؛

وكونها آخذة بالعبد إلى الافتقار إلى الله تعالى، والانقهار تحت عظمة فردانيته، فلذلك صارت حصناً للعبد، بإذن الله تعالى.

[صفتان]:

أي بني! اعلم أن الغِنىٰ والفقر صفتان: صفة لله، وصفة للعبد؛ فصفة الفقر للعبد، وهو صفة مدح؛ كما أن صفة الغنى لله، وهو صفة مدح؛

والفقر بالحقيقة: صفة العبد، إذ لا يشوبه غنى،

والغنى بالحقيقة: صفة الربِّ، إذ لا يشوبه فقر؛

وإنَّ أشرف صفات العبد: افتقاره إلى الله تعالى في كل شيء،

كما أن أشرف صفات الرب: استغناؤه عن العبد في كل شيء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ﴾[١]،

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٢].

واعلم أن الافتقار إلى الله مقسوم: على النفس، والروح، والقلب، والسر؛

ففقر النفس إلى الله تعالى، يكون على سبيل القرب والرضاء؛

وفقر السر إلى الله تعالى، على سبيل المشاهدة واللقاء؛ فكلما رأى العبدُ نفسَه متحيرة، على باب عهده ووفائه، رجع بالافتقار إلى باب عفوه؛

وكلما رأى روحه متحيرة، على باب وده ومحبته، رجع بالافتقار إلى باب عنايته.

ومن حقيقة الافتقار، الاستكفاء بالكافي، وطرح النفس السقيمة بين يدي المعافي،

وأيضاً حقيقته: انتظار السَّبَبِ من المسبِّبِ، مع رؤية السَّبَبِ، والاشتغال بالمسبِّبِ، مع نسيان السَّبَبِ،

وأيضاً: من حقيقة دوام التبصيص والاعتذار، بلسان صدق الافتقار، مع غاية الانكسار،

ومن حقيقة: تخليص الأسرار من رؤية الأعمال، وترك الاعتماد على حسن الحال،

---

(١) سورة «محمد» ﷺ: ٣٨.

(٢) فاطر: ١٥.

ومن حقيقته: أن لا ينصرف العبد عنه بخلقه ولا بملكه.

[الغنىٰ بالله، لا بخَلقِه]:

قيل لأبي عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ:
متى يكون العبد غنياً محتاجاً، وهوفي غناه وحاجته محمود؟
قال: إذا كان غناه بالله عن خلقه، وحاجته إلى ربه.

قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: إن العبد لا يعرف الله حق معرفته، حتى لا يعرف الفاقة الكبرى. قيل: وما الفاقة الكبرى؟ قال: أن يعلم أنه لم يهتد إلى ربه إلاَّ به، ولا ينجو من سخطه إلا به.

ويقال: الافتقار لواء أهل الولاية.

ويقال: الافتقار طرح النفس بين يدي الربِّ، كالصبي الرضيع بين يدي الأم.

[رعاية، وولاية، وعناية]:

ويقال: الافتقار فراغة في رعاية، ورعاية في ولاية، وولاية في عناية، وعناية في هداية؛

فمن لا فراغة له، لا رعاية له؛ ومن لا رعاية له، لا ولاية له؛ ومن لا ولاية له، لا عناية له؛ ومن لا عناية له، لا هداية له.

[بين النعمة والرخاء]:

أي بني! اعلم أن الخلق بأسرهم فقراء، محتاجون إلى الله تعالى، أسراء تحت مشيئته، ضعفاء تحت علمه وقدرته، لا

يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم: نفعاً ولا ضراً، ولا ذُلًّا ولا عزاً، ولا موتاً ولا حياة؛

منصوبون بين سهام النعمة والرخاء، موقوفون بين القطيعة والشقاء؛ مستورة عنهم خواتيمهم؛ لهم الخوف والرجاء، والفقر والدعاء، والتضرع والبكاء؛

فما أفقر مَنْ هذه صفته؟ وما أضعف من هذه حالته؟!

[مراتب المحبين]:

واعلم أن الافتقار أَجَلُّ مراتب المحبين، وأرفع منازل المنيبين، وأزلف حالات المريدين، وأعظم آلات الأوابين، وأجلُّ مقامات التائبين، وأعلى وسائل المقربين؛

وهو أصل العبودية، وصدر الإخلاص، ورأس التقوى، ومخُّ الصدق، وأساس الهدى؛

فمن أراد أن يدخل في عصبة أهل الافتقار، فينبغي أن لا يهتم بمصلحة نفسه وعياله، وأن يتملق بين يدي الله تعالى، وأن يكون آيساً مما سوى الله، مع الافتقار إلى الله؛

كرجل يكون في بئر مظلم، ورأس البئر مسدود، وأثره مستور، وليس له في البئر مؤنس، ولا للخلق على رأس البئر ممر!

فهل يكون رجاؤه، وافتقاره إلى أحد دون مولاه؟!

[ولا مغيث إلاّ الله]:

وحكي أن رجلاً من الصالحين، وقع في بئر في البادية ـ وكان ضريراً ـ فمرت على رأس البئر قافلة، فناداهم الرجل من قعر

البئر، فهتف هاتف: أتستغيث بغيري، وأنا غياث المستغيثين!

قال: فسكت الرجل، فإذا أهل القافلة سدوا رأس البئر، وأرادوا أن يخفوه، كي لا يقع فيها أحد، فصار الرجل آيساً من نفسه، وانقطع رجاؤه عن الخلق؛ ثم قال:

إلهي! الآنَ لم يبق لي غيرك، وأنا فقير إليك؛ فسلط الله أسداً حتى فتح رأس البئر، وهبط فيه، فأخذ الرجل بذنب الأسد، فرفعه إلى رأس البئر؛ فنودي من فوقه: لا تقطع قلبك عمن ينجيك، بتلفٍ مِنْ تَلَفٍ!

[عبادة.. واستعانة]:

واعلم أن الله تعالى وضع تحت قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: كمال وفاء صدق العبودية، ثم علم كمال ضعف العبد وعجزه، فأعطاه كلمة أخرى، وجمع له خير الدارين، وهو قوله تعالى: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

فكل حق لله تعالى على العبد، تحت قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وكل فقر للعبد إلى الله تعالى، تحت قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

[دعاءٌ عجيبٌ من أعرابي]:

وقيل: إن أعرابياً وقف بالموقف[2] فقال:

---

(١) فاتحة الكتاب: ٤.

(٢) أي: في عرفات.

إلَهي ! إليك خرجتُ، وأنت أخرجتني ؛ ولك وقفتُ، وأنت أوقفتني ؛ وقد عصيتُ أمرك، وأنت خذلتني ؛ ومع ذلك لا عذر لي ولا حُجَّة، فإن رحمتني وعفوت عني، فأنت أهل الإحسان، ولا فقير لك أفقر مني، يا سيدي ويا مولاي ![1] .

[صفاء . . وكدورة !] :

واعلم أن الله تعالى كلف العباد صدق الافتقار، كيلا يتجاوزوا عن حد العبودية، إلى حد الربوبية ؛ ومن الإرادات العقلية، إلى الإرادات الهوائية ؛ ومن الصفاوة الروحية، إلى الكدورة النفسية ؛ ومن الهمم العلوية، إلى الهمم السفلية .

[خطابات للحبيب]:

قال الله تعالى لنبيه الأعظم عليه الصلاة والسلام:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[3] وقال: ﴿بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ

---

(١) رأى أحدهم: أبا نُواس بعد موته، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفرَ لي . قال: بِمَ؟! قال: بأبيات كتبتها، هي تحت الوسادة ؛ ففتشوا عنها، فإذا مكتوب فيها:

إِذَا كُنْتَ بِالنِّيرَانِ أَوْعَدْتَ مَنْ عَصَى ... فَوَعْدُكَ بِالْغُفْرَانِ لَيْسَ لَهُ خُلْفُ
لَئِنْ كُنْتَ ذَا بَطْشٍ شَدِيدٍ وَنِقْمَةٍ ... فَمِنْ وَصْفِكَ الإِحْسَانُ وَالْمَنُّ وَاللُّطْفُ
رَكِبْنَا خَطَايَانَا وَبِشْرُكَ مُسْبَلٌ ... وَلَيْسَ لِشَيْءٍ أَنْتَ سَاتِرُهُ كَشْفُ
إِذَا نَحْنُ لَمْ نَهْفُو وَتَعْفُو تَكَرُّماً ... فَمَنْ غَيْرُنَا يَهْفُو وَغَيْرُكَ مَنْ يَعْفُو

أقول: نسأل الله العافية، من المعاصي والمنكرات، والعار والنار! آمين.

(٢) آل عمران: ١٢٨ .

(٣) آل عمران: ١٥٤ .

جَمِيعاً﴾[١]، وقال: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[٢].

نعم؛ صلاح العبد بالافتقار، نعم؛ الاستعانة بالمستعان، نعم؛ سبب الوصول إلى طريق الهداية، واللحوق بأهل الولاية: الافتقار.

---

(١) الرعد: ٣١.

(٢) الأعراف: ٥٤.

الحديث الثلاثون

[الغسل للجمعة]:

أخبرنا الشيخ الثقة، العارف بالله تعالى، خالي: أبو بكر ابن يحيى النجاري، الأنصاري الواسطي، رضي الله عنه، قال: أخبرنا أبو غالب محمد بن عبد الواحد القزاز، قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي، قال: أخبرنا إسحاق بن سعيد، قال: أخبرنا محمد بن هرون، قال: أنبأنا أبو آمنة محمد بن إبراهيم، قال: أخبرنا محمد بن سابق، قال: أخبرنا إبراهيم بن طهمان، عن منصور، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَاحَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ**»(١).

هذا الحديث الشريف، فيه من إعظام مناجاة الله: الغاية. فإن العبد إذا صلَّىٰ ناجى ربه، سيما في يوم الجمعة ومشهدها،

---

(١) وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: ألم تسمعوا رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ**» [رواه البخاري، ومسلم].

فإنه من أعظم مشاهدة الحضرة؛

والاغتسال عبارة عن غسل القلب والقالب من الوجودات، هذا مع ما فيه من فضيلة التطهر الشرعي، وهذا سرٌّ من أسرار الاغتسال، ولم يكن من حكم شرعي، إلاَّ وفيه من الأسرار الباطنة والظاهرة، ما تَحار له العقول!

[تدبير ولطف]:

أي بني! اعلم أن من نظر في حسن تدبير الله تعالى، ولطائف صنعه، وكمال قدرته في كل شيء، علم أنه تعالى قائم على نفسه بما كسبتْ، وأنَّ نواصي العباد بيده، يقلبهم كيف يشاء، وأن سعادتهم وشقاوتهم في ماضي حكمته ، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه؛

فمتى تحقق ذلك: اعتصم بالله، واستسلم له، وفوَّض الكلية إليه، وقام بقدم الاضطرار بين يديه، وبقي بلا حول ولا قوة، ولا اختيار ولا تعليق، ولا تدبير ولا سؤال؛

فإن راحة الدارين وسرورهما: في الاعتصام بالله؛

وهمومهما: في الاعتصام بغير الله، ورؤية الحول والقوة بالنفس! ألا ترى قول الله تعالى، لنبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[1].

ومعاملة الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام في التيه،

---

(١) الأعراف: ١٨٨.

مكافأة لقوله: ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾(١)،

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾(٢) أي: اخلع عن قلبك أهلك وولدك، وكل ما سوى الله؛

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾(٣).

أضافها إلى نفسه. قال: ما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾(٤) فقال له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾(٥).

قال الله تعالى: يا موسى! هذه التي قلتَ: أتوكأ عليها، صارت عدوة لك! لتعليق قلبك بغيري.

فرجع موسى بقلبه إلى الله تعالى، فلما علم الله ذلك منه: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾(٦).

وقال لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾(٧).

[إذا نزلتْ بلية]:

يقول الله تعالى: ما من عبد نزلت به بلية، فاعتصم بمخلوق

---

(١) المائدة: ٢٥.
(٢) طه: ١٢.
(٣) طه: ١٧ ـ ١٨.
(٤) طه: ١٨.
(٥) طه: ١٩ ـ ٢٠.
(٦) طه: ٢١.
(٧) التوبة: ٥١.

دوني، إلَّا قطعتُ أسباب السماء من يديه، ووكَلْتُه إلى نفسه!

وما من عبد نزلت به بلية، فاعتصم بي دون خلقي، إلَّا أعطيتهُ قبل أن يسألني، واستجبت له قبل أن يدعوني.

[المَخْرَجُ المفيد]:

وبلغنا أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام:

وعزتي وجلالي، وعظمتي وارتفاعي فوق خلقي، لا يعتصم عبد من عبيدي بي دون خلقي، فأعلمَ ذلك من قلبه، فيكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضـون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من ذلك مخرجاً؛

وعزتي وجلالي، وعظمتي وارتفاعي فوق خلقي، لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، فأعلم ذلك من قلبه، إلَّا قطعتُ عنه الأسباب، ثم لا أبالي في أي واد أهلكته؛ وأملأ قلبه شغلاً، وحرصاً، وأملاً، لا يبلغه أبداً!

[بمن نعتصم؟]:

وفي الخبر: من اعتصم بالله واستعان به، أحوج الله إليه الناس[1]، وأنطقه بالحكمة، وجعله من ملوك الدارين؛

---

(١) قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: كان سالم بن أبي الجعد رحمه الله تعالى يقول: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم، فاشتغلت بالعلم، فما مضى عليَّ سنة، حتى جاءني الخليفة زائراً، فلم أفتح له! (تنبيه المغترين، ص ١٥). رضي الله عنه، فإنه زهد في دنيا الناس، فاحتاجوا إلى علمه!

ومن اعتصم بمخلوق دونه، ووكل إليه قلبه، عذَّبه الله، وقطع عنه أسباب الدنيا والآخرة!

وروي أيضاً: تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، وأقبلوا إلى الله بقلوبكم، واعتصموا به في جميع أموركم؛ لأن العبد إذا أقبل إلى الله بقلبه، أقبل الله بقلوب العباد إليه، ومن يعتصم بالله كفاه الله كل مؤنة.

قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى[١]: متى يكون الرجل معتصماً بالله ؟

قال: إذا قطع قلبه عن كل علاقة، موجودة ومفقودة، ورضي بالله وكيلاً.

وروي أن الله تعالى، قال لداود عليه الصلاة والسلام: ما يتعبد المتعبدون، ولا يتقرب المتقربون بشيء، أبلغَ عندي: من الاعتصام والتسليم.

وقال عامر بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ لأحد العارفين: أدعُ الله لي؛ قال: لقد استعنتَ بمن هو أعجز منك! أطع الله تعالى، واعتصم به، يُعطك أعظم ما يعطي السائلين؛

وقال: فيما أنزل على موسى عليه الصلاة والسلام: إن أردت أن تكون قائداً لأهل الدنيا، وسيداً في المنظر الأعلى؛ فكن مستسلماً لأمري، راضياً بحكمي.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى[١]: إني لأستحي من الله أن أقول: إني معتصم بالله؛ لأن من اعتصم بالله لا يخافُ مَنْ دُونه، ولا يرجو غيره، ويقطع قلبه عن علائقه في الدارين.

وقيل في معنى قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ - أي: نحن عبيد الله وإماؤه، نتقلب في مشيئته وقضائه، ونواصي العباد بيده - ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٢] بالرضا عنه، والتسليم له، والاعتصام به، والتفويض إليه.

[مَنْ أنجاك؟]:

وروي أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿اِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[٣]،

فقال: يا رب! أهلي وغنمي.

قال الله تعالى: إذا وجدتني فأي شيء تصنع بغيري؟ يا موسى! اذهب واعتصم، واستسلم لي، وفوِّض الأمور إليَّ، فإني جعلت الذئب راعياً لغنمك، والملائكة حافظين لأهلك؛

يا موسى! مَنْ أنجاك من اليمِّ حين ألقتك أمك فيه؟ ومَنْ ردَّك

---

(١) هو السيد الفضيل بن عياض، بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي، شيخ الحرم المكي، من أكابر العبَّاد الصلحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق، منهم: الإمام الشافعي رضي الله عنه، ولد في سمرقند سنة: [١٠٥] هـ، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير - وأصله منها - ثم سكن مكة المكرمة، وتوفي بها سنة: [١٨٧] هـ رحمه الله تعالى.

(٢) البقرة: ١٥٦.

(٣) طه: ٢٤، والنازعات: ١٧.

إلى أُمك بعده؟ ومن أنجاك من عدوك فرعون، حين قتلتَ نفساً؟ ومن أنجاك من المفازة حين فررت من فرعون؟

وهو يقول في ذلك كله: أنت، أنت.

واعلم أن من اعتصم بغيره، أو بشيء دونه: فهو مخذول، خارج من حد العبودية، لأن حد العبودية: ترك الاختيار إلى الجبار.

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[1].

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ، مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[2].

وقال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[3]،

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[5].

واعلم أن العبودية مبنية على عشر خصال:

١ ـ الاعتصام بالله في كل شيء،

٢ ـ والرضا عن الله في كل شيء،

٣ ـ والرجوع إليه في كل شيء،

٤ ـ والفقر إلى الله في كل شيء،

---

(١) القصص: ٦٨.

(٢) فاطر: ٢.

(٣) الأنعام: ١٧.

(٤) التوبة: ٥١.

(٥) الطلاق: ٣.

٥ ـ والإنابة إلى الله في كل شيء،
٦ ـ والصبر مع الله في كل شيء،
٧ ـ والانقطاع إلى الله في كل شيء،
٨ ـ والاستقامة بالله في كل شيء،
٩ ـ والتفويض إلى الله في كل شيء،
١٠ ـ والتسليم له في كل شيء.

واعلم أن التسليم والاستسلام، شعبتان من شعب الإيمان والمعرفة،

التسليم: هو تسليم الكلية إلى السلام، بالسلامة بلا تخليط،
والاستسلام: هو أن يستسلم راضياً بجميع ما ينزل عليه منه.

* * *

الحديث الواحد والثلاثون

[العبد الشكور]:

أخبرنا شيخنا الشيخ الجليل: أبو الفضل علي القاري، القرشي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا صدقة بن الفضل، قال: أخبرنا ابن عيينة، قال : حدثنا زياد ـ هو ابن علافة ـ أنه سمع المغيرة يقول:

قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماهُ، فقيل له: غفرَ اللَّهُ لكَ ما تقدمَ من ذنبكَ وما تأخر، قال: «أفلا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟!»[1].

في هذا الحديث الشريف، من الالزام بالقيام بواجب العبودية، غاية الغاية عند من يعقل؛ فإن السيد الأعظم، والكنز

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

المطلسم ﷺ، حالة كونه سر الوجودات، وسبب الموجودات، والبرزخ الوسط بين الخلق والخالق، قد فعل في مقام عبديته ما تورم له قدماه الشريفان!

فأين نحن؟ هات أيها العارف! ابذل مهجتك اتباعاً لهذا الرسول العظيم ﷺ، وامحقْ كُلَّكَ في اليوم والليلة: ألف مرة، وأنت بعدها مقصر؛ العبودية وصف العارف المحض.

[صفة الأصفياء]:

أي بني! قد ذكَرَ الله تعالى في كتب الأنبياء: نعتَ الأصفياء، يقول الله تعالى: عبدي! بي وجدتني، وبي وقع بيني وبينك عقد المحبة، وبي صرت من أهل خدمتي، وبي تعرفني، وبي تذكرني وتثني عليَّ، وبي تتلذذ بذكري، وبي قصدتَ صحبتي، وبي قدرتَ أن تنظر في الآخرة إلى وجهي؛

عبدي! نفسك لي، وروحك لي، وقلبك لي، وكليتك لي، فإن أعطيتني الكُلَّ أعطيتك الكُلَّ، وكنت لك مع الكلِّ.

[الله لا يُخيِّب رجاء السائلين]:

وفي الخبر: أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام:

من الذي دعاني فقطعت رجاءه؟ ومن الذي قرع بابي فلم يُفْتَحْ له؟ أنا الذي جعلت آمال خلقي بي متصلة، وعندي مدخرة،

يا داود! ما لعبدي يُعرِضُ عني؟ وأنا أقول: إليَّ،

يا داود! أنا محل الآمال، أنا الذي جعلتُ طيران قلوب

المشتاقين نحوي، وجعلتها في الأرض مواضع نظري، وأطلقتها إليَّ حتى تزداد شوقاً إليَّ، وقرباً مني،

يا داود! بشر أوليائي وأحبائي، بأني كل ساعة أريهم كرامتي، ولطائف صنعي، وحسن امتناني عليهم، حتى لا ينسوني، ولا يميلوا إلى غيري؛ وشَوقتهم إليَّ، حتى لا يصبروا عني، وفتحت لهم أبواب أُنسي، واستجبت لهم قبل أن يدعوني، وأعطيتهم قبل أن يسألوني،

يا داود! فوعزتي وجلالي، لأُقعدنهم في الفردوس، ولأمكننهم من رؤيتي، حتى أرضى عنهم، ويرضَوْا عني.

يا داود! أخبرْ أهلَ الأرض: بأني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أَنِسَ بي، وصاحب لمن صاحبني، ومطيع لمن أطاعني، ومختار لمن اختارني،
وقل لعبادي: هلموا إلى مصاحبتي ومؤانستي، وسارعوا إلى محبتي وقربي.

اعلم يا داود أني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي، ويحيى زكيي، ومحمد حبيبي،
يا داود؟ هل رأيت حبيباً يبخل على حبيبه؟

يا داود! ألا إن طال شوق الأبرار إلى لقائي، فإني إليهم لأشد شوقاً؛

ألا من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني.

[الأبرار الحقيقيون]:

يا داود! إذا كان الغالب على عبدي الاشتياق إليَّ، والاشتغال بي، جعلتُ راحته ولذته في ذكري، وعشقته،ورفعت الحجاب بيني وبينه، أُحِبُّه ويحبني، حتى لا يغفُل إذا غفل الناس، ولا يسهوَ إذا سها الناس، ولا يلهو إذا لَهَا الناس،، أولئك الأبرار حقاً،

يا داود! إن طلبتني وجدتني، وكفيتك الأسباب، ولم أطالبك بالحقوق؛ وإن طلبتَ غيري شغلتك بالأسباب، وطالبتك بالحقوق،

يا داود! إني جعلت محبتي لمن لا ينساني بلسانه وقلبه، فإنه لا شيء أنقص عندي من الغفلة والنسيان.

يا داود! إن رضيتَ عني، رضيتُ عنك، وإن أفردتني بالحاجة، أفردتك بالإنجاح، وإن شكرتني صيرتُك مَلِكاً في الدارين،

يا داود! من لم يصبر على بلائنا، لا يَفزَعْ إلينا،

يا داود! إني إذا أحببت عبداً من عبيدي، ملأت قلبه خوفاً مني، وتشوقاً إلى لقائي، وحرصاً على طاعتي.

[الرؤوف الرحيم]:

يا داود! وأوليائي في قبابي، لا يعرفهم إلاَّ أوليائي، فطوبى لأوليائي، وطوبى لأحبائي،

يا داود! إني لا أنسى من ينساني، فكيف أنسى من يذكرني؟

يا داود! إني أجود على من يبخل عليَّ، فكيف أبخل على من يجود بي؟

يا داود! إني أحب من يبغضني، فكيف أُبغض من يحبني؟

يا داود! بشر عبادي السائلين: بأني بهم رؤوف رحيم،

يا داود! كل حبيب يحب خلوة حبيبه، وأنا مطلع على قلوب أحبائي، قل للمتلذذين بذكرى: هل وجدتم رباً أبَرَّ مني؟

يا داود! من أطاعني وهو يحبني، أُسكنه جنتي، وأريه وجهي؛

ومن عصاني ولم يحبني، أُدخله ناري، وأُحِلُّ عليه سخطي،

يا داود! وعزتي وجلالي، لا يجاورني إلا من طلب جواري.

يا داود! كذب من ادَّعى محبتي، وإذا جن عليه الليل نام عني،

يا داود! من عرفني أرادني، ومن أرادني طلبني، ومن طلبني وجدني، ومن وجدني لا يختار عليَّ حبيباً سواي،

يا داود! من طلبني قتلته، ومن أحبني ابتليته، ومن هرب مني أحرقته،

يا داود! بشر المذنبين بأني غفور، وأنذر الصدِّيقين بأني غيور،

يا داود! من لقيني وهو يخافني، لم أعذبه بناري؛ ومن لقيني وهو يحبني، لم أحزنه بفراقي؛ ومن لقيني وهو مستحيي مني، لم أُخجله يوم يلقاني،

يا داود! جنتي لمن لم يقنط من رحمتي، وغضبي عن من أخطأ خطيَّةً، فاستعظمها في جنب عفوي! ولو عاجلت أحداً

بالعقوبة، إذَنْ عاجلت القانطين من رحمتي، وما العجلة من شأني، فها أنا مطلع على قلوب أحبائي، إذا جنَّ الليل، جعلت أبصارهم في قلوبهم، فخاطبوني على المشافهة، وكلموني على الحضور.

[أهل الخير]:

يا داود! لولا أني ربطت أرواح أحبائي في أبدانهم، لخرجت الأرواح من أبدانهم، شوقاً إلى لقائي،

يا داود! إن من عبادي عباداً جعلتهم للخير أهلاً، وجعلت لهم المؤانسة نصيباً، طوبى لهم وحسنُ مآب.

[الأُنس والنور]:

وروي أن الله تعالى، أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام:

أني قضيت على نفسي أن لا يحبني عبد من عبادي، أعلم ذلك من قلبه، إلا أني كنت سمعه وبصره ولسانه، وأُبَغِّضُ إليه كلَّ شيء، وأمنعه شهوات الدنيا ولذاتها، وطيب عيشها، وأطَّلع عليه في كل يوم سبعين ألف مرة، وأزيد له كل ساعة: لذائذ حبي، وحلاوة أُنسي، وأملأ قلبه نوراً مني، حتى ينظر إليَّ كل ساعة فأمسح برأسه، وأضع يدي على ألمِ قلبه، حتى لا يشكو منه، وأنا أسمع خفقان قلبه، من الشوق إلى لقائي، والخوف من قطيعتي، وهو يقول: حقيق عليَّ أن لا يسكن قلبي، حتى أصل إليك يا ربي!

[كشفُ الحجاب]:

يا يحيىٰ! وكيف يسكن قلب المشتاق، وأنا غاية منيته، ومنتهى أمله؟ وهو كل ساعة يتقرب إليّ وأتقرب إليه، وأسمع كلامه، وأعلم أسفه، وأحب صوته،

فوعزتي وجلالي! لأنقبنه يوم القيامة منقباً، يغبطه الأولون والآخرون، ثم آمر منادياً ينادي من تحت عرشي: هذا فلان ابن فلان، وليُّ الله وصفيُّه، دعاه الله ليقرَّ عينه؛

ثم آمر برفع الحجاب حتى ينظر حبيبي إليَّ، وأقول: السلام عليك عبدي ووليي، أُبَشِّرُك.

قال: فغشي على يحيى، فلم يفق ثلاثة أيام، فلما أفاق قال:

سبحانك، سبحانك، ما أكثر توددك إلى أوليائك وأصفيائك؟ لا يفصل عنك الأمل، يا خير صاحب وأنيس! فنعم المولى أنتَ، ونعم النصير.

وروي أن الله تعالى قال في بعض كتبه: إذا كان الغالب على قلب عبدي: الاشتغال والأُنس بي، رفعتُ الحجاب بيني وبينه في الباطن، حتى كأنه ينظر إليَّ.

وروي أن الله تعالى قال في بعض الكتب: وعزتي وجلالي! لأقطعن أمل كل مؤمل غيري بالإياس؛ يؤمل عبدي غيري، والخير كله بيدي!

من الذي أملني فقطعت عنه أمله؟ ومن الذي رجاني فخيبت

رجاءه؟ ومن الذي قرع بابي بالدعاء فلم أفتح له؟

عبدي! تنعم بذكري، فإني نعم الحبيب لك في الدنيا والآخرة،

عبدي! ستذكرني إذا جربتَ غيري، بأني لك خير من كل ما سواي،

عبدي! أما استحييت مني إن أعرضت وجهك عني؟ وتقبل على غيري!

عبدي! إلى أين تذهب، وطريق الوسيلة إليَّ، لا إلى غيري؟

عبدي! أين من دعاني فلم أجبه؟ وأين من سألني فلم أعطه؟

عبدي! بابي لك مفتوح، وعطائي لك مبذول، وأنا أرحم الراحمين.

[الحبُّ في الله تعالى]:

وروي أن الله تعالى، قال لموسى عليه الصلاة والسلام: حقت محبتي للمتحابين من أجلي، وحقت محبتي للمتواصلين من أجلي، وحقت محبتي للمتزاورين من أجلي.

يا موسى! إن ذكرتني ذكرتك، وإن رضيتَ عني، رضيتُ عنك؛ وإن كنتَ لي فرداً، كنت لك الفرد؛ وإن لم تردَّ على حكمي، واليتك واصطفيتك، وقربتُ مقعدك مني،

يا موسى! إذا خفتَ، فَخَفْني حتى أؤمنك؛ وإذا أحببتَ فأحبني، حتى أحبك؛ وأحببك إلى قلوب الصالحين، وإذا نظرتَ فانظر إليَّ، حتى أنظر إليك من فوق عرشي.

وروي في بعض الأخبار، أن الله تعالى يقول يوم القيامة لأوليائه: «يا أوليائي! طال ما لحظتكم ورأيتكم في دار الدنيا، وقد غـارت أعينكم، وقلصت شفـاهكم، وخفت بـطونكم، فكلوا واشربوا، هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية،

أوليائي وأحبائي! جزائي لكم أفضل البذل، وفضلي لكم أوفر الفضل، ومعاملتي إياكم أحسن المعاملة، ومطالبتي إياكم أشد المطالبة، أنا مؤنس القلوب، وأنا علام الغيوب.

* * *

الحديث الثاني والثلاثون

[المبشر النذير]:

أخبرنا شيخنا الشيخ الجليل: أبو الفضل علي الواسطي، قال: أنبأنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله السرخسي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا عبد الله بن مسلمة، قال: حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال بن أبي هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، أنه سُئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:

«يَا أَيُّها ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً، وَمُبَشِّراً، ونذيراً، وَحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ: الْمُتَوكِّلَ، لَيْسَ بفظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ[1] في الأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ ٱلسَّيِّئَةَ بِٱلسَّيِّئَةِ،

---

(١) روي بالسين، وبالصاد. ومعناه: نادى وعلا صوته.

وَلَـٰكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ ٱللَّهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ، فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُناً عُمْياً، وَآذَاناً صُمّاً، وَقُلُوباً غُلْفاً »[١] .

ولنا بهذا السند عن البخاري، قال: حدثنا خالد بن مخلد قال : حدثنا سليمان قال : حدثنا عبد الله بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إِنَّ ٱلرَّحِمَ شُجْنَةٌ[٢] مِنَ الرَّحْمَـٰنِ، تَقُولُ: يَا رَبِّ! إِنِّي قُطِعْتُ، يَا رَبِّ! إِنِّي أُسِيءَ إِلَيَّ، يَا رَبِّ! إِنِّي ظُلِمْتُ، يَا رَبِّ!

فَيُجِيبُهَا: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ »[٣] .

فالحديث الأول أفاد: أن الله يُسعف نبيه ﷺ، حتى يقوِّم العوجاء، بكلمة: لا إله إلا الله،

والحديث الثاني أفاد: أن الرحِمَ من أشعة نور الرحمن، من وصلها اتصل، ومن قطعها انقطع؛

والجمع بين السرين في الحديثين، هو فتح القلب والعين

---

(١) رواه البخاري، في كتاب البيوع.

(٢) الشجنة: بكسر الشين وضمها وإسكان الجيم يعني قرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

(٣) ورواه الإمام أحمد بإسناد جيد قويّ، وابن حبان في صحيحه.

والأذن: بالتوحيد الخالص، وإيصال القلب بالرحمن، بحبل الرحمة والشفقة على الخلق، وبهذا تعين الأقرب فالأقرب، يفهم ذلك العارف، فكلمة التوحيد تفيد: الإيمان بالله، وصلة الرحم تفيد: التخلق بخلق الله، وهو الرحمن، وإليه المرجع في المبطن والعيان، وبه المستعان، وعليه التكلان؛ وما ذلك إلاَّ لإعظام أمر الله، وهو من إعظام الله.

[ذِكرُ نِعَمِ اللَّهِ]:

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى[1]: اعرف حرمة من لا تعرف الفضل إلاَّ منه، ولا ترجو الراحة إلاَّ منه، واستحي منه حق الحياء، واذكر امتنانه إذ خلقك ولم تك شيئاً، وزينك بنور المعرفة، حتى كأنك لم تزل تعرفه، ولولا فضله ورحمته عليك، كيف كنت تعرفه بأنه مولاك، من غير أن تراه بعينك؟

ثم طَهَّرَ سرك وضمائرك، من الشك والشبهة والنفاق؛ وألبسك من أحسن لباسه، وتوَّجك بتاجه بلا سؤال، ثم دعاك إلى دار السلام.

ويقال: لا يزال المؤمن عظيماً، ما أعظم الله، وعظَّمَ أمره، وعظَّم أولياءه، وعرف قدرهم وحرمتهم.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

[السؤال من غير الله تعالى]:

وحكي أن رجلاً من ملوك الدنيا، قال لشقيق[1]: سل حاجتك!

قال: إني لأستحيي من ربي أن أسألك، ومولاي ناظر إليّ يقول: سل حاجتك بلا حشمة، حتى أرضى عنك، ولا تسأل غيري فأمقتك!

ودخل على رابعة البصرية جماعة من الزهاد، وفيهم سفيان الثوري، فرأوا لها حالة رثة!

فقال لها بعضهم: أما ترسلين إلى بعض مواليك ليعطيك شيئاً؟

فقالت: والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا ممن يملكها، فكيف ممن لا يملكها؟

وقيل لأبي عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ: ما صفة المريدين؟

قال: أن يكونوا مع الناس بأبدانهم، وقلوبُهم تحت العرش، كأنهم يرون ربهم فوق عرشه، ويستحيون أن يسألوه شيئاً سواه.

وفي الخبر: أرأيتم سليمان وما أعطي من المُلْك؟ فإنه لم

---

(١) هو: شقيق بن إبراهيم بن عليّ الأزدي البلخي، أبو علي: زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان. وكان من كبار المجاهدين في سبيل الله، استشهد في غزوة كولان ـ بما وراء النهر ـ سنة: [١٩٤] هجرية، رحمه الله تعالى.

يرفع رأسه إلى السماء، تخشعاً لله، وحياء منه، حتى قبضه الله.

وقال عامر بن عبد قيس رحمه الله تعالى: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب إليَّ منه، وأن نظره إليَّ قبل نظري إلى ذلك الشيء.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله ـ إذا قرأ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(١)،

قال: إلٰهي! هذا قربك إلى أعدائك، فكيف قربك إلى أوليائك؟!

وقال شهر بن حوشب رحمه الله(٢): ما رأيت إبراهيم التميمي رافعاً رأسه وبصره إلى السماء قط، حتى قبضه الله، حياء منه!

ومرض العارف داود الطائي رضي الله عنه(٣)، وهو في جوف

---

(١) ق: ١٦.
(٢) هو: شهر بن حوشب الأشعري، فقيه قارىء، من رجال الحديث، شامي الأصل، سكن العراق، وكان يتزيًا بزيِّ الجند، وولي بيت المال مدة؛ ولد سنة: [٢٠] هجرية وتوفي سنة: [١٠٠] هجرية. رحمه الله تعالى.
(٣) هو: داود بن نصير الطائي، أبو سليمان: من أئمة التصوف، أصله من خراسان، ومولده بالكوفة، رحل إلى بغداد فأخذ عن الإمام أبي حنيفة وغيره، وعاد إلى الكوفة فاعتزل الناس، ولزم العبادة إلى أن توفي فيها سنة: [١٦٥] هجرية، رحمه الله تعالى.

بيته، فقيل له: لو خرجت إلى صحن الدار، حتى تهب عليك ريح الهواء.

قال: إني لأستحي من الله، أن يراني وأنا أطلب الراحة لنفسي في الدنيا!

ويقال: كان في مِصْرَ رَجلٌ مجذوم، فقال: إنه يعرف اسم الله الأعظم،

فقيل له: لو دعوتَ الله باسمه الأعظم، أن يكشف عنك هذا البلاء.

قال: إني لأستحيي منه، أن يكون لي مراد بخلاف مراده.

[أدبٌ عند كل صلاة]:

وكان سيدنا الإمام الحسين ابن الإمام علي عليهما السلام، إذا توضأ ليصلي اصفر لونه، وارتعدت فرائصه، فقيل له في ذلك؟

فقال: حق لمن وقف بين يدي رب العرش، أن يتغير لونه حياء من إجلاله.

وكان مسلم بن يسار ـ رحمه الله تعالى[1] - :يصلي، فانهدم

---

(١) هو: مسلم بن يسار، الأموي بالولاء، أبوه عبد الله؛ فقيه ناسك، من رجال الحديث، أصله من مكة، سكن البصرة فكان مفتيها، وتوفي فيها سنة: [١٠٨] هجرية، رحمه الله تعالى.

زاوية من المسجد ولم يشعر!

وكان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ترتعد فرائصه عند قضاء أمانة، لم تحملها السموات والأرض، وهي: الصلاة.

ولدغت امرأةً حيةٌ، في أربعين موضعاً ولم تشعر، من حلاوة الصلاة!

وكان مسلم بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ: يصلي، فوقع الحريق في بيته، وفزع الناس إليه، حتى أطفأوها ولم يشعر.

قال الجريري رحمه الله تعالى[١]: إني لأستحيي من الله، أن أنام تكلفاً حتى يَصرَعني النوم.

وحكي أن معاذة بنت عبد الله رحمها الله تعالى: ما رفعَتْ بصرها إلى السماء أربعين عاماً، وكانت تقول: عجبت لعين تنام، والحبيب إليها ناظر؛ وربما كانت تتفكر في جلاله وعظمته، حتى يُغشىٰ عليها.

وكان داود عليه الصلاة والسلام، لا يرفع رأسه إلى السماء، هيبة من إجلاله تعالى.

وقال ابن سنان رحمه الله تعالى: ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، حتى ألقىٰ في قلبه إجلالاً منه، بحيث يسمع خفقان قلبه، كالطير في الهواء.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٠٤].

[علامات ثلاث]:

علامة السعداء ثلاثة: التمسك بسنة النبيِّ المختار، والصحبة مع الأولياء الأخيار، والحياء من الملك الجبار.

ومكتوب في الزبور: يا داود! إني لأستحيي من عبدي أن أرده إذا دعاني،

وإن عبدي لا يستحيي أن أدعوه فلا يجيبني؟!

قال النبي ﷺ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

[عابدٌ وسباع!]:

قال الفضيل رحمه الله تعالى: إلّهي! ارحم من لو عقل لم يتكلم من الحياء.

وحكي أن عامر بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ كان يصلي، فاكتنفته السباع، فلما انفلت من صلاته مسح ظهورهم بيده، وقال: أنتم كلاب الله، وأنا عبد الله؛

فقيل له: هل هبتَ منهم؟ قال: إني لأستحيي من ربي أن أهاب شيئاً دونه.

وقال صالح المري رحمه الله تعالى: رأيت ربِّي في المنام ليلة، فقلت: لبيك، لبيك، وصرتُ كالبعوضة من إجلاله!

---

(١) هو جزء من حديث رواه الإمام مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ.

فقال: يا صالح! إني لخبير بالمريدين، وأني أسمع أنينهم، وأرى حركاتهم، وإني لمطلع على سرائرهم وضمائرهم، قال: فدهش عقلي حياء منه.

وحكي أن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى[١] ـ: صعد موضعاً يؤذن للصلاة، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، غشي عليه، من إجلاله!

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه!

وقال بعض أهل المعرفة، في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ»، لم يكن الصلاة قرة عينه، ولكن إذا قام للصلاة، رأى فيها ما تقر عينه، لقوله: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

[الله أكبر]:

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى[٢]: صليت خلف ذي النون[٣] صلاة العصر، فلما أراد أن يكبر، رفع يديه وقال: الله؛ فَبَهِتَ![٤] وبقي كأنه جسد لا روح فيه، من إجلاله، ثم قال: أكبر؛ فظننت أن قلبي ينخلع من هيبة تكبيره!

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٤٦].
(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٥٣].
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].
(٤) بَهِتَ: بوزن عَلِمَ، أي: دَهِشَ وتحيَّر.

قَلَّ حَيَاءُ النَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ   فَكُلُّهُمْ يُظْهِرُ تَقْوَاهُ!
لَيْسَ يُبَالِي الْخُبْثَ فِي ثَوْبِهِ   مَنْ بَالَ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُ
يَخَافُ أَنْ يَمْقُتَهُ أَهْلُهُ   وَلَا يُبَالِي مَقْتَ مَوْلَاهُ!

* * *

الحديث الثالث والثلاثون

[إذا دخل رجب]:

أخبرنا شيخنا القاضي المقري، القدوة الشيخ: أبو الفضل علي الواسطي رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن علي، قال: أنبأنا عمر بن أحمد، قال: أنبأنا شاهين، قال: أنبأنا عبد الله البغوي، قال: أنبأنا عبد الله بن عمر القواريري، قال: أنبأنا زائدة بن أبي الرقاد، عن زياد النميري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجب قال: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي رَجَبَ وَشَعْبَانَ، وَبَلِّغْنَا إِلَىٰ رَمَضَانَ»**(1).

في هذا الحديث الشريف معان كثيرة، منها: طلب فسحة الأجل، لصالح العمل، ليكون العمر لله، والعمل فيه لله؛ وكذلك مقاصد العارفين بالله، الوارثين رسول الله ﷺ، وهذا حال أهل التقوى.

---

(1) رواه الإمام أحمد والبيهقي، وقال النجم: رواه ابن ماجه بلفظ: ان النبي ﷺ كان إذا دخل رجب قال اللهم الخ وإذا كانت ليلة الجمعة قال: هذه ليلة غراء ويوم أزهر.

[مراتب الأتقياء]:

أي بني! اعلم أن التقوى على وجهين: خاص، وعام؛ فأما التقوى الخاص: فالاتقاء بالسر عن الهمة والمُنْيَةِ[١]، من غير ذات الله تعالى، حيث قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٢].

وأما تقوى العام: فالاتقاء بالظاهر عن جميع ما كره الله تعالى،

قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾[٣]،

والله تعالى جعل الفرج والمخرج من الهموم، واليسر والسعة في التقوى، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٥].

[معاني التقوى]:

قيل في معناه: ومن يتق الله في أداء الطاعة، يجعل له مخرجاً من غبار الذنوب والزلات، ويرزقه النجاة من العقوبات، من حيث لا يحتسب.

---

(١) أي: ولا يتمنى جلب نفع، أو دفع ضر، من غير الله تعالى؛ لأنه لا يضر وينفع، ويصل ويقطع، ويعطي ويمنع، إلا اللهُ سبحانه وتعالى.

(٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) الطلاق: ٥.

(٤) الطلاق: ٤.

(٥) الطلاق: ٢ ـ ٣.

ومعنى آخر: ومن يتق الله عند الإنابة بالحجة، يجعل له مخرجاً من شدة المحاسبة، ويرزقه سلامة الدارين، من حيث لا يحتسب.

ومعنى آخر: يجعل له مخرجاً من جميع الاشتغال بغير الله، ويرزقه حياة طيبة من حيث لا يحتسب.

ومعنى آخر: من يتق الله بترك المحارم والشبهات، يجعلْ له مخرجاً من الإرادات والشهوات، ويرزقه حلاوة الطاعة، من حيث لا يحتسب.

ومن يتق الله عند قول الحق، ولا يخاف لومة لائم، يجعلْ له مخرجاً من مكر الناس ومكائدهم، ويرزقه الظفر من حيث لا يحتسب.

ومن يتق الله بترك التعلق بغير الله، يجعل له مخرجاً من عبودية ما سواه، ويرزقه الصدق والإخلاص، من حيث لا يحتسب.

[النسب الصحيح]:

يروى أن أبا هريرة سمع النبي ﷺ يقول: إذا كان يومُ القيامة يقول الله تعالى: يا أيها الناس! إني جعلت نسباً، وأنتم جعلتم نسباً، إني جعلت أكرمكم أتقاكم، وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم، وإني أرفع اليوم نسبي وأضع نسبكم، فأين المتقون؟ اليوم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

وقال ﷺ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَىٰ ٱلشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَىءَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي ٱلشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ...»[١].

فـ «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ»[٢].

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: لو صمتم حتى تكونوا كالأوتار، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا، ما قبل منكم إلا بورع صادق.

وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى[٣]: من وضع شهواته تحت قدميه، فرَّ الشيطان من ظله؛ ومن غلب عقلُه هواه، فذاك الصابر الغالب.

[اشتغلوا بما يعنيكم]:

وقيل لرجل مِنْ أهل التقوىٰ: من أين جئت؟

قال: ما سؤالك عن شيء لا ينفعك معرفته، ولا يضرك جهله! فاشتغل بما يعنيك، عما لا يعنيك.

فقيل له: ما رأس التقوى؟

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي، والنسائي، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٢٥].

قال: أن تحفظ نفسك من الشهوات، وحلقك من اللذات، وقلبك من الغفلات.

وقال: اتق الله الذي آخذَ آدمَ بلقمة، وموسى بلطمة، وداود بنظرة، ويوسف بهمة، ونوحاً بدعوة، ومحمداً بخطرة، صلوات الله عليهم أجمعين.

وقال عبيد بن عمير رحمه الله تعالى[١]: لا ينبغي لمن تزين بلباس الورع والتقوى، أن ينظر إلى شهوات الدنيا، ويتكلم بما لا يعنيه.

وقال جعفر الأزدي: بلت في أصل حائط، فهتف بي هاتف: تدَّعي التقوى، وتبول في أصل حائط غيرك!!

وحكي أن ابن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ[٢] ارتحل من مرو إلى الشام، من أجل قلم كان قد استعاره فلم يرده إلى صاحبه.

---

(١) هو: الإمام التابعي الجليل: عبيد بن عمير المكي، المشهور بمتانة دينه وصلاحه، واعظ أهل مكة، كان فصيحاً بليغاً، يجلس الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في حلقته، ويبكي متأثراً بكلامه وصلاحه. توفي سنة: [٦٨] للهجرة. رحمه الله تعالى.

(٢) هو الإمام الجليل، الحافظ المجاهد: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي؛ أبو عبد الرحمن، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار: حاجّاً ومجاهداً، وتاجراً؛ وجمع الحديث، والفقه، والعربية، والتاريخ، والشجاعة، والسخاء.

كان من سكان خراسان، ولد سنة: [١١٨] للهجرة، وتوفي سنة: [١٨١] بهيت ـ بلد على الفرات بالعراق ـ منصرفاً من غزو الروم. رحمه الله تعالى. وإذا أردت ـ أخي الكريم ـ التوسع في سيرة هذا الإمام الجليل، وسيرة والده «مبارك» فانظر في كتابي: «حدائق المتقين» في قصة زواج المبارك، ترى فيه ما يسرك، إن شاء الله تعالى.

وفي الخبر: لا تفضلوا أحداً على أحد، إلا بالورع والتقوى، لأنهما أفضل الأعمال.

وقال أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه(١): ما من أحد ترك شيئاً لله، إلا آتاه الله ما هو خير له منه، من حيث لا يحتسب،

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى(٢):

حرام على كل قلب فيه حب الدنيا، أن تسكن فيه التقوى.

وقال عمر بن العزيز رحمه الله(٣):

القليل من الورع، خير من صلاة أهل الدنيا.

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: إلَهي! خلقتَ آدم بيدك، وأدخلته الجنة، وفعلت به ما فعلت من الإحسان، ثم أخرجته منها بزلّةٍ واحدة!

فقال: يا موسى! أما علمت أن جفاء الحبيب شديد، لا يُحتمل من الأحباء، ما يَحتمل من الأعداء.

وَلَسْتُ أَرَىٰ ٱلسَّعَادَةَ جَمْعُ مَالٍ   وَلَـٰكِنْ التَّقِيَّ هُــوَ ٱلسَّعِيــدُ

---

(١) هو الصحابي الجليل، الأنصاري الخزرجي: أُبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ من بني النجار، أبو المنذر،

كان قبل الاسلام حبراً من احبار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة، ولما أسلم كان من كُتّاب الوحي. وشهد بدراً وأُحُداً، والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان يفتي على عهده، وشهد مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بجمع القرآن، فاشترك في جمعه، توفي في المدينة سنة: [٢١] هجرية، رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٤٧].

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣٥].

الحديث الرابع والثلاثون

[التسمية الحسنة]:

أخبرنا شيخنا القاضي القدوة: أبو الفضل علي الواسطي، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد، قال: أنبأنا أبو عبد الله الحسين، قال: أنبأنا أحمد بن بكير بن حامد، عن حماد العسكري، عن إسحٰق بن سيار، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن برد بن سنان، عن مكحول، عن أبي أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ وُلِدَ لَهُ مولودٌ فسماهُ محمداً تبركاً به، كان هوَ ومولودُهُ في الجنة»**[1].

في هذا الحديث الشريف، من سِرِّ الحب له ﷺ، ما يفهمه أهل الخصوصية، فإنهم بذكر اسمه المبارك، ترتاح هممهم للتخلق بأخلاقه الزكية، وللتشبث بأذياله، فتراهم لا تقف هممهم في طريق متابعته وقفة المشغول بالدنيا؛ بل هم متنبهون خاشعون، ومن الله

---

(١) رواه ابن عساكر. قال الإمام السيوطي في «مختصر الموضوعات»: هذا أمثل حديث ورد في هذا الباب، وإسناده حسن. (من تحقيق النسخة القديمة).

خائفون، ولنبيهم متبعون، وبسنته عاملون، وأولئك هم العارفون.

[ضَحِكٌ وبكاء]:

أي بني! اعلم أن أهل المعرفة يبكون إذا ضحك أهل الغفلة، ويحزنون إذا فرح أهل الغرة.

قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١).

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾(٢).

وإن الله تعالى، ذكر من دلائل المعرفة، ومن علامات العارفين، كثرة البكاء وسيل الدموع، قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾(٣).

وذم أهل الغفلة بالضحك، وترك البكاء، في قوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾(٤).

واعلم أن البكاء بكاء العين، وبكاء القلب، وبكاء السر؛

فأما بكاء العين، فهو لأهل المعرفة من المنيبين،

وأما بكاء القلب، فهو لأهل المعرفة من المريدين،

وأما بكاء السر، فهو لأهل المعرفة من المحبين،

واعلم أن لأهل المعرفة، هموماً مخبوءة تحت أسرارهم، مستورة عن أفكارهم، فكلما هاج من أسرارهم رياح خشية الهيبة،

---

(١) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) عبس: ٣٨ ـ ٣٩.
(٣) الإسراء: ١٠٩.
(٤) النجم: ٥٩ ـ ٦٠.

ومن قلوبهم لهب نيران الأحزان، أحرقت ما عليها من هشيم الغفلة والنسيان.

[درجات البكاء]:

والبكاء على خمسة أوجه:

١ ـ بكاء الحياء، مثل بكاء آدم،

٢ ـ وبكاء الخطيئة، مثل بكاء داود،

٣ ـ وبكاء الخوف، مثل بكاء يحيى بن زكريا،

٤ ـ وبكاء الفقد، مثل بكاء يعقوب،

٥ ـ وبكاء الهيبة، مثل بكاء سائر الأنبياء، وهو قوله تعالى: ﴿إذا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[١].

وبكاء سادس: مثل بكاء شعيب، ذلك بكاء الشوق والمحبة؛ بكى شعيب حتى ذهب بصره، ثم رد إليه بصره - فبكى حتى ذهب بصره - ثلاث مرات - فأوحى الله تعالى إليه: أن يا شعيب! إنْ كان بكاؤك من مخافة النار، فقد أمنتك من النار، وإن كان بكاؤك من أجل الجنة، فقد أوجبت لك الجنة.

فقال: لا يا رب! ولكنْ مِنَ الشوق إلى رؤيتك.

فأوحى الله إليه: أن يا شعيب! حُقَّ لمن أرادني أن يبكي من شوقي، إنه ليس لهذا الداء دواء، غير لقائي.

ويروى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: لو أن عبداً بكى

---

(١) مريم: ٥٨.

من خشية الله في أُمَّة، لرحم الله تلك الأمة ببكائه.

وقالت رابعة رحمها الله تعالىٰ[١] : بكيت عشر سنين عن الله، وعشر سنين بالله، وعشر سنين إلى الله؛ فأما ما هو بالله: فالرجاء به؛ وأما ما هو عن الله: فالخوف منه؛ وأما ما هو إلى الله: فالشوق إليه.

وقال بعضهم: دخلت على رابعة البصرية، فإذا هي ساجدة، فجلست عندها حتى رفعتْ رأسها، فإذا في موضع سجودها ماء واقف من دموعها، فسلمت عليها، فردت عليَّ السلام، وقالت: ما حاجتك؟ قلت: أريد زيارتك؟ فبكت، ثم صرفت وجهها عني، وكانت تبكي وتقول: قرة عيني، لا بد لي منك، فالعجب ممن عرفك، كيف يشتغل بغيرك؟ والعجب ممن أرادك، كيف يريد غيرك؟!

وكان عطاء السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراًمايقول في بكائه:

اللهم ارحم انقطاعي إليك، وإعراضي عن سواك، وغربتي في بلادك، ووحشتي بين عبادك، ووقوفي بين يديك.

[آمال المشتاقين]:

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى[٢] : بينا أنا في الطواف، إذ أنا برجل قد تغيَّر لونه، ونَحَل جسمه، وهو يبكي

---

(١) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠]
(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٥٣] .

ويدمدم مع نفسه، فدنوت منه، فإذا هو يقول: إلَهي! قد استأنستْ بك قلوب المحبين، واسْتَرَاحَتْ إليك قلوب العارفين، فلا تقطع منك آمال المشتاقين.

قال: فسمعت هاتفاً يقول: يا ولي الله! لقد أبكيت السموات السبع، أُسكت، فإن لك ما سألتَ!

[البكاء على ترك الخدمة]:

وروي أن آدم عليه الصلاة والسلام، لما نزل من الجنة، بكى حتى نبت من دموعه النبات، فأوحى الله إليه: هذا البكاء على فوت الجنان، فأين البكاء على ترك خدمتي؟ ففزع آدم إلى كلمة الإخلاص، فقال: لا إلَه إلا أنت سبحانك؛

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(١).

[الحبيب الموافق]:

وقال ذو النون رحمه الله تعالى(٢): رأيت بمكة رجلاً يبكي بكاء العارفين، فدنوت منه وقلت: ألك حبيب؟ قال: نعم. قلت: حبيبك قريب أم بعيد؟ قال: قريب. قلت: موافق لك أم مخالف؟ قال: بل موافق لي. قلت: سبحان الله! فلم تبكي؟

قال: أما علمتَ أن عذاب القرب والموافقة، أشد من عذاب البعد والمخالفة!

---

(١) البقرة: ٣٧.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

وحكي أن رابعة ـ رحمها الله تعالى[١] ـ كانت تمر يوماً في بعض طرق البصرة، فقطرت عليها قطرة من الميزاب، فسألت عنها، فقيل: إنها من بكاء الحسن، قالت: قولوا للحسن: لو ازددت بالدموع، حتى تصل للعرش محبة له، لكان قليلاً.

[إذا بكى المنافق!]:

وقال[٢] عباد بن شميط بن عجلان: هل يبكي المنافق؟

قال: أما من الرأس فنعم، وأما من القلب فلا!

قال الفضيل رحمه الله تعالى[٣]: إذا رأيت الرجل يبكي، وقلبه ساه، فهو بكاء منافق! وإن البكاء: بكاءُ القلب.

قيل لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى[٤] ـ: ألا تجيء بقارىء يقرأ بين يديك.

فقال: إن الثكلى لا تحتاج إلى النائحة.

وقال كعب الأحبار رحمه الله تعالى[٥]: لأن أبكي دمعة من

---

(١) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

(٢) في جميع النسخ وردت هكذا، وربما يكون الصواب: وسُئل عباد.. إلخ. أو: وقال عباد متسائلاً؟ والله تعالى أعلم.

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٥٣].

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة: [٥٠].

(٥) هو: كعب بن ماتع، التابعي المشهور بـ «كعب الأحبار» رضي الله عنه، أدرك زمن النبي ﷺ، ولم يره، وأسلم في خلافة أبي بكر، وقيل: في خلافة عمر رضي الله عنهما، وصحب عمر وأكثر الرواية عنه، وروى عن جماعة من الصحابة، وخلائق من التابعين. وكان يسكن حمص؛

ذكره أبو الدرداء رضي الله عنه فقال: إن عنده علماً كثيراً. واتفقوا على علمه وتوثيقه.

=

خشية الله أحب إليَّ من أن أتصدق بجبل من الذهب.

[يا نفس! بأي شيء؟]:

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى، كثيراً ما يبكي ويقول: يا نفس! تريدين أن تجاوري الجبار، وتشاهدي المختار، بأي شهوة تركتيها؟ بأي بعيد قربتيه إلى الله؟ بأي ولي أحببتيه لله؟ بأي عدو أبغضتيه لله؟ بأي غيظ كظمتيه لله؟ لا، والله لولا عفو الله ورحمته؛ ثم يُغشىٰ عليه.

وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام:

«لن يتقرب إليَّ المتقربون، بمثل البكاء من خشيتي».

[ذهب ماء وجهي!]:

وقال ثابت النساج رحمه الله: ما شرب داود عليه الصلاة والسلام شربة من الماءِ بعد الخطيئة، إلا وكان نصفه دموعه، حتى لحق بالله عزَّ وجل، فقال يوماً من الأيام فيما رأى من كثرة دموعه: أما ترحم بكائي يا إلٰهي! فنودي من السماء: يا داود! تذكر دموعك، ولا تذكر ذنبك! فأخذ برمض النار من الرماد، وصار يجعله على رأسه، ويقول: ذهب ماء وجهي عند ربي.

[وجدت طبيباً]:

وقيل: كان في عهد الحسن البصري ـ رضي الله عنه[1] ـ

= وكان قبل إسلامه على دين اليهود، وكان يسكن اليمن. توفي في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ سنة: [٣٢] هـ. ودفن بحمص متوجهاً إلى الغزو؛ ومناقبه، وأحواله، وحِكمه، كثيرة مشهورة، رضي الله عنه ورحمه.

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٤٦].

رجل، كان له ابنة تبكي حتى عميت عيناها، فجاء الرجل إلى الحسن ودعاه ليعظها، لعلها ترفق بنفسها، فأتاها الحسن وقال لها: ارفقي!

فقالت: أيها الأستاذ! إن عينيَّ لا تخلو من وجهين، إما أن تصلح لرؤية ربي، أو لا تصلح؛ فإن لم تصلح فحُقَّ لها أن تعمىٰ! وإن كانت تصلح، فألوف مثل عيني فداء لرؤيته.

قال الحسن: جئت مداوياً، فصرت مداوىٰ، وأتيت مطبباً، فوجدت طبيباً.

[حزينة تبكي]:

وقالت سلمة بنت خالد المخزومي رحمها الله: كانت امرأة من الشام ببيت الله الحرام، يقال لها: حزينة، أبداً تبكي من غلبة الشوق، وكلما نظرتْ إلى بابَ الكعبة، قالت: بيت ربي، بيت ربي؛

فَفُتِحَ باب الكعبة يوماً من الأيام، فرأت فيها طائفين يبكون، ويقولون: مليكنا وقرة أعيننا، طال إليك شوقنا، متى تكون ملاقاتنا؟ فسمعت تلك المقالة، فصاحت صيحة وخرت مغشياً عليها، ولم تزل تضطرب حتى ماتت.

[عمى القلب عن الله]:

وقال يحيىٰ بن أصفر: دخلنا مع جماعة من أصحابنا على عفيرة العابدة، رحمها الله تعالى، ـ وكانت عمياء من كثرة بكائها ـ

فقال واحد منا: ما أشد العمى بعد البصيرة! فسمعت ذلك، فقالت: يا أبا عبد الله! عمى القلب عن الله، أشد من عمى العين! وددت لو أن الله أعطاني كُنْهَ[١] محبته، ولم يبق لي جارحة إلا أخذها مني!

اللَّيْلُ دَاجٍ وَالْعُصاةُ نِيَامُ
وَالْعَارِفُونَ لَدَى الْجَلِيلِ قِيَامُ
يَتْلُونَ آيَاتِ الْهُدَىٰ وَدُمُوعُهُمْ
تَجْرِي وَمِنْهَا قَدْ تَفِيْضُ سِجَامُ[٢]
لا يَصْبِرُونَ سُوَيْعَةً عَنْ ذِكْرِهِ
شَوْقاً، وَلَيْسَ لِمَنْ يُحِبُّ مَنَامُ

---

(١) كُنْهُ الشيء: نهايته.
(٢) سَجَمَ الدَّمْعُ: سال.

الحديث الخامس والثلاثون

[أجر تبليغ العلم]:

أخبرنا شيخنا خالي أبو المكارم: منصور، الباز الأشهب البطايحي، رضي الله عنه، قال: أنبأنا أبو علي الحسن بن شاذان، قال: أنبأنا أبو نصر أحمد بن نصر بن محمد بن اشكاب النجاري، قال، أنبأنا الحسن بن محمد، بن موسى القمي، قال: أنبأنا عبد الرحيم بن جندب، عن إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله، عن سفيان، عن ليث، عن طاووس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَدَّىٰ إِلَىٰ أُمَّتِي حَدِيثاً، لِتُقَامَ بِهِ سُنَّةٌ، أَوْ تُثْلَمَ بِهِ بِدْعَةٌ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ»(١).

من هذا الحديث الشريف، يُعلم أن أهل الجنة القائمون بإقامة السُّنَّة، وإثلام البدعة، تجرداً لله تعالى، وتوكلاً عليه، وإيماناً به، وحباً له.

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» كما في «الجامع الصغير» والحديث ضعيف.

أي بني! اعلم أن حبيب القلوب سبحانه، إذا أحب عبداً أطلع سره على جلال قدرته، وحرك قلبه بمراوح ذكر مِنَّتِهِ، وسقاه شَربة من كأس محبته، حتى يُسكره به عن غيره؛ وجعله من أهل أُنسه وقربه وصحبته، حتى لا يصبر عن ذكر ربه، ولا يختار أحداً عليه، ولا يشغل بشيء دون أمره.

وقال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله: منزلة الحب أقدم من منزلة الخوف، فمن أراد الدخول في عصبة أهل المحبة، فليحسن الظن بالله، وليعظم حرمته.

[آلاءُ الله]:

وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن يا داود! أحبني، وأحب أحبائي، وحببني إلى عبادي.

فقال داود: إلٓهي! أُحبك، وأحب أحباءك، فكيف أحببك إلى عبادك؟

فقال: ذكِّرْهم آلائي، وحسن لطائفي.

وفي الخبر: «إذا أحب الله عبداً من عباده، نادىٰ جبريل عليه الصلاة والسلام: يا أهل السماء والأرض! يا معاشر أولياء الله وأصفيائه! إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبوه»(١).

---

(١) روى البخاري، ومسلم، عن أبي هريرضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:
«إِذَا أَحَبَّ اللّٰهُ تَعَالَىٰ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ».
وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: =

[علامة المحب]:

وقال أبو عبد الله النساج رحمه الله تعالى: كل عمل لم يكن فيه محبة الله لم يقبل.

وقال: من أحب الله ابتلاه بالمحن، فمن التفت منه إلى ما سواه صار محجوباً عنه، وسقط عن بساط أهل المحبة.

وقال عبد الله بن زيد رحمه الله تعالى: مررت برجل نائم في الثلج، وعلى جبينه قطرات من العرق! فقلت له: يا أبا عبد الله! أما تجد البرد؟ فقال: من شغله حب مولاه، لا يجد البرد.

قلت: وما علامة المحب؟

قال: استقلال الكثير من نفسه، واستكثار القليل من حبيبه.

فقلت له: أوصني. فقال: كن لله، يكن الله لك.

[من أراد جارية]:

وقال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى: دخلت سوق النخاسين لأشتري جارية، فرأيت جارية مشدودة على وجنتيها عصابة، مكتوب عليها: من أرادنا أفلسناه! ومن هرب منّا وسوسناه!

= «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ.

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ». اللهم اجعل حبّك أحب إلينا من كل شيء، ولا تتخلَّ عنا يا كريم!

فقلت: كذا قال الله تعالى لعباده: إن طلبتموني أنسيْتُكم بنفسي عن غيري، وأفنيتكم بي عن أنفسكم، حتى لا ترون شيئاً دوني.

قال: قرع واحد بابَ محبوبه، فقال مِنْ داخل الباب: من أنت؟ قال: أنا، أنت! فقال: يا أنا! أُدخل(١).

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي
أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي

---

(١) الحب إذا قوي، لم يبق إرادة للمحب سوى خدمة محبوبه، والتقرب إليه، بتنفيذ رغباته ومطالبه، فينسى المحب نفسه وحظها، والتفكر فيها، ولا يبقى إلا تفكره في عمل يوصله إلى رضى محبوبه، ولو جاب القفار، ووصل سير الليل بالنهار، ليرضى عنه المحبوب؛ فصح للمحب الفاني أن يقول لمحبوبه: أنت أنا، وأنا أنت، وسيأتي في الحديث الآتي بعض أبحاث المحبة. (من تحقيق النسخة القديمة).

الحديث السادس والثلاثون

[سمع الله لمن حمده]:

أخبرنا شيخنا العارف بالله: علي القاري، الواسطي، قال: أخبرنا أبو بكر الوراق، قال: أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعد، عن أحمد بن عبد المؤمن، عن علي بن الحسن المروزي، عن أبي حمزة، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال: «سَمِعَ ٱللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، قَالَ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»[١].

في هذا الحديث، من أسرار الموافقة لداعي الله، الذي يرد شأنه على كل لسان، ما يفهمه أهل الذوق من أرباب المحبة.

[اللهم ارزقنا حبَّك]:

أي بني! قيل لواحد: ما حقيقة المحبة؟ قال: الموافقة.

---

(١) قال في «طرح التثريب» عند ذكر هذا الحديث: بأنه مروي في الصحيحين: (٢/ ٣٣٠ - ٣٣١).

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اللهم ارزقني حبَّك، وحبَّ من يُحبُّك، والعمل الذي يبلغني حُبَّك، واجعل حبَّك أحب الأشياء إليَّ »[١] .

وقال الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق من خالص حب الله، استوحش عمن سواه، وترك لأجله كل ما يهواه.

ويقال: جفاء العدو غم نازل، وجفاء الحبيب سُمٌّ قاتل.

وكان ذو النون المصري ـ رحمه الله تعالى[٢] ـ كثيراً ما يقرأ القرآن، ثم بعد ذلك يشتغل بالحديث، فسمع في المنام:

إِنْ كُنْتَ تَـزْعُمُ حُبِّي ‏ ‏ ‏ ‏ فَلِمْ هَجَـرْتَ كِتَـابِي !
أَمَـا تَـدَبَّـرْتَ مَـا فِيـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـهِ مِنْ لَطِيفِ عِتَابِي ؟!

قال: فترك الحديث، وأقبل على قراءة القرآن.

[قُطاع الطريق!]:

وروي أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً في الدنيا وأهلها، فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي.

ويقال: أصل المحبة هو المحو، إلَّا أنها على ثلاث مدارج، العام، والخاص، وخاصُّ الخاص،

فأما العام: فمحو القلب عن حب الذنوب والمعاصي،

والخاص: محو القلب عن حب الدنيا وأهلها،

---

(١) روى بنحوه الترمذي، عن عبد الله بن يزيد رضي الله عنه.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

وخاص الخاص: محو القلب عن حب ما دون الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى[١] ـ في بعض مناجاته:

إلّهي! لا تعذب قلباً أنت حبيبه،

إلّهي! إن تعذبني عذبتَ من أحبك، وإن أهنتني أهنت من أحبك، وإن أكرمتني أكرمت من أحبك.

[طائر شهيد]:

وحكي أن أبا يزيد ـ رحمه الله تعالى[٢] ـ تكلم يوماً بكلام أهل المحبة، فجاء طائر فلم يزل يدنو منه، حتى جلس بين يديه، ثم ضرب بمنقاره على الأرض، وسال منه الدم حتى مات!

وحكي أن واحداً من العارفين، مرَّ برجل من العيَّارين[٣]، يضرب عبداً له بعود، والعبد يضحك في وجهه!

فقيل له: يا هذا! يضربك السيد بالسياط، وأنت تضحك!

قال: من حلاوة حبه، لا أجد ألم الضرب!

فصاح العارف، وخرَّ مغشياً عليه.

[أحبُّوا ما أحب الله]:

وقال يحيى رحمه الله تعالى[٤]: ليس بصادق في حبه، من

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٣٥].

(٣) العيَّارُ: الرجل الذكي، النشيط في عمله، كثير التطواف والحركة.

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٤].

لم يحفظ حدوده، ولم يعظم حرمته، ولم يعرف منته.

وحكي أن رجلاً جاء إلى عبد الواحد بن زيد فقال: أخبرني بأقرب الأعمال إلى الله تعالى، وأعظمها عنده زلفى. فقال: أن تحبَّ ما يُحِبُّ الله . فقال : اشرح لي صفة المحبة؟

فبكى عبد الواحد وقال: أتحتمل؟ قال: ما شاء الله.

فوصف له شيئاً من المحبة وحقائقها؛ فغشي على الرجل، فلما أفاق قال: سبحان الله! من يستأهل هذا؟ أو مَنْ يطيق الاستقامة على تحقيق المحبة؟

فقال: رُبَّ قلب قصد محبوبه قصداً، لا يدركه الريح العاصف، ولا البرق الخاطف، حتى وصل إلى محبوبه.

قيل: أوَ هَلْ يكون للمحب علامة؟

قال: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وكذلك المحبة، إذا دخلت القلب، تلاشت النفس بكل ما فيها عن صفات الإنسانية تحت سلطانها، فاحترق ما في القلب من غير الله بنيرانها.

[لا صبر للمحب عن المحبوب]:

قيل لبعضهم: ما بال المحبين كالمبهوتين؟ قال: لأنهم ذاقوا حلاوة محبته، وسمعوا أصوات عجائب حسن دعوته، حتى طارت عقولهم وقلوبهم إليه، وصاروا مدهوشين به؛

هيهات، أين الحب؟ وأين صفوة الحب؟ وأين حقائق

الحب؟ وأين من يستحق الحب؟ ألا إنَّ من أحبه لا يصبر عنه طرفة عين.

إنَّ الْمُحِبَّ نَهَارُهُ مُسْتَوْحِشٌ　　بَيْنَ الْعِبَادِ يَسِيرُ كَالْمُتَفَرِّدِ
فَالْعَيْنُ مِنْهُ قَرِيرَةٌ بِحَبِيبِهِ　　يَرْجُو لِقَاءَ الْوَاحِدِ الْمُتَوَحِّدِ
يَا حُسْنَ مَوْكِبِهِمْ إذَا مَا أَقْبَلُوا　　نَحْوَ الْإِلَهِ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

* * *

الحديث السابع والثلاثون

[الجنة والإيمان]:

أخبرنا شيخنا أبو المكارم، باز الله الأشهب، خالي الشيخ: منصور، الأنصاري الحسيني ـ بـرواقه في نهر دقلى ـ قال: أنبأنا أبو الحسن أحمد ـ اشتهر بـابن الصلت ـ قال: حدثنا أبـو إسحٰق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، قال: حدثنا الحسين بن الحسن المروزي، قال: حدثنا الفضيل بن موسى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(١).

أمر ﷺ بهذا الحديث الشريف: بقمع النفس، ومحق ثورتها، وصفعها بنعل الهمة، إذا تعدت طورها، بشأن إخوانها المسلمين؛

---

(١) رواه مسلم وأبو داود، والترمذي.

وألزم بالمحبة الخالصة، وجعلها عماد الإيمان، لأنها لله سبحانه وتعالى؛

وعلَّمَنا - وهو معلم الخير - ﷺ: أن إفشاء السلام منتج للمحبة، وأهل الحق ممتَحنون بأهل الباطل، ولكن لا تنحرف هممهم عن الحق، اعتماداً عليه سبحانه وتعالى.

[نعمة.. ومحنة!]:

أي بني! اعلم أن الله تعالى خلق الدنيا، وجعلها دار المحنة، ومحل الأخطار والأشرار، ثم خلط فيها الأبرار والفجار، وأهل المحبة بأهل البطالة، ثم يقلبهم من حال النعمة إلى حال الشدة، ومن حال الشدة إلى حال النعمة، لإظهار من يعبده على بساط المحنة، ممن يعبده على بساط النعمة، ومن يعبده على رؤية المعطي، ممن يعبده على رؤية العطاء!

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(١).

وفي الخبر: أن الذهب ليجرب بالنار، والعبد الصالح ليجرب بالبلاء.

والحكمة في امتحان الله تعالى عباده الصالحين: إظهار ما في ضمائرهم من صدق الدعوى وكذبه، وحقيقة المعنى وبطلانه،

---

(١) الحج: ١١.

ليكون فيه ظهور مرتبة الصدِّيقين، وافتضاح غيرهم.

[الناس . . والفتنة]:

أما ترى أنه لا يسع للحاكم أن يحكم للخصم على إحاطة علمه، في تصديق دعواه وبطلانه، من غير أن يظهر لغيره ذلك،

قال تعالى : ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2]،

وقال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ الْبَاطِلَ﴾[3].

ثم اختلفوا، فقال بعض العلماء: من يعبده على بساط النعمة، أولى ممن يعبده على بساط المحنة، لأن منزلة الشكر، أفضل من منزلة الصبر، وذلك لأن الشكر على النعمة، طاعة على بساط الفراغة، والصبر على الشدة طاعة على بساط الشغل؛

وليس من عَبَدَ الله فارغاً، كمن عَبَدَه مشغولاً!

[أشد الناس بلاء]:

وقال بعضهم: من يعبده على بساط المحنة أفضل، لأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أفضل مرتبة ممن دونهم، فامتحن

---

(١) العنكبوت: ١ ـ ٢.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

(٣) الأنفال: ٨.

الله عامتهم بأنواع المحن والبلاء،

وقال ﷺ: «أَشَدُّ ٱلنَّاسِ بَلَاءً ٱلأَنْبِيَاءُ» الخبر(١)؛

وإن الكفرة هم أهون الخلق على الله، وعيش عامتهم بأنواع النعم؛

وليس من طلبه بنفي الحجاب، كمن طلبه من وراء الحجاب،

والشاكر يطلبه من وراء الحجاب، والصابر يطلبه دون الحجاب،

والشاكر يعبده على حظ نفسه، والصابر يعبده على حب ربه،

والشاكر مفتخر بملكه، والصابر مفتخر بمليكه،

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، والترمذي، وابن ماجه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«أَشَدُّ ٱلنَّاسِ بَلَاءً ٱلأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ ٱلأَمْثَلُ فَٱلأَمْثَلُ، يُبْتَلَى ٱلرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلْباً ٱشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ٱبْتُلِيَ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ ٱلْبَلَاءُ بِٱلْعَبْدِ حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَىٰ ٱلأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

قال الإمام المناوي في «فيض القدير» (١/٥١٩): من ظن أن شدة البلاء هوانٌ بالعبد، فقد ذهب لبُّه، وعميَ قلبُه! فقد ابتُليَ من الأكابر ما لا يُحصىٰ، ألا ترى إلى ذبح نبي الله يحيى بن زكريا، وقتل الخلفاء الثلاثة، والحسين، وابن الزبير، وابن جبير؛

وقد ضُرب أبو حنيفة وحُبس ومات بالسجن؛ وجُرِّدَ مَالِكٌ وضُرب بالسياط، وجُذبت يده حتى انخلعت من كتفه؛ وضُرب أحمد بن حنبل حتى أغمي عليه، وقطع من لحمه وهو حيٌّ! وأُمر بصلب سفيان، فاختفىٰ؛ ومات البويطي مسجوناً في قيوده؛ ونُفيَ البخاري من بلده!! إلى غير ذلك مما يطول. انتهى كلام المناوي رحمه الله تعالى.

والشاكر حبس نفسه مع النعمة، والصابر حبس قلبه مع المنعم،

والشاكر يقول: ما دامت النعمة معي، لا أبالي إن أصابني ما أصابني،

والصابر يقول: ما دام المنعم معي، لا أبالي إن أصابني ما أصابني،

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ، قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾(١).

وإن الله تعالى أوجب للشاكر الزيادة، ونفى عن أجر الصابر النهاية، حيث قال:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾(٢)،

وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٣).

أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: أني قَدَّرْتُ في أم الكتاب، أني إذا أحببت عبداً جعلته للبلاء غرضاً، وألبسته جلباب الفقر.

[مداخل أعداء الله]:

وفي الخبر: أن الله تعالى، أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: قل لأوليائي وأصفيائي وأهل محبتي: أن لا يدخلوا

---

(١) البقرة: ١٥٦

(٢) الزمر: ١٠.

(٣) آل عمران: ١٤٦.

مداخل أعدائي، ولا يسكنوا مساكن أعدائي، ولا يَطْعَمُوا مطاعم أعدائي، فيكونوا أعدائي، كما أولئك أعدائي.

[الفرح بالشدائد!]:

وقال وهب رحمه الله تعالى[١]: إنا نجد في كتاب الله المنزل: أن عبادي المخلصين، كانوا إذا سلكوا طريق الشدة والبلاء، فرحوا واستبشروا، ويقولون: الآن يتعهدنا ربنا!

[أمثلي يذكره الله؟!]:

وفي الحديث القدسي: «أن البلاء أسرع إلى من يحبني، من السيل إلى منتهاه».

حكي أن ذا النون المصري ـ رحمه الله تعالى[٢] ـ سمع مريضاً يقول: أخ، أخ! فقال: ليس هذا بصادق في حبه، فقال المريض: أنيني من وجدان اللذة، لا من وجدان الشدة.

وحكي أن فتحاً الموصلي رحمه الله تعالى، أصابه الحمى، فصلى ألف ركعة، شكراً لله على ذلك، وقال: أمثلي يذكره الله من فوق عرشه! وعلم أن لي ذنباً فأراد طهارتي.

وقالت رابعة رحمها الله تعالى[٣]: مَا عرفتُ البلاء منذ عرفت الله.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [١٢٥].

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

(٣) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

[العذاب الأدنىٰ]:

أي بني! الخلق صنفان، وليّ، وعدوّ؛ والحال حالان، شدة، ونعمة؛ فربما تصل الشدة إلى الولي كرامة له، كما وصلت إلى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وربما تصل اللذة إلى العدو خسراناً له، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾(١).

وربما تصل النعمة إلى الولي استدراجاً وتنبيهاً له، وربما تصل النعمة إلى العدو، وهو حظه من الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾(٢).

[إكرام أم إهانة؟]:

ثم إن الابتلاء على نوعين: إكرام، وإهانة؛

فكل بلاء يقربك من المولى، فهو في الاسم: بلوى، وفي الحقيقة: زلفى؛

وكل بلاء يبعدك عن المولى، فهو في الحقيقة: بلوى!

ألا ترى أن الله تعالى ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان سببُ ابتلائه: الخُلَّة والقربة؛

وابتلى إبليس، وكان سبب ابتلائه: اللعنة والفضيحة!

---

(١) السجدة: ٢١.
(٢) إبراهيم: ٣٠.

فقال إبراهيم في البلوى: حسبي ربي. وقال إبليس: حسبي نفسي!

فنودي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام بالخُلَّة، ولإبليس باللعنة!

* * *

الحديث الثامن والثلاثون

[الرحِمُ تشكو إلى الله]:

أخبرنا ابن عمي العبد الصالح السيد: سيف الدين عثمان، قال: حدثني أبوك السيد علي بن يحيى الرفاعي ـ صاحب المشهد المنوَّر، بالجانب الشرقي من بغداد ـ قال: حدثني ابن عمي السيد حسن، قال: حدثني السيد يحيى، قال: حدثني السيد ثابت، عن أبيه السيد علي الحازم ـ ويكنى بأبي الفوارس ـ عن أبيه السيد علي، عن أبيه السيد رفاعة الحسن ـ المكي ـ عن أبيه السيد أبي القاسم محمد، عن أبيه السيد الحسن الرئيس، عن أبيه السيد الحسين عبد الرحمن الرضي المحدِّث، عن أبيه السيد أحمد الأكبر، عن أبيه السيد موسى، عن أبيه السيد إبراهيم المرتضى، عن أخيه الإمام علي الرضا ـ صاحب طوس ـ عن أبيه الإمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين عليّ، عن أبيه الشهيد المظلوم الإمام الحسين، عن أبيه أمير المؤمنين علي المرتضى، رضي الله عنه وعنهم أجمعين، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَمَّا أُسْرِيَ بي إِلَى ٱلسَّمَاءِ، رَأَيْتُ رَحِماً مُعَلَّقَةً بِالْعَرْشِ، تَشْكُو رَحِماً إِلَى رَبِّهَا أَنَّها قَاطِعَةٌ لَهَا؛ قُلْتُ: كَمْ بَيْنَكِ وَبَيْنَهَا مِنْ أَبٍ؟ قَالَتْ: نَلْتَقِي فِي أَرْبَعِينَ أَباً»[١].

في هذا الحديث الشريف، من الإلزام للعبد بالرحمة، ما يقيد نفسه عن جموحها، إذا أدرك وكان من الموفقين؛ وقد بلغني عن بعض العارفين، أنه كان يقول في مناجاته:

إلٓهي! بأرحام اتصلت، وبقلوب بك اشتغلت.

[مناجاة بكل لسان]:

أيْ بني! اعلم أن المحبين في طرائق العبودية، وأوقات المناجاة، على أصناف شتى، فمنهم: من ناجاه على لسان الاعتذار، ومنهم: من ناجاه على لسان التحير والاضطرار، ومنهم: من ناجاه على لسان الطرب والافتخار، ولو علم أهل الغفلة ما فاتهم في كل نفس!

قال النبي - ﷺ - في مناجاته: «إلٓهي! إذا قرت أعين أهل

---

(١) لم أعثر على تخريج هذا الحديث - فيما رجعت إليه من الكتب - بهذه الصيغة، غير أن الإمامين: البخاري ومسلماً، خرّجا حديثاً بنحوه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:
«الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللّٰهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ ٱللّٰهُ».
وهناك أحاديث كثيرة، تحثّ على صلة الرحم، تراها في «كتب السنن» فارجع إليها إن شئت.

الدنيا من دنياهم، فأقر عيني بك، وأقر عيني بلذائذ أنسك، والشوق إلى لقائك».

وكذا يقول من يحب: يا خير مؤنس وأنيس! يا خير صاحب وجليس! طوبى لمن اكتفى منك بك، اللهم لبيك، لبيك يا حبيب القلوب! لبيك يا سرور القلوب! لبيك لبيك يا منىٰ القلوب، لبيك اللهم آليت بك عليك، أن لا تصرفني بك عنك، ولا تحجبني بك عنك.

[مَنْ أرهبُ وأنتَ مولاي؟]:

إلهي! لو دعوتني إلى النار لأجبتك، وافتخرت بك، فكيف وقد دعوتني إلى نفسك؟

إلهي! إن قربتني منك، فمن الذي يبعدني؟ وإن أعززتني بك، فمن الذي يذلني؟ وإن رفعتني إليك فمن الذي يضعني؟

إلهي! من أرهب وأنت مولاي؟ ولمن أرجو وأنت مناي؟ وبمن استأنس وأنت جليسي؟ فبك عليك أن تتفضل بإتمام فضلك، يا نعم المولى! ونعم النصير.

إلهي! سري عندك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، وأنت بالجود معروف، وبالكرم موصوف.

إلهي! أنت أنيس المستأنسين من أحبائك، ومأوى المرهوبين من أصفيائك، وجليس الملهوفين من أوليائك؛

إلهيَ! ما أطيب معرفتك فيَ قلوب العارفين، وما أحلى ذكرك

في أفواه الذاكرين، وما أحلى مودتك في أسرار المحبين،

إلٰهي! أنت الذي لا تبطل أمل الآملين، ولا يخفىٰ عليك أحوال المريدين، ولا يخيب لديك رجاء المنيبين.

[السرور والأُنس]:

إلٰهي! أنت سروري إذا نظرتُ منك إليك، وأنت حسبي إذا استكفيت بك منك، وأنت أنيسي إذا نزلت منك بك؛

اللهم ارحم انقطاعي إليك، وانفرادي بك، ووحشتي عمن سواك، فيا خير مؤنس وأنيس! ويا خير صاحب وجليس! كن دليلي منك وإليك.

إلٰهي! اجعل أجلَّ العطايا في قلبي حياءك، وأعذب الكلام على لساني ثناءك، وأحب الساعات إليَّ، ساعة يكون فيها لقاؤك.

إلٰهي! ما أوحش قلباً ليس فيه ذكرك! وما أخرب قلباً ليس فيه خوفك! وما أقل سروراً ليس فيه حبك!

إلٰهي! لا صبر لي في الدنيا عن ذكرك، فكيف أصبر في الآخرة عن رؤيتك؟!

إلٰهي! أشكو إليك غربتي في بلادك، ووحشتي بين عبادك.

إلٰهي! ما لمرادنا غيرك، ولا لبغيتنا دونك، وما لحاجتنا سواك.

إلٰهي! هذه لذائذ المناجاة، فكيف لذائذ الملاقاة؟

إلٰهي! هذا شكري، وشكر شكري.

إلٰهي! هذا سروري، وسرور سروري.

إلٓهي! هذا ودي وود ودي.

إلٓهي! أنسي بك أوحشني من خلقك، ومعرفتي بك تمنعني عن مناجاة غيرك.

[تعجبات!]:

إلٓهي! كيف أشغلُ لساني بذكر غيرك؟ أم كيف أشغلُ بصري برؤية غيرك؟ أم كيف أشغلُ قلبي بحب سواك؟ وأنا لا أعرف غيرك.

إلٓهي! على مَنْ أُثني وأنتَ وليي؟ ومَنْ أرجو وأنت مُناي؟ يا خير معروف ومذكور! أعززتني بولاية معرفتك، فلا تذلني يا سيدي بعدها بمن سواك.

إلٓهي! عجبت ممن يعرفك، كيف لا يستغني عمن سواك؟

إلٓهي! عجبت ممن أنس بك، كيف لا يستوحش عن غيرك؟

إلٓهي! عجبت لمن أرادك، كيف يريد سواك؟

إلٓهي! هذا سروري بك في دار الفناء، فكيف سروري بك في دار البقاء؟

إلٓهي! هذا سروري بك في قراطق[1] الخدمة، فكيف سروري بك في غلائل النعمة؟

إلٓهي! هذه لذائذ المحبة، فكيف لذائذ الرؤية؟

إلٓهي! هذه لذائذ المؤانسة، فكيف لذائذ الزيارة؟

---

(١) أي: ملابس الخدمة. مفردة قرطق، كجندب. (من تحقيق النسخة القديمة).

إلَهي ! من لم يكن مسروراً بك، فَمِنْ أي شيء يكون له سرور؟

إلَهي! سقيتني بكأس الحب حتى أسكرتني، فالحب يقتلني، والشوق يحرقني.

إلَهي ! أريتني حبك، فأرني وصلك.

إلَهي ! طال بك حسن ظني، على أن لا تردني خائباً، فلا تخيب ظني بك، يا معروفاً بالمعروف!

إلَهي! ليس لي عنك صبر، ولا فيك حيلة، ولا منك بد، ولا عنك مهرب، ولا مع سواك أنس.

إلَهي! أحييتني بمعرفتك، فلا تمتني بنكرتك،

إلَهي! أريتني وصالك، فلا تُرني فراقك،

إلَهي! إن لم تفعل ما نريد، فصبِّرنا على ما تريد،

إلَهي! فَرِّغْ قلبي لذكر عظمتك، وأطلق لساني بوصف منتك، وقوِّني على شكر نعمتك،

إلَهي! ارحمني فأنا عاجز عند النَصَب[١]، جاهل بالسبب، حيران في الطلب؛

إلَهي! جعلتَ سبب ما تعطي رجاءك، وسبب ما يجمع بين أوليائك، تأليفك بين قلوبهم.

إلَهي! فأعطني المرجو كما وهبت الرجاء، واجمع بيني وبين

---

(١) أي: عند التعب.

أوليائك، كما ألفت بين القلوب.

كيف يفتقر من أنت حظه؟ أم كيف يستوحش من أنت أنيسه؟ أم كيف يذل من أنت حبيبه؟ أم كيف يحزن من أنت نصيبه؟

إلٓهي! همك أبطل عني الهموم، وحبك حال بيني وبين الرقاد، وشوقي إليك منعني اللذات، وأنسي بك أوحشني عمن سواك.

[موالاة إلٓهية]:

إلٓهي! أنت توالي من يعاديك، فكيف تعادي من يواليك؟!

إلٓهي! معرفتي بك دليلي عليك، وحبي لك وسيلتي إليك،

إلٓهي! عَرَفَ المحبون كمال ربوبيتك، والمذنبون صنيعك وكمال قدرتك، فاستسلموا وانقادوا لك،

إلٓهي! اجعلني ممن لا يتخذ دونك خليلاً، ولا يلتمس إلى سواك سبيلاً، ولا يرجو من غيرك فتيلاً.

إلٓهي! لا تجعلني ممن صرفت عنه وجهك، وحجبت عنه عفوك، وأغلقت عليك بابك، وقطعت عنه أسباب عصمتك، ووكلته إلى نفسه، إنك على كل شيء قدير.

قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى[1]: رأيت جارية متعلقة بأستار الكعبة تقول:

إِلَيْكَ جِئْنَا وَأَنْتَ جِئْتَ بِنَا ... وَلَيْسَ شَيْءٌ سِوَاكَ يُحيِينَا
مِنْكَ طَلَبْنَا وَأَنْتَ تَمْلِكُنَا ... وَلَيْسَ شَيْءٌ سِوَاكَ يُؤْتِينَا

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٥٠].

الحديث التاسع والثلاثون

[في محبة الوالدين]:

أخبرنا شيخنا منصور الرباني رضي الله عنه، عن أبيه سيدي يحيى النجاري، عن سيدي أبي محمد الشنبكي الأنصاري ثم الحسيني الحسني، عن الشيخ أبي بكر بن هوّار البطايحي، عن سيدي سهل بن عبد الله التُسْتَري، عن الشيخ ذي النون المصري، عن الشيخ إسرافيل المغربي، عن الإمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين علي، عن أبيه الإمام الحسين، عن أبيه الإمام عليٍّ المرتضى رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ أنه قال: **«نَظَرُ الْوَلَدِ إِلَىٰ وَالِدَيْهِ عِبَادَةٌ»**[1].

قلت: في هذا الحديث الشريف، من إعظام شأن الحب لله، ما

---

(١) قال المحدِّث الإمام الكبير الشيخ: محمد ابن السيد درويش ـ الشهير بالحوت ـ في أسنى المطالب ص [٢٤٣ ـ ٢٤٤]: «نظرة إلى وجه العالم، أحب إلى الله من عبادة ستين سنة»: لا يصح، وكذا النظر إلى الوالد؛ وإن كان كل منهما محبوباً شرعاً.

يرفع بهمم المحبين إلى الله، فإن النظر في الله(١) عبادة، وكذلك؛

أي بني! فاعلم أن عالِمَ أسرار المحبين، والمطلع على همة المشتاقين، طيب الدنيا للعارفين، بذكر الخروج منها، كما طيب الجنة لأهلها، بذكر الخلود فيها، ولا شيء أحبُّ إلى المحب من لقاء المحبوب، ولولا الآجال التي كتبها الله على المشتاقين، لماتت أرواحهم في أبدانهم، لشدة الاشتياق إليه.

قال أنس رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله! لو شاء الله أن يدوم البقاء لأوليائه في الدنيا،

فقال: يأبى الله أن يجعل الخلود لأوليائه في الدنيا؛ بل اختار لأوليائه وأحبائه: ما عنده من جزيل كراماته؛ أما تعلمون أن الحبيب يشتاق إلى الحبيب، فطوبى لمن كان روحه وراحته في لقاء الله.

[شراء الموت]:

وحكي أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال لرفيق له: أين تذهب؟

فقال: أشتري شيئاً لأهلي.

فقال أبو هريرة له: إن قدرت تشتري الموت لي فافعل، فإنه طال شوقي إلى ربي، وإن الموت أحب إليَّ من شرب الماء البارد للعطشان، وأحلى من العسل، ثم بكى بكاء شديداً، وقال: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه؛ وغشي عليه.

---

(١) أي: إن النظر في مصنوعات الله، على وجه التفكر والتدبر، الموصل إلى زيادة المعرفة في الله: عبادة عظيمة، ومقام كبير. (من تحقيق النسخة القديمة).

قيل لأويس رحمه الله تعالى(١): كيف أصبحت؟

قال: كيف يصبح من إذا أصبح لا يشتهي أن يمسي، وإذا أمسى لا يشتهي أن يصبح، وطال شوقه إلى منىٰ قلبه.

[الحبيب موجود، ليس بمفقود]:

قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى(٢): كنت أسير في بعض حيطان البصرة، فرأيت شاباً مريضاً أشعث أغبر، مستقبلاً للقبلة، يقول: قرةُ عيني، طال شوقي إليك، وما آن أن ألقاك؟ فإلى متى تحبسني عنك؟

فقلت: يا شاب! هذا الوقت الذي يطلب فيه الأحبة محبوبهم؟

فقال: الحبيب في كل الأوقات موجود، ليس بمفقود؛ بل هذا الوقت الذي تُظهر الأحبة احتراقهم بحبيبهم، ويكشف المشتاقون كتمان سرائرهم، بهيجان نيران الاشتياق إلى مُنَاهم.

[صيحة عاشقة]:

وحكي أن رجلاً من أهل البصرة، بكى على شوقه حتى ذهب عيناه، ثم قال:

إلٰهي! إلى متى لا ألقاك؟ فبعزتك لو كانت بيني وبينك نار تلتهب، ما رجعت عنك بعونك وتوفيقك، حتى أصل إليك، ولا أرضى منك بدونك.

قيل: كان لفتح الموصلي ـ رحمه الله تعالى ـ ابنتان عارفتان، فخرجتا إلى الحج، فلما وقعت أعينهما على البيت،

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٩].

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٥٠].

قالت إحداهما للأخرى: يا هذه! أهذا بيت ربي؟!

فقالت الأخرى: نعم؛ فصاحت صيحة، وماتت من ساعتها!

وقالت الأخرى: إلهي! أشكو من نفسي إليك، وقد طال شوقي إليك آه، آه، آه، تقولها حتى ماتت.

وقيل لأبي بكر الواسطي رحمه الله: ما حظيرة القدس؟

قال: هي حظيرة جعلها الله لاستماع كلامه ومناجاته، والنظر إلى وجهه، حيث شاؤوا ومتى شاؤوا، وتلا قوله:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾[1].

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى[2]: دخلت جبل لبنان، فإذا أنا بشاب قائم يقول: يا من قلبي له محب! ونفسي له خادمة، وشوقي إليه شديد، متى ألقاك؟

فقلت: رحمك الله! ما علامة حب الله؟

قال: حب ذكره، قلت: فما علامة المشتاق؟ قال: أن لا ينساه في كل حال.

[مرحباً بلقاء الله]:

بعض أهل المعرفة حضرته الوفاة، فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟

قالت: كيف لا أبكي، وأنا أبقى منك فرداً،

قال: يا هذه! أنا منذ أربعين سنة بكيت شوقاً إلى هذا اليوم، فإنه يوم وصلتي وألفتي وراحتي، فمرحبا به!

---

(١) فصلت: ٣١.

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة: [٦٢].

وحكي أن الحسن البصري رضي الله عنه[١] حضرته الوفاة، وكانوا يلقنونه الشهادة، ففتح عينيه وقال: إلى متى تدعونني إليه، وأنا محترق به منذ عشرين سنة؟

وسئل سهل بن علي ـ رحمه الله تعالى ـ عن خفقان قلب الخليل، وأزيز قلب المصطفى صلى الله عليهما وسلم؟

فقال: خفقانه من الخوف، وأزيزه من الشوق.

وبكت رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى[٢] ـ عند موتها، وضحكت من ساعتها، فقيل لها في ذلك!

فقالت: أما بكائي، فمن مفارقتي الذكر آناء ليلي ونهاري، وأما ضحكي، فمن سروري بلقائه. وماتت من لحظتها.

[الطبيب المداوي]:

ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه، فقيل له: ألا ندعو لك طبيباً يداويك؟

فقال: الطبيب أمرضني، طال شوقي إلى ربي، وإلى قرة عيني محمد ﷺ، وإلى إخواني الذين مضوا من قبلي، وإني أخاف أن أُفَرَّقَ عنهم.

وكان ذو النون ـ رحمه الله تعالى[٣] ـ يقول ليلة إلى الصباح: المستغاث، المستغاث، ثم دخله السكينة، فقيل له في ذلك!

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة: [٤٦].

(٢) تقدمت ترجمتها في صفحة: [٥٠].

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة: [٢٣].

فقال: نظرت البارحة بعين السر، في ملاحظة الحق، حتى بسط إليَّ بساط محبته، وغلبني الاشتياق إليه، فاستغثت إليه بالخروج من الدنيا، كما يستغيث أهل النار بالخروج منها،

ثم نظرت إلى سرور المجتهدين في الدنيا، ومؤانسة المريدين في ظلم الليالي، وافتراشهم الجبهة بين يدي علام الغيوب بصفاء القلوب، فدخلتْ عليَّ السكينة.

قال عقبة بن سلمة رحمه الله تعالى: ما من ساعة يكون العبد أقرب إلى الله من حين يخر ساجداً، وما من خصلة في العبد أحب إلى الله من الشوق إلى لقائه.

وفي الخبر: نعم التحفة للمؤمن لقاء مولاه.

قال محمد بن يوسف رحمه الله تعالى: لو خيرت بين أن أعيش في الدنيا مائة سنة، أعبد الله تعالى لا أعصيه طرفة عين، وبين أن أموت، لاخترت الموت.

قيل: ولِمَ ذلك؟ قال: من شدة اشتياقي إليه!

* * *

الحديث الأربعون

[التسبيح في الصلاة]:

حدثنا شيخنا الشيخ القدوة: علي الواسطي رضي الله عنه، قال: حدثني أبو الفوارس طراد بن محمد الزبيبي، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن زرقويه، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن يحيى الطائي، قال: أخبرنا جد أبي علي بن حرب بن محمد الطائي، عن سفيان بن عيينة، عن الزُّهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«التَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ وَالتَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ»(١).

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي. يعني: إذا ناب المصلي شيءٌ في صلاته، كتنبيه إمامٍ على سهو، أو إذنه لمستأذن بالدخول؛ فالسُّنَّة للرجل أن يقول: سبحان الله، وللمرأة: أن تصفق، بضرب كفٍّ على وجه اليد الأخرى.

قال شيخنا محمد نجيب خياطة رحمه الله تعالى:

لينظر العاقل متفكراً، وليتأمل كيف عني الإسلام بشأن المرأة، صوناً لها من أن تدنس بوساوس المرضى قلوبهم، حسماً لفسادهم، وقطعاً لطمعهم.

منع الرسولُ ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ المرأةَ أن تُسْمِعَ صوتها، في حال يغلب =

هذا الحديث يشير إلى الجد في الأعمال، واستهلاك الحركات والسكنات في الله تعالى.

على الظن أنها لا تخضع فيه ولا تترنم، إذ هي في حال الصلاة وهي حال خضوع للمولى وعبادة، لا حال إمالة واستمالة؛ والتسبيح مذكر بالله تعالى؛

ومع ذلك منعها من هذا الذكر، وأبدلها به التصفيق، كيلا يتسرب إلى سامع صوتها، ما قد يكون سبباً في فتنته، وإثارة لشهوته، وتعلقا لقلبه.

تأمل هذا، ثم التفت قليلاً إلى ما وقع فيه المسلمون، من خلع لعذار الحياء، وترك للآداب، وإلقاء حبل النساء على غاربهن، يفعلن ما شئن! ويمشين في الأزقة والأسواق، ويردن الملاهي والنوادي والمتنزهات، كاسيات عاريات، مائلات مميلات، يخرجن بزينة يأباها الشرف والعفاف، وتنفر منها المروءة والأخلاق، وتبعد عن شرع الله ودينه، بقدر ما تقرب من الفسوق والإلحاد، وتغضب الله ورسوله والمؤمنين، بقدر ما ترضي الزنادقة والمارقين، وتطلب هي، ويُطلب لها أعمال الرجال، من وظائف وأشغال، تحط من كرامتها، وتدنس مقامها!

والإسلام يرى في اختلاط المرأة بالرجل خطراً محققاً، فهو يباعد بينهما إلّا بالزواج، فهو لذلك:

١ ـ يُحَرِّمُ خلوة الرجل بامرأة ليست بذات محرم له،

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ». رواه البخاري، ومسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال صلى الله عليه وعلى آله لأبي أمامة رضي الله عنه: «إِيَّاكَ وَالْخَلْوَةَ بِالنِّسَاءِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَلَا رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا دَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا، وَلَأَنْ يَزْحَمَ رَجُلٌ خِنْزِيراً مُتَلَطِّخاً بِطِينٍ أَوْ حَمَأَةٍ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَزْحَمَ مَنْكِبَيْهِ مَنْكِبَ امْرَأَةٍ لَا تَحِلُّ لَهُ» [رواه الطبراني].

٢ ـ ويحرم عليها الخروج من بيتها إلّا لضرورة ماسة، وإذا خرجت للضرورة، فعليها أن لا تخرج إلا بإذن من زوجها، أو ذي مَحْرَمٍ منها، وأن تبتعد عن مظاهر الزينة، فتستر جسمها بلباس سابغ ساتر، لا يصف البدن، ولا تتعطر، ولا تتبختر،

قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [النور: ٣١].

وقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام:

وقد ترى جماعة من العارفين، يضربـون للإشـارات في الحالات، ولدى الحضرات كفاً بكف، فإياك أن تظن أن إشارتهم هذه: من التصفيق، فتزلـق، إنما هي استهلاك حركة لله، في حركة أخرى لله، فإنهم ماتوا بالله، حالة كونهم أحياء، فلذلك أحياهم الله، حالة كونهم أمواتاً.

= «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ».

[رواه النسائي، وابن خزيمة، وابن حبان، وغيرهم، عن أبي موسى رضي الله عنه].

ومعنى كل عين زانية؛ أن كل عين نظرتْ إليها، نظرة إعجاب واستحسان، فهي شريكة لها في الإثم!

٣ ـ ويحرم عليها السفر منفردة، قال ﷺ:

«لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ يَوْمَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ، إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا أَوْ زَوْجُهَا».

[رواه الستة، غير النسائي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

٤ ـ ويحرم عليها التشبه بالرجال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة مرت على رسول الله ﷺ متقلدة قوساً، فقال:

«لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَالْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ».

رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والطبراني واللفظ له.

إن الإسلام رفع شأن المرأة وصانها، وجعلها شريكة في الحقوق والواجبات، مطلوبة غير طالبة، يدفع لها المهر، وينفق عليها المال:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ولكنه لم يُخرجها من الأنوثة، فالتفريق بين الرجل والمرأة في الحقوق، إنما جاء تبعاً للفوارق الطبيعية، التي لا مناص منها بين الرجل والمرأة.

فلما اختلفت مهمة المرأة عن مهمة الرجل، اختلفت نظم الحياة المتصلة بكل منهما، فاختلفت الحقوق والواجبات، التي تحقق الأمومة والأبوة.

فالمرأة للبيت أولاً وآخراً، والرجل للأعمال أولاً وآخراً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. (انتهى من تحقيق النسخة القديمة).

[الذين ينتظرون الموت]:

أي بني! اعلم أن لله تعالى عباداً، قد ملئت قلوبهم بمحبة ربهم، ينتظرون الموت اشتياقاً إلى حبيبهم، ويكرهون طول المُكْثِ في هذه الدنيا، لا راحة لهم دون الخروج منها، وهم مغمومون بطول البقاء فيها، وشوقهم إلى الخروج، أشد من شوق العطشان إلى الماء الزلال، فإذا قرب أجلهم، أتاهم ملك الموت مع سبعين ألف ملك من الله بالتحية والسلام، كما قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

[النفس الراضية]:

وكذلك يجيء المَلَكُ للمؤمن على أطيب ريح، وأحسن صورة،

فيقول المؤمن له: مرحباً، لأي أمر جئت؟

فيقول له: لقبض روحك، على أي حال تحب أن أقبض روحك؟

فيقول: إذا كنتُ في السجود، فيفعل ذلك ملك الموت؛ فيأتيه حافظاه ويقول أحدهما لصاحبه: كان لنا صاحباً وأخاً، قد حان له الفراق، فيقولان له: جزاك الله خيراً، وغفر لك، فنعم الأخ كنت، لقد كنت أيسر مؤمن، ونعم ما قدمت لنفسك:

---

(١) النحل: ٣٢.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[١]، بالروح والراحة.

وتقول روحه لجسده: جزاك الله عني خيراً، كنت تحب الخير وأهله، وتبغض الشر وأهله، أستودعك الله.

[مستريح ومستراح منه]:

مُرَّ بجنازة علىٰ أمير المؤمنين عليٍّ ـ كرم الله وجهه ورضي عنه ـ فقال: مستريح، أو مستراح منه. فقيل له: من المستريح؟

قال: المؤمن إذا مات استراح من نَصَب الدنيا، وإيذاء أهلها، فلقي رحمة الله عليه، والمستراح منه الفاجر، إذا مات استراح منه العباد والبلاد.

قال مأمون السلمي رحمه الله: لما توفي أبو عبد الله بن مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ غسلناه وكفناه ودفناه، فهتف بنا هاتف من السماء:

الحمد لله الذي أوصل الحبيب إلى الحبيب، راضياً مرضياً.

وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله: رأيته في المنام بعد موته، كان يتبختر في حظيرة القدس! فقلت له: ما هذا التبختر؟ يا أبا عبد الله! أليس قد نُهينا عنه.

فقال: هذا مشي الخدام، في دار السلام، عند الملك العلام.

---

(١) الفجر: ٢٧ ـ ٢٨.

ورؤي ذو النون ـ رحمه الله تعالى[١] ـ بعد موته في المنام، فقيل له: ما حالك؟ قال: سألت الله أربع مسائل، فأعطاني اثنتين، وأنتظر اثنتين. قيل: وما هُنَّ؟ قال: قلت:

إلٰهي! إن قبضت روحي فلا تكلني إلى ملك الموت،
وإن سألتني فلا تكلني إلى منكر ونكير،
وإن أهنتني فلا تكلني إلى مالك،
وإن أكرمتني فلا تكلني إلى رضوان.

[الرَّيْحانُ العجيب!]:

وحكي أن داود العجلي ـ رحمه الله تعالى ـ لما مات، حُمِلَ إلى قبره، فإذا هو مفروش بالرَّيْحان، فأخذ الذي يدفنه شعبة من الرياحين، وكان الناس ينظرون إليها تعجباً، سبعين يوماً لم يتغير حالها، فأشخص الأمير وأخذها من الرجل، ففقدت، فلا يدرى كيف ذهبت؟!

وقال عمار بن إبراهيم رحمه الله تعالى: رأيت المسكينة الطاوية بعد موتها في المنام، وكانت تحب مجلس الذكر، فقلت: مرحباً يا مسكينة!

فقالت: هيهات يا عمار! ذهبت المسكينة، وجاء الغِنىٰ.
قلت: هنيئاً لك.
فقالت: وما تسأل عمن أبيحت له الجنة بحذافيرها!

---

(١) تقدمتْ ترجمته في صفحة: [٢٣].

قلت: بماذا؟

قالت: بمجالس الذكر.

فقلت: فما فعل الله بعلي بن زادان؟ فضحكت وقالت:

كساه حلة البهاء، وقيل له: يا قاريء! اقرأ، وارْقَ.

وقال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى[1]: رأيت الواصلي بعد موته في المنام، كأنه قائم في الهواء، وقد امتلأ الهواء من نوره! فقلت له: ما فعل الله بك؟

قال: نعم المولى مولانا، غفر لنا وأكرمنا، وجعل بنا ما هو أهله، قلت له: أوصني! قال: عليك بمجالسة الذاكرين، فإنهم عندنا في الرفيع من الدرجات.

ولما حضر معاذاً ـ رضي الله عنه ـ الموتُ أُغمي عليه، ثم أفاق،

فقال: ألحقوني بالذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء، ثم ضحك وقال: لا إلَه إلاَّ الله، محمد رسول الله، الحمد لله. ثم مات.

وحكي أن امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها، فصلت

---

(١) هو: أحمد بن أبي الحواري، أبو الحسن، من أهل دمشق، صحب أبا سليمان الداراني وغيرَه من المشايخ، مثل سفيان بن عيينة وغيره، وله أخ يقال له: محمد بن أبي الحواري، يجري مجراه في الزهد والورع؛ وابنه: عبدُ الله بن أحمد بن أبي الحواري، من الزهاد؛ وأبوه: أبو الحواري، كان من العارفين الورعين؛ فبيتهم بيت الورع والزهد. توفي سنة: [٢٣٠] هجرية، رحمه الله تعالى.

عند قبر النبي ﷺ، ثم سجدت، فلم تزل تقول: واشوقاه! فلم ترفع رأسها حتى ماتت.

وقال جعفر الضبي ـ رحمه الله تعالى ـ: حضرت زيارة قبر مالك بن دينار رحمه الله تعالى، فقلت: ليت شعري، ما فعل الله بمالِك؟ فسمعت صوتاً من فوق مالك:

مالِك نجا من المهالك، ومن وعثاء المسالك، وصار إلى دار السرور، بمجاورة الرب الغفور. فقلت: الحمد لله.

[رجل من أهل الجنة]:

وقال ابن بكار: صلينا الغداة يوماً بالمَصِّيصَة[١]، فلما سلَّم الإمام قام رجل وقال: يا أيها الناس! إني رجل من أهل الجنة، وإني أموت اليوم، فمن كانت له حاجة فليأت، فلما صلينا العصر، مات الرجل في سجوده.

وحكي أن الحارث عمر بن الطائي رحمه الله تعالى[٢]، مرض بأرمينية، فيوماً من الأيام، استقبل القِبلة وصلى ركعتين، ثم قال في آخر سجوده: اللهم إني أسألك باسمك الذي هو قِوَامُ الدين، وبه ترزق العالمين، وبه تحيي العظام وهي رميم، إن كان

---

(١) المَصِّيصَة: مدينة على شاطىء جيحان، من ثغور الشام، بين انطاكية وبلاد الروم، تقارب طرسوس.

(٢) وقع في اسمه تصحيف من النساخ، وهو كما في «الأعلام»: الحارث بن عمرو الطائي، والي، من القادة. ولي إمرة البلقاء في خلافة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، ثم ولي أرمينية سنة: [١٠٧] هـ. وبعثه سليمان بن عبد الملك إلى المدينة، ثم كان والياً على أذربيجان سنة: [١٠٨] هـ. وأغار عليه الترك سنة: [١١١] هـ، فهزمهم بعد قتال شديد؛ توفي بعد سنة: [١١٢] هـ، رحمه الله تعالى.

لي خير عندك، فعجِّل قبضي، ثم سكت، فحركوه فإذا هو ميت.

وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: كان لي رفيق، وكان والله من العارفين، فمرض فحضرته لأعوده، فإذا هو رافع بطرفه نحو السماء، وقال: اللهم إن كنت تعلم أني أحبك، فبارك لي في لقائك. فلم يتم كلامه حتى مات.

[القصر المعلَّق]:

وحكي أن رجلاً رأى مالك بن دينار رضي الله عنه، كأنه في قصر معلق في الهواء، بحيث لم يصف الواصفون حسنه، فقال: ما فعل الله بك يا مالك؟

فقال: أنزلني ربي في هذا القصر ـ كما ترى ـ وأباح لي أن أنظر إليه كلما اشتقت إلى رؤيته، بلا كيف ولا شبه، والحمد لله رب العالمين.

ولما حضرتْ الوفاةُ سيديَ الشيخ: منصور، رضي الله عنه، بكينا حوله، فأفاق من غشيته وقال:

مَـوْتُ الْمِحُبِّ حَيَـاةٌ لَا انْـقِـطَاعَ لَهَـا
قَـدْ مَـاتَ قَـوْمٌ وَهُمْ فِيِ النَّـاسِ أَحْيَـاءُ

ثم قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله، وأشهد أن محمداً
رسول الله، ﷺ. وقضى نحبه،
رضي الله عنه، وعن عباد الله الصالحين
اجمعين، وسلام على المرسلين،
والحمد لله رب العالمين.
آمين

الفهرس